

الحياة الاجتماعية في مصر القديمة

تأليف: سير و. م. فلندرز بتري

ترجمة: حسن محمد جوهر

عبد المنعم عبد الحليم

اهداءات ٢٠٠٠
أ.د.رشيد سالم الناضوري
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

الى استاذي الفاضل
الدكتور رشيد الناضوري
مع فائق شكري وتقديري

٧٦/٥/٢٠

الحياة الاجتماعية
في مصر القديمة

تأليف: سير و. م. فلندرز بيتري

ترجمه وعلق عليه وقدم له

حسن محمد جوهر
وكيل وزارة التربية والتعليم السابق

عبد المنعم عبد الحليم
المفتش بوزارة التربية والتعليم

الهيئة المصرية العامة للكتاب
مكتبة الاسكندرية
١٩٧٥

تقـــديم

لقد نشر هذا الكتاب أول مرة في عام ١٩٢٣م ، فنفذت طبعته في أقل من سنة ، فأعيد طبعه للمرة الثانية عام ١٩٢٤م ، وصدرت آخر طبعة له عام ١٩٣٢م ٠

وعلى الرغم مما قام به علمـــاء الآثار المصرية من كشوف بعد هذا التاريخ أماطت اللثام عن كثير من نواحي الحياة المصرية ، فانه مازال من أهم المصادر عن حياة المصريين القدماء وأصدقها ٠

ولا تعزى أهمية هذا الكتاب الى غزارة مادته وصحتها فحسب، ولكنها تعزى أيضا الى صدق فراسة مؤلفه ، وصـــدق حكمه على الأشياء ٠ ولا غرو فالسير فلندرز بترى يعد بحق فى طليعة علماء الآثار الراسخين في العـلم ، الذين استطاعوا أن يتحرروا الى حد كبير من ميولهم الشخصية ، ومن عقـد البيئة والجنس والدين ، ودونوا الحقائق العلمية مجردة من الغرض ، ومن غير تحريف فيها ،

ولا تشويه لها : فجاءت كتبه صـــورة صادقة للحقائق التاريخية الثابتة : فهو مثلا عندما يكتب عما أشاعه المؤرخون المغرضون عن السخرة في مصر القديمة ، يردها الى أسبابها الطبيعية الحكيمة ..

ولقد تعرضت حياة الشعب المصرى في الأزمان الغابرة لكثير من المسخ والتشويه على يد المؤرخين الاجانب قديما وحديثا . وأولهم الرحاله اليوناني هيرودوت ، الذى زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، إبان محنــة من أشـــد المحن التى ابتليت بها ، الا وهى الاحتلال الفارسى ، الذى أثر تأثيرا سيئا فى أخلاق المصريين آنذاك ، شأن كل احتلال أجنبي ، فخدعته ظواهر الأمور ، فأخذ بها ، وكتب عنهم ما أزرى بهم ، وحط من شأن حضارتهم ، حتى خيل لمن قرءوا ما كتبه عنهم أنهم قـــوم بدائيــون يعبـــدون التماسيح والعجول والقطط .

وقد ظلت هذه الصـــورة المشــــوهة والروايات الكاذبة التى اذاعها هيرودوت وغيره من الجهـــال المغرضين يرددها الناس مئات السنين .

وعلة هذا كله أن اللغة المصرية القديمة ، المرجع الحق لتاريخ مصر الفرعونية وحضـــارتها العريقة ، ظلت سرا خفيا حتى جاءت الحملة الفرنسية مصر فى يولية سنة ١٧٩٨ م (فى محرم ســـنة ١٢١٣ هـ) وأصدر العلماء الفرنسيون الذين جاءوا معها كتــاب وصــف مصر ، ذلك الكتاب الجليل الشامل ، وحل أحدهم ، وهو العالم الأثرى شمبليون رموزها (١) !

فما ان ذاع هذا الكشف العظيم حتى هرع العلماء الى مصر ، واتكبوا على دراسة تاريخها الفرعوني ، وحيـــاة سكانها فى ذلك العهد المجيد ، مما دونه المصريون أنفســـهم ، منقوشا على معابدهم

(١) الضمير يرجع الى اللغة الهيروغليفية .

وحيطان مقابرهم . وكانت النتيجة اللازمة لهذه الدراسات أن عرف الناس في شتى أنحاء العالم أن حضـارة مصر أروع حضارة عرفها الانسان ، وأنها المعين الذى منه نهلت أثينا وعبت روما .

ولكن مما يؤسف له كثيرا أنه جاء في اثر العلماء الأعلام الذين جاءوا مصر من بلادهم ، وانقطعوا لدراسة آثارها ، جاءت فئة نهازة، كان همهم الأول سرقة الآثار وتهريبها الى بلادهم لبيعها لمتـاحفها وجمعياتها العلمية ، ولم يصدهم خلق عن انتزاع بعض الأحجـار المنقوشـة من أماكنها في جدران بعض المعـابد أو حيطان بعض المقابر(١) .

وحتى العلماء الأعلام الذين جاءوا مصر ، وكان هدفهم دراسة آثارها دراسة علمية ، لم يكونوا كلهم يسيرون على نظام مرسوم ، ونسق في التنقيب معلوم ، الأمر الذى أدى في كثير من الأحيان الى الاضرار ببعض الآثار .

وهنا يبرز فضل الاستاذ العالم فلندرز بترى على الآثار المصرية. فقد كان في طليعة العلماء الذين لم يتبعوا في التنقيب عنها الطرق العلمية المنظمة فحسب ، بل كان المعلم الأول لها ، وكان لآرائه فيها الفضل الأكبر في ارساء فن البحث والتنقيب عن الآثار على أسس علمية سليمة .

ومن أجل هذا كله وقع اختيارنا على هذا الكتاب القيم لترجمته الى اللغة العربية . ولقد لقينا في ترجمته نصبا ، لأن في بعض عباراته اختصارا يوشك أن يخل بمعناها ، وفيه اشارات لبعض حقائق تاريخية غير مذكورة فيه ، اعتمادا على أن القارىء ملم بالتاريخ

---

(١) ولنضرب لذلك مثلا : الصورة المنقوشة التى تمثل زوجة ملك بنت، وكانت في الأصل جزءا من جدران معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحرى ، ولقد نقل بعضهم مقبرة كاملة مثل مقبرة متن التى نقلت الى متحف برلين .

المصرى ، ولهذا بسطنا بعض العبارات المجملة ، وفسرنا كثيرا من الفقرات الغامضة ، واستبدلنا الحقائق التى عرفت بعد تأليف الكتاب بالمعلومات المذكورة فى الكتاب والتى ظهر عدم صحتها ، وأضفنا كثيرا من الحواشى والتذييلات التى توضح غامضا أو تجلى حقيقة ، ولم نشأ أن ننسبها الى أنفسنا لأننا لم نجد داعيا لذلك ، لأن الكتاب خلو منها ، فجميع الحواشى من تأليفنا .

هذا وقد أضفنا ثبتا بالترتيب الزمنى لملوك مصر العظام ، والذين ورد ذكرهم فى الكتاب بخاصة ، ليستطيع القارىء أن يرجع اليه كلما اقتضى الأمر ذلك ، كما زودنا الترجمة بخرائط ورسوم توضيحية خلا الكتاب منها .

والله ولى التوفيق .

المترجمان

ثبت
بالترتيب الزمني لملوك مصر المشهورين

تمهيد

لقد استقى المؤرخون علمهم عن العصر التاريخي لمصر ، وهو العصر الذي يبدأ بتدوين المصريين لأعمالهم وشتى نواحي حياتهم ، من مصادر عدة ، أهمها ماخلفوه من آثار ، وما على بعضها من نقوش ، سواء أكانت كتابات أو صورا ، وما تركه المؤرخون القدامى من مؤلفات ، وأشهرهم المؤرخ المشهور مانيثون (١) الذي

---

(١) هومانيثون السمنودي ، كان كاهنا في مدينة هليوبوليس في عهدي بطليموس الاول وبطليموس الثاني ، وقد كلفه الملك الاخير بكتابة تاريخ جامع لمصر ، فكتبه في ثلاثة أجزاء .

ومما يؤسف له كثيرا أن هذا الكتاب القيم فقد ، ولم يبق منه إلا ما اقتبسه منه المؤرخون ، الذين جاءوا بعده ، ونسبوه إليه .

ألف كتاباً عن تاريخ مصر في جميع العصور ، تحدث فيه عن الأسرات التي حكمت مصر ، وأحصاها فبلغت احدى وثلاثين ! وقد أخذ عنه المؤرخون الذين جاءوا بعده .

ولقد قسم المؤرخون الأسرات أقساما عدة ، يشمل كل قسم منها الأسرات المتوالية ، التي تتسم بطابع خاص ، والتي لها صفات مشتركة ، ولتاريخها صبغة مميزة .

أما عصر ما قبل الأسرات ، ويطلق عليه عصر ما قبل التاريخ، فقد اعتمد علماء الآثار في تحديد حقبه على الآلات والأدوات والأواني التي خلفها سكان مصر في ذلك العصر الواغل في القدم ، وقسموه وفقا لهذا ثلاث حقب :

(أ) الحقبة الباليوليتية : أي عصر الحجر المنحوت نحتاً ساذجاً .

(ب) الحقبة النيوليتية : أي عصر الحجر المصقول بعد النحت .

(ج) الحقبة الانيوليتية : أي عصر استعمال الحجر والنحاس في صنع الآلات .

ولقد ابتدع فلندرز بترى طريقة لترتيب ذلك العصر ، وهي الطريقة التي تعرف بالتوقيت المتتابع (١) ، والتي سهلت على العلماء معرفة المراحل الحضاريه التي مرت بها مصر ابانه .

---

(١) تعتمد هذه الطريقه على دراسة الأواني المصنوعه من الفخار التي عثر عليها في المقابر المصرية التي ترجع الى ذلك العصر العتيق ، ومقابر نقادة بخاصة ، وترتيبها تبعا لتطور صناعة مقابضها او تبعا لألوانها ودرجات صقلها ، وعلى تطور =

ويبدأ العصر التاريخي بابتداع المصريين للكتابة واستعمالها ، وهو عهود يتلو بعضها بعضا :

١ ـ العهد العتيق ، ويشمل الأسرتين الأولى والثانية :

(أ) الأسرة الأولى (٤٧٧٧ ق٠م ـ ٤٥١٤ ق٠م)

وأعظم ملوكها مينا (نارمر) ٠

(ب) الأسرة الثانية (٤٥١٤ ق٠م ـ ٤٢١٢ ق٠م) ٠

وأشهر ملوكها برايب سن ٠

وأهم حوادث ذلك العهد توحيد القطرين (الوجهين) البحرى والقبلى ، وبناء مدينة منف واتخاذها عاصمة للبلاد ٠

٢ ـ عهد الدولة القديمة :

وفي عهدها أصبحت مصر دولة قوية ، متينة البنيان ، كثيرة الموارد ، واسعة الثراء استطاع ملوكها بناء الأهرامات الضخمة ،

= الآثار الاخرى كالأوانى المصنوعة من الحجر والآلات المتخذة من الظران ، وقد قام بترى بترتيب ٩٠٠ مقبرة ترتيبا زمنيا ، ثم قسمها فترات ثلاثا ، كل فترة تمتاز بأوانيها الفخارية بصفات خاصة وترك ١٩ مقبرة من (١ ـ ١٩) يضاف عليها ماعسى أن يعثر عليه من مقابر أقدم ٠

واليك هذه الفترات :

(١) من ٢٠ ـ ٣٩ وقد أطلق عليها عصر ماقبل الأسرات القديم ٠

(٢) من ٤٠ ـ ٥٩ وقد أطلق عليها عصر ماقبل الأسرات المتوسط ٠

(٣) من ٦٠ ـ ٨٠ وقد أطلق عليها عصر ماقبل الأسرات الحديث ٠

ويطلق المؤرخون على ذلك العهد المجيد بعهد بناء الأهرام .

ويشمل الأسرات الآتية :

(أ) الأسرة الثالثة (٤٢١٢ ق.م ــ ٣٩٩٨ ق.م) .

وأشهر ملوكها زوسر باني الهرم المدرج ، وأشهر شخصية في عهدها امحتب المهندس ، والطبيب ، مصمم ذلك الهرم .

(ب) الأسرة الرابعة (٣٩٩٨ ق.م ــ ٣٧٢١ ق.م) .

وأعظم ملوكها سنفرو وخوفو باني الهرم الأكبر ، وخفرع باني الهرم الثاني ، ومنقرع باني الهرم الثالث والملكة خنت كاوس بانية الهرم الرابع .

(ج) الأسرة الخامسة (٣٧٢١ ق.م ــ ٣٥٠٣ ق.م) .

وأشهر ملوكها أوسركاف وساحورع .

(د) الأسرة السادسة (٣٥٠٣ ق.م ــ ٣٣٣٥ ق.م) .

وأشهر ملوكها ببي الأول وببي الثاني .

٣ ــ عصر الاضمحلال الأول أو الفوضى :

(٣٣٣٥ ق . م ــ ٣٠٠٥ ق . م) .

ويشمل الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة ، وفيه قام المصريون بثورة عارمة ضد الملوك تعد أقدم ثورة اجتماعية في

التاريخ ، وقد تمزقت فى أثنائه البلاد وصارت امارات ، وغزا الدلتا الأسيويون من الشرق والليبيون من الغرب ، ولهذا أصبح من الصعب عمل قوائم بأسماء الأسرتين السابعة والثامنة ، أما الأسرتان التاسعة والعاشرة فقد حكم ملوكهما من أهناسيا ، وكان يطلق على بعضهم اسم خيتى •

٤ ــ الدولة الوسطى :

يعد عصرها من أزهى العصور المصرية القديمة ، فقد ازدهر فيه الفن والأدب •

وقد انتشر النظام الاقطاعى فى أثنائه •

وتشمل الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة •

(أ) الأسرة الحادية عشرة (٣٠٠٥ ق • م ــ ٢٩٦٢ ق • م) •

وأشهر ملوكها منتوحتب •

(ب) الأسرة الثانية عشرة (٢٩٦٢ ق • م ــ ٢٥٦٥ ق • م) •

وأشهر ملوكها أمنمحات (١) الأول ، وسنوسرت الأول

---

(١) يكتب هذا الاسم فى الكتب التاريخية المختلفة فى صور ثلاث : أمونمحات ، أمنمحت ، وامنحمات .

وامنمحات الثاني ، وسنوسرت الثالث (سيزوستريس) وامنمحات الثالث •

٥ ـ عصر الاضمحلال الثاني :

ويشمل الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة (٢٥٦٥ ق • م ـ ١٩٢٨ ق • م) وفي أثنائه تمزقت البلاد مرة أخرى ، وتنازعها الأمراء والملوك الصغار ، وكان ملوك الأسرة الثالثة عشرة من طيبة ، وملوك الأسرة الرابعة عشرة من الدلتا ، وقد أدى ذلك الانقسام ؛ وما أصاب البلاد نتيجة له من ضعف الى تمكين الهكسوس من غزوها •

٦ ـ عصر الهكسوس :

ويشمل الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة (١٩٢٨ ق • م ـ ١٧٣٨ ق • م) وأشهر ملوكها خيان وأبيبي (أبو فيس) •

أما الأسرة السابعة عشر (١٧٣٨ ق • م ـ ١٥١٧ ق • م) • فقد كان ملوكها يحكمون من طيبة ويسيطرون على مصر العليا على حين كان الهكسوس يحكمون مصر السفلى (الدلتا) وكان الصراع على أشده بينهما •

وأشهر ملوك مصر العليا آنذاك سكننرع وكامس •

٧ ـ عصر الدولة الحديثة (١) :

في أول عهده طرد الهكسوس من مصر ، وأصبحت مصر قوة عظمى ، غزا ملوكها العظام أقطار آسيا الغربية ، وصارت مصر بذلك امبراطورية عظيمة ، مترامية الأطراف (٢) وأقدم امبراطورية في التاريخ .

وتشمل الأسر الآتية :

(أ) الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٧ ق . م ـ ١٣٢٠ ق . م) .
وأشهر ملوكها :

أحمس الأول وتحوتمس الأول ، والملكة حتشبسوت ، وتحوتمس الثالث وامنمحتب الثالث وأخناتون ، وتوت عنخ آمون وحور محب .

(ب) الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ ق . م ـ ١٢٠٠ ق . م)
وأشهر ملوكها سيتي الأول ورمسيس الثاني ومنفتاح .

(جـ) الأسرة العشرين (١٢٠٠ ق . م ـ ١٠٨٥ ق . م) .
وأشهر ملوكها رمسيس الثالث .

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن الأسرة السابعة عشرة من أسرات الدولة الحديثة .

(٢) بالغ بعض المؤرخين في اتساعها حتى جعلوها تشمل شمالي افريقية ومعظم جنوبي أوروبا وغربي آسيا .

٨ ـ العصر المتأخر :

وفى أثنائه دب الضعف والوهن فى الامبراطورية المصرية ، وفقدت مصر أملاكها فى الشام ؟ وعادت الى الانقسام مرة أخرى ، فحكم الوجـه القبلى كهنة آمـون ، وحكم الوجه البحـرى ملوك آخرون !

ويشمل الأسر الآتية :

(أ) الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٥ ق • م ـ ٩٥٢ ق • م) •

(ب) الأسرة الثانيـة والعشرين (٩٥٢ ق • م ـ ٧٤٩ ق • م) • وملوكها ليبيون ، وأشهرهم شيشنق الأول •

(جـ) الاسرة الثالثة والعشرين ! (٧٤٩ ـ ٧٢١ ق • م) وأشهر ملوكها بعنخى الأول •

(د) الأسرة الرابعة والعشرين (٧٢١ ـ ق • م ـ ٧١٥ ق • م) • وأشهر ملوكها بوكوريس •

(هـ) الأسرة الخامسة والعشرين (٧١٥ ق • م ـ ٦٧٢ ق • م) • وأشهر ملوكها شباكا •

(و) الأسرة السادسة والعشرين (٦٧٢ ق • م ـ ٥٢٥ ق • م) •

وكان عهدها عهد نهضـــة شـاملة ، ازدهرت فيه الفنون ، ونشطت التجـارة ، ولـكن كان ملوكهــا يعتمدون على المرتزقة

الأجانب ! وأشهرهم ابسماتيك الأول وينخاو وابريز وأمازيس الثانى (أحمس) .

٩ ـ غزو الفرس للبلاد (٥٢٥ ق . م) :

وبذلك بدأ الاحتلال الأجنبى لمصر لأول مرة فى التاريخ .
ويشمل الأسرة السابعة والعشرين (٥٢٥ ق . م ـ ٤٠٤ ق .م)
وأشهر ملوكها قمبيز ودارا .

١٠ ـ عهد الأسرة الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين

(٤٠٤ ق . م ـ ٣٤١ ق . م) وفيه اسـتقلت مصر بعد طردها للفارسيين ، وكان ملوكها مصريين وأشهرهم نقطانب .

١١ ـ العهد الفارسى الثانى :

وفيه غلب الفرس المصريين ، وأعادوا سـيطرتهم عليهـا
(٣٤١ ق . م ـ ٣٣٢ ق . م) .
ويشمل الأسرة الحادية والثلاثين .

١٢ ـ الفتح المقدونى لمصر :

وفيه طرد الاسكندر الأكبر الفرس من مصر عام ٣٣٢ ق.م.

١٣ ـ البطالمة (٣٢٣ ق ٠ م ـ ٣٠ ق ٠ م) :

ازدهرت البلاد فى عهدهم ، ولكنها لم تلبث أن تدهورت فى أواخره ٠

وأشهر ملوكهم ٠

بطليموس الأول (سوتر) وبطليموس الثانى (فيلادلفوس ، وبطليموس الثالث (ايوارجيتس) وبطليموس الحادى عشر (الزمار) وكليوباتره ٠

١٤ ـ العصر الرومانى (٣٠ ق ٠ م ـ ٦٤٠ م) ٠

صارت فى أثنائه مصر ولاية رومانية ، وقد طال أمده ، وقاست مصر فيه من الظلم والقسوة والأضطهاد ألوانا ٠

وأشهر براطرة الرومان فى ذلك العصر اكتافيوس وتراجان وهادريان وماركو أوريليس ودقلديانوس ، وقسطنطين ، وجستنيان وهرقل ٠

١٥ ـ العصر الاسلامى :

فتح العرب مصر بقيادة عمر بن العاص سنة ٦٤٠ م ٠

تعريف بالمؤلف

هو السير وليام فلندرز بترى ، ولد سنة ١٨٥٣ م ببلدة تشارلتون بانجلترا ، ونشأ فيها وشغف فى ربيع حياته بالآثار القديمة ، فعكف على دراسه منطقة ستون هنج الأثرية ، فى سهل سلسبرى بانجلترا ، وألف عنهما كتاباً نشر فى سنة ١٨٨٠ م •

وجاء مصر فى السنة نفسها ، وبدأ فيها سلسلة من الأبحاث والحفائر ، استهلها بأهرام الجيزة ، ثم انتقل الى الدلتا ؟ ولم يلبث أن كشف عن معبد تانيس الكبير فى سنة ١٨٨٤ م ثم كشف عن مدينة نقراطيس الاغريقية فى غربى الدلتا ، وعن مدينة دفنى فى جنوب بحيرة المنزله •

وفى عام ١٨٨٨ م انتقل الى الفيوم ، وبدأ حفائره فيهما ، فكشف مداخل أهرام هوارة واللاهون واللشت ، ثم كشف معبد ميدوم سنة ١٨٩١ م •

وذاعت أخبار كشوفه ، فشرقت شهرته وغربت ، وعين أستاذا لعلم الآثار المصرية بجامعة لندن سنة ١٨٩٣ م • وفى سنة ١٨٩٤ م أسس جمعية الأبحاث المصرية ، التى عنيت بدراسة الآثار المصرية

والكشف عنها ! وكان أهم عمل قامت به الكشف عن آثار مدينة منف •

وفي سنة ١٩٢٣ م أنعم عليه بلقب سير •

وفي سنة ١٩٣٣ م استقال من الجامعة ، وسافر الى فلسطين حيث عكف على الحفر والتنقيب فيها •

وتوفي في مدينة القدس في سنة ١٩٤٢ م •

ويعد السير فلندرزبترى في طليعة علماء الآثار الراسخين في العلم الذين استطاعوا أن يتحرروا الى حد كبير من عقد البيئة والجنس والدين عندما يكتبون عن أقوام لا يمتون اليهم بصلة ما ، كما ذكر ذلك في التقديم •

وقد ألف سير فلندرزبترى عشرات الكتب عن المصريين القدماء ، وعن آثارهم كما نشر عنهم مقالات كثيرة في المجلات التاريخية والأثرية وفي الصحف •

واليك أهم مؤلفاته عن مصر وآثارها الخالدة •

(1) History of Egypt.
(2) Religion and Conscience in Ancient Egypt (1889).
(3) Religion of Ancient Egypt.
(4) Arts and Crafts in Ancient Egypt (1909).
(5) The Pyramids and Temples of Giza (1898).
(6) Egyptian Science (1939).
(7) Egyptian Architecture (1938).
(8) Pre-historic Egypt (1920).
(9) Syria and Egypt (1896).

مقدمة المؤلف

يعتبر هذا الكتاب « الحياة الاجتماعية في مصر القديمة » موجزا لسفر أضخم وأشمل اشترك في اعداده نخبة من مشاهير العلماء والمؤرخين عنوانه : Descriptive Sociology of Egypt

ولقد راعيت فيه ربط الحقائق الماضية المجردة بأمثلة من حياة سكان مصر الحاليين ، الذين لم تتغير حياتهم الاجتماعيه كثيرا ، كما اعتمدت على كثير من المصـــادر اليونانية والرومانية ، لا لأنها تمثل عصر هاما من عصور التاريخ المصرى فحسب ، ولكن للشبه الشديد بين المصريين القدماء وبين المصريين في عهدهما ! على الرغم من انتشار المسيحية في العهد الروماني !

وفيما يختص بالفصـــول الأخيرة من هذا الكتاب فانني عالجت فيها الفنون والصناعات من حيث تأثرها بالعوامـــل الاجتماعية . أما تاريخهما فسوف أفرد له كتاباً مستقلا (١) .

(١) توجد قائمة المراجع اكبر فى كتاب Descriptive Sociology of Egypt فليرجع اليها من يريد المزيد .

هذا ولم أكتب أسـماء المراجـع فى آخـر هذا الكتاب لأنها مذكورة بالتفصيل فى كتاب :

« Descriptive Sociology of Egypt »

وأملى كبير فى أن أقوم باصدار كتاب عن :

« The Religious Life in Ancient Egypt »

فى القريب العاجل .

مراجع الكتاب (١)

(1) Breasted : Ancient Records (B.A.R.).

(2) Breasted : Book of the Dead (B.D.).

(3) Breasted : Development of Religion (B.D.R.).

(4) Beadnell : Egyptian Oasis (B.E.O.).

(5) Carnarvon and Carter : Five Years (C.C.F.Y.).

(6) Davis : Tell el Amarna (D.A.).

(7) Garstang : El Arabah (G.A.).

(8) Petrie : Abydos (P.A.B.).

(9) » : Diospolis Parva (P.D.P.).

(10) » : Gizeh and Rifeh (P.G.R.).

(11) » : Hawara and Biahmu (P.H.B.).

(12) » : Hyksos and Israelite Cities (P.H.T.).

(13) » : Heliopolis and Kafr Amarna (RPHKA).

(14) » : Labyrinth (P.L.).

---

(١) توجد قائمة للمراجع أكبر في كتاب Descriptive Sociology فليرجع إليها من يريد المزيد .

(15) Petrie : Medum (P.M.).

(16) Pliny : Natural History (P.N.H.).

(17) Petrie : Sinai (P.S.).

(18) » : Tell el Amarna (P.T.A.).

(19) Quibell : Hierakonopolis (Q.H.).

(20) » : Tomb of Hesy (Q.T.H.).)

ملاحظة :

حافظنا فى المتن على المختصرات الموضوعة بين قوسين ، ولم نترجم حروفها الى العربية .

الفصل الأول

نشأة المجتمع المصري

نشأة المجتمع المصرى وتطوره

ان نظام المجتمع البشرى معقد جد التعقيد ، ومن أجل ذلك فان دراسته ليست بالأمر السهل الميسور • وانك لتجد فى كل طبقة من طبقات المجتمع فى القطر الواحد وفى الزمن الواحد اختلافات عديدة أو لعل تلك الفوارق الحالية فى طبقة ما تبلغ فى كثرتها الفوارق التى سادت تلك الطبقة خلال الأجيال الماضية • وان تلك الاختلافات تتجاوز حدود التصور والادراك حينما نحاول دراسة المجتمع فى أقطار شتى ، ذات ظروف مناخية متباينة ، تسكنها سلالات بشرية مختلفة تتبع أساليب معيشة مختلفة وتسود فيها مذاهب دينية متعددة • وغاية ما يمكننا عمله هو دراسة العوامل التى تهيىء الظروف لنمو الجماعات البشرية وتكاثرها ، ثم محاولة تتبع الاستكشافات والابتكارات ، التى بدونها لايتاح لتلك الجماعات فرصة التكاثر والتقدم • وليس من المبالغة فى شىء اذا قلنا أن

المبتكر لشيء جديد أحد بنــاة المجتمع البشرى ، وذلك أن كل خطـوة في ميدان الابتــكار أو الاختراع لهـا أثر فعال في تقدم المجتمعات البشريه واستمرارها وتوثيق ما بينها من روابط •

ولقد رأينا ذلك في العصر الحاضر حينما حدث ذلك الانقلاب العظيم في حياتنـا الاجتماعية نتيجة لذيوع اسـتخدام الآلات في المصانع • وقد أحدث استخدام الكهرباء وانتشار الاحتراق الداخلى لتسيير السـيارات تطورا بعيد المدى في الروابط القائمة بين المدن من ناحية ومناطق الريف من ناحية أخرى •

ولهذا فاننـا حين نستعرض الظـروف الاجتماعية المتعاقبـة في مصر القديمة فسوف نحاول أن نتبين التغيرات التى حدثت في مجال الابتكارات والمعرفة مما كان سـببا في تكوين مظاهر الحيـاة الاجتماعية في تلك البلاد •

احوال قبائل الصيادين

ان أولى المراحـل التي نعرفها عن حياة المصريين أنهم كانوا قوما يشتغلون بالصـيد • فقد كان النيـل يغمـر واديه المنخفض بالمياه • وكانت بعض الأمطار تسقط على الهضاب المجاورة وكانت تعيش هنــاك أنواع من الغزلان والثيران البرية والفيلة وكثير من أنواع الحيوانات الأخرى التى لاتوجد اليوم الا في أواسط أفريقيا•

ولم يكن للسكان بد من احتراف الصيد لتعذر احتراف الرعى لأن العشب لم يكن من الوفرة بحيث يسمح بتربية الحيوان بطريقة عملية مجدية ولكن من الجائز أن يكون الانسان حينئذ قد استطاع تربية بعض الأغنام وبذل عناية خاصة في اعداد المراعى لها • وان أول ركن تقوم عليه مهنة الصيد هو احتفاظ القبيلة لنفسها بحقوق خاصة على مساحة معينة من الأرض • بحيث لاتعتدى على تلك الحقوق قبائل أخرى •

ولقد استمرت الحروب بين القبائل للظفر بمواطن الصيد ومناطق جمع الثمار للحصول على اللحوم والفاكهة والحبوب والجذور والعشب •

وكانت كل قبيلة تتخذ نظاما اجتماعيا يهيىء لها أسباب الدفاع عن تلك الحقوق • واننا لنشاهد هذا النظام الاجتماعى ذاته في دنيا الحيوان • فالماشية والكلاب البرية تدافع عن حدود مواطنها • وقد لوحظ أخيرا أن الطيور تتخذ فى كل موسم مواطن معينة تدفع عنها كل دخيل واغل وعلى الأخص فى فترة التزاوج • وهذه الظاهرة تشاهد فى عالم النبات أيضا فان بعض النبات ينشر أوراقا عريضة تمتد على مساحات واسعة كى يطرد أى نبات طفيلى ينمو على مقربة منه •

وهناك بعض شعوب كالاسكيمو والعرب يعملون على تجنب

هذا اللون من المنافسة والتصارع وذلك بتهيئة ظروفهم للمعيشة في أوطان قاحلة تدرأ التطفل وتصد الدخلاء . ومثل هؤلاء الأقوام كمثل بعض أنواع الزهور التي هيأت ظروفها بحيث تزدهر في موسم الشتاء البارد للافادة من الضوء الساطع والهواء الكافي قبل أن تورق أشجار الغابة وتلقي بظلالها عليها (١) .

على أن استغلال الأرض استغلالا خالصا للحصول على موارد القوت يتطلب وجود قبيلة متماسكة العرى للدفاع عنها وحمايتها من الدخلاء . ومن أجل ذلك كانت الحاجة ماسة الى وجود رئيس (شيخ) يقبض على زمام تلك القبيلة . وان آخر مخلفات ذلك النظام يتجلى في بعض المناطق بآسيا الوسطى . وكذلك في مواطن حفظ الحيوان البري (٢) ولاتزال نجد الى اليوم أقواما يأخذون

---

(١) في الجهات الشمالية مساحات من الغابات النفضية . وهذه الغابات ذات أشجار تسقط أوراقها في فصل الشتاء البارد فيتاح وتتشكل لبعض الأزهار البرية التي تنمو وسط تلك الغابات فرصة الاستفادة من ضوء الشمس والهواء .

(٢) في بعض جهات العالم مثل كينيا واتحاد جنوبي أفريقيا مناطق معينة يأوي اليها أنواع من الحيوانات البرية النادرة . وتسن حكومات تلك البلاد قوانين تحظر على الناس دخول تلك المناطق الا بتصريح خاص ، ومنع الصيد فيها الا برخصة معتمدة وتسمى «مناطق حفظ الحيوان البري» والغرض من وجودها المحافظة على تلك الحيوانات من الانقراض اذا أبيح الصيد فيها بدون قيد . والمؤلف هنا يعمل على الربط بين منع القبيلة للدخلاء من انتهاك حرمة أراضيها ومنع بعض الحكومات الصيادين وغيرهم من التسرب الى المناطق المحظور دخولها بغية المحافظة على ما فيها من الحيوان البري النادر .

بنظام القبيلة البدائي ويعيشون بعقلية سكان العصر الحجري القديم • وكثيرا ما تقتصر أعمالهم على جمع الثمار البرية أو صيد الحيوان (١) •

وعندما قل سقوط المطر في شمالي أفريقيا وقلت موارد مياه النيل انحسر الماء عن مسطحات غرينية تصلح للزراعة وقل عدد الحيوان فوق الهضاب • وقد أغار على مصر وقتئذ أقوام من الغرب أدخلوا حرفة الزراعة في البلاد وقضوا على عادة أكل لحوم البشر (٢) التي كانت متبعة قبل قدومهم • وقد نسب المصريون هذه التغيرات للاله أوزوريس وأتباعه من الآلهة •

---

(١) لعل المؤلف يقصد بعض قبائل سكان استراليا الأصليين وجزيرة غينيا الجديدة وبعض قبائل حوض الكنغو وقبائل البوشمان والهوتنتوت .

(٢) يشير المؤلف الى رأي ينادي به بعض علماء الآثار بأن الاله أوزيريس لم يكن مصري الاصل بل هو اله ليبي من آلهة الزراعة والحصاد انتقلت عبادته الى مصر في فجر تاريخها مع الليبيين الذين غزوا مصر في ذلك العهد البعيد . أما عادة أكل لحوم البشر فلم تكن موجودة في مصر منذ بزوغ فجر الحضارة المصرية ولكن يبدو أنها كانت موجودة بين الأقوام البدائيين الذين سكنوا هضاب وادي النيل في عصر ماقبل التاريخ بدليل الاشارة اليها في نصوص الاهرام (وهي كتابات دينية دونت داخل أهرام ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة ولكنها تسجل حوادث وعقائد وعادات ترجع الى ماقبل ذلك بآلاف السنين) . فقد جاء في الفصل ١٧٣ - ١٧٤ من هذه النصوص مايلي : «ان الملك يأكل الناس ويعيش على الآلهة .... فالكبار منهم غذاؤه في الصباح والمتوسطون حجما وجبته في المساء وصغارهم أكلته بالليل» ولاشك أن هذه العادة اندثرت من مصر منذ فجر التاريخ ولكن ظل صداها يتردد في نفوس الناس حتى دونت ضمن نصوص الاهرام

Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, pp. 127-129.

هذا وكان المصريون القدماء يعتقدون أن الذي علم أجدادهم المدنية ودربهم على الزراعة ونهاهم عن أكل لحوم البشر هو الاله أوزيريس .

دور الحنطة في نشأة المدن

وان الانتاج المنتظم للغذاء عن طريق الزراعه قد أمد الزراع في مصر بمقادير وفيرة من الحبوب مكنتهـم من اختزان مازاد عن حاجاتهم منها ٠ وهذا الفائض المدخر من الغلال امدهم برأس مال زودهم بأسباب القوة التي كانت من عوامل التمهيد لظهور « حكومات المدن » ٠ وقد لوحظ أن هناك تشابها عجيبا في طول المسافات التي تفصل بين حواضر المقاطعات في كل من اقليم الدلتا وبلاد مابين النهرين فيبلغ متوسطه في الأولى واحدا وعشرين ميلا وفي الثانية عشرين ميلا ٠ والظاهر أن هناك عاملا طبيعيا يحتمل أن يكون قد تحكم في تحديد تلك المسافات من شأنه أن جعل المخازن الرئيسية لمحاصيل المقاطعة مراكز لدوائر لاتزيد أنصاف أقطارها على عشرة أميال وهي أطول مسافة يمكن نقل المحاصيل خلالها من غير أن تتكلف نفقات كثيرة تبهظ أثمانها وبذلك أصبحت مراكز المقاطعات هي مخازن الغلال الرئيسية التي تحفظ بها المحاصيل الفائضة المدخرة والتي بدورها ساعدت على نشأة المدن المستقلة ٠ وكانت وسائل التبادل هي التي تحدد مساحة كل من تلك المقاطعات ٠ وسنرى أن هذا المبدأ يصدق كذلك في عصور لاحقة ٠ وفي خلال الحقبة التي نحن بصددها نجد أن الغلال المخزونة تمثل رأس المال الأوحد الذي يمكن استخدامه في

المعاملات المشتركة • وفي تنفيذ المشروعات التي ليس في مقدور قرية واحدة النهوض بها •

وقد كان من المستحيل على احدى هذه المدن أن تسيطر على البلاد كلها في الوقت الذي تشعر فيه أن الحنطة أساسا لمبادلاتها • فلا مصر ولا اليونان ولا ايطاليا استطاعت توحيد مقاطعاتها حتى حان الوقت الذي شاع فيه استعمال المعادن فأمكن جمعها لاستخدامها في دفع الأجور ونفقات مختلف الخدمات • ولم يكن من الميسور نقل الحنطة من جهة الى أخرى وفاء للضرائب المقررة ثم ارسالها بالتالي عبر المسافات الطويلة لدفع الأجور وغيرها لأن أكداس الحنطة كانت كبيرة الحجم ثقيلة الوزن معرضة للتلف والفساد • ولما توفر لدى مصر قدر كاف من معدن النحاس كما تدل على ذلك الأدوات النحاسية الكبيرة التي كانت مستعملة في نهاية عصر ما قبل التاريخ صار توحيد الدولة مستطاعا •

تداول العملة المعدنية
بين مختلف البلاد

وكانت السلع وغيرها تدفع أثمانها بالنحاس منذ ذلك العهد حتى عصر البطالمة حين استبدلت بها عملة أخرى أخف حملا وأغلى ثمنا •

وهكذا كان الحال في أقطار أخرى • بيد أن ايطاليا قد

حافظت على ذلك التقليد البالي وهو استخدام النحاس في عمليات البيع والشراء حتى بعد ذيوع عملة الفضة والذهب بوقت طويل ٠

ولقد كان استعمال الفضة أساسا للتبادل في المرحلة الطبيعية الثانية لأنه مورد دائم ولأنه أخف وزنا وأسهل تداولا في جمع الضرائب ودفع الأجور والمرتبات في مساحات واسعة ٠ بيد أن الفضه لم تكن كثيرة الاستعمال في مصر اذ كان يؤتى بها من أقطار بعيدة (١) ومع ذلك فقد أصبح استعمال مخلوط الفضه والذهب(٢) شائعا في عصر الأسرة الثامنة عشرة ٠ ومن ثم نرى ذلك التوسع العظيم في أملاك مصر ٠ فقد أمكن جبي الضرائب معدنا نفيسا أتاح للدولة امداد جيشها بكافة حاجاته بطريقة منتظمة ٠

أما في أرض الجزيرة فاننا نرى نقطة التحول نحو استعمال الفضة قد سجلت على مسلة مانيشتوسو (وهذا التحول يعاصر

---

(١) لم تكثر الفضة في مصر الا في العصور المتأخرة من التاريخ المصري القديم عندما بدأت جماعات الاغريق تستوطن البلاد ٠ وقد عثر في عهد الاسرتين ٢١ و ٢٢ على مقبرة للملك بسوسنس الأول والملك ششنق الثاني بها تابوتان كاملان وكثير من الاواني مصنوعة من الفضة وهي محفوظة بالمتحف المصري بالقاعة ٢ شرقا بالدور الثاني ٠ وقبل ذلك العهد كان العثور على الفضة في المقابر شيئا نادرا وليس أدل على ندرة الفضة من أن قيمتها في عهد الدولة القديمة كانت تعادل نصف قيمة الذهب ٠

(٢) كان هذا المخلوط يعرف عند المصريين القدماء باسم «جسم» وهو المعروف باسم Electrum وقد استخدمه ملوك الأسرة (١٨) في كسوة قمم المسلات حتى اذا ما سقطت عليها أشعة الشمس أرسلت أشعة تنير أرجاء المعبد وتبهر القادمين لزيارته ٠ انظر Budge, Cleopatra's Needle, p. 37.

الأسرة التاسعة في مصر) عندما قدرت قيمة الأراضي الزراعية بالحنطة والفضة على السواء • ثم أخذت الوحدة المعدنية تحل محل وحدة الحنطة شيئا فشيئا • ولم يمض بعد ذلك قرن من الزمان حتى تحققت لأرض الجزيرة أول وحدة كبرى على يد الملك « نارام سين » (١) •

وفي بلاد اليونان مكنت الفضة أثينا من توحيد الولايات الاغريقية تحت زعامتها • وكان الرصيد المشترك لتلك الولايات يحفظ في مدينة (ديلوس (٢)) وكان ذلك الرصيد كافيا لدفع عجلة الحياة في بلاد اليونان • بيد أن هذه الدولة لم تجرؤ على الاحتكاك بدولة الفرس التي كانت تعتمد على رصيد من الذهب • وعندما بدأ فيليب المقدوني في اصدار عملة ذهبية أصبح لليونان

(١) «نارام سين» هو الابن الثالث للملك سرجون الاول المشهور مؤسس امبراطورية أكاد (التي كانت تشغل الجزء الجنوبي من أرض الجزيرة) • وقد حكم نارام سين من ٢٧٩٥ الى ٢٧٣٩ ق•م وقاد حملة ضد حلف مكون من ١٧ ملكا من ملوك الحيثيين وهزمهم جميعا • ثم رد الآريين عن حدود بلاده الشمالية• وقد كشفت أعمال الحفر التي قام بها دى ورجان في مدينة السوس بايران عن لوحة لهذا الملك تمثله رجلا مفتول العضلات مسلحا بالقوس والسهام يطأ بقدميه اجسام من ظفر بهم من اعدائه الذين يتوسلون اليه ويسترحمونه • وصعود بين الاعداء أحد الضحايا وقد أصابه سهم اخترق عنقه فسقط على الأرض يحتضر• ولهذه اللوحة أهمية فنية لانها تنبىء عن وجود فن ناشىء في طريقه نحو الازدهار •

(٢) « ديلوس » جزيرة في بحر أيجه ضمن مجموعة الجزائر التي كانت تدعيا باسم «الكيكلاد» وجزيرة ديلوس هي أصغر هذه الجزائر جميعا وفي عصر سيادة الاغريق كان بها معبد مشهور للاله أبولو •

تبعا لذلك رأس مال جار أمكن استخدامه في مهاجمة فارس .
وكانت وحدة مملكة الدولة العظيمة (١) التي تعد أقوى دول العالم حتى ذلك التاريخ والتي امتدت حدودها من البلقان الى لاهور تعتمد على رصيد ضخم من الذهب بلغ المخزون المركزي منه مائتي طن ويقدر الآن بثمانية وعشرين مليونا من الجنيهات الاسترلينية ، وهو رأس مال ضخم بالنسبة للعالم القديم . وقد كان رأس المال هذا خمسة أضعاف احتياطي المانيا من الذهب في (سنة ١٩٢٣ (٢)) وكان ذلك الرصيد يحفظ في برج يوليوس .
وقد شد هذا الرصيد أزر الشعب الاغريقي ومكن له من السيطرة على الممالك التي ظهرت فيما بعد وادماجها في العالم الأغريقي والتي كانت مساحة كل منها على حدة تربو على مساحة اليونان قبل عهد الاسكندر بمائة سنة وكذلك الحال بالنسبة لنمو قوة الدولة الرومانية فقد اتسعت أملاكها عندما اتخذت عملة الفضة ثم الذهب أساسا لمعاملاتها ، وحينما كانت انجلترا تعتمد على عملة فضية كان في مقدورها الابقاء على كيانها فحسب . وما أن أخذت العملة الذهبية تؤتي ثمارها هناك حتى أخذت هذه الدولة بعد انتصارها في موقعة سلويس Sluys (٣) تفتح عهدا جديدا من التوسع

(١) يقصد المؤلف دولة الاسكندر الاكبر .

(٢) ذلك تقدير المؤلف .

(٣) معركة «سلوى» معركة بحرية حدثت قرب ميناء سلوى بالساحل الفرنسي في منتصف صيف سنة ١٣٤٠م بين الانجليز والفرنسيين . وهي اول نصر بحري في التاريخ الانجليزي كله وكانت فاتحة حرب المائة عام .

الاستعماري الذي نجده عقب محاولة غزو فرنسا قد اتخذ في النهاية وجهة السيطرة على أقطار فيما وراء البحار • وهانحن أولاء نخطو خطوة أخرى الى الأمام آخر الأمر ذلك أن التجارة العالمية يكاد لا يتيسر نقل أثمانها ذهبا الى جهات العالم المختلفة ؟ وبذلك استخدم الورق في المعاملات على نظام الاصدار وهكذا استطاع الانسان اليوم الاهتداء الى نظام التبادل بالصكوك ، وهو أسهل تبادلا وأخف وزنا في شئون التعامل • واذن فأساس الوحدة السياسية وانتشار التجارة يتوقفان أولا وقبل كل شيء على سهولة نقل القيم المدفوعة ، فالحنطة تكفي للتعامل داخل حدود المدينة الواحدة ، والنحاس يفي بحاجات مجموعة صغيرة من المدن ، والفضة لقطر قائم بذاته ، والذهب لامبراطورية تضم أكثر من قطر واحد • أما الورق فمجاله العلاقات المتبادلة بين شتى أقطار العالم •

ان الملك الواسع الذي تنقصه دعائم القوة المرتكزة على رأس المال انما يعتمد في حفظ كيانه على السطوة والجبروت فحسب • وهذا النوع من الدول قد يخرج الى حيز الوجود حينا • ومثال ذلك دولة « الهون (١) » أو دولة « المغول » ولكنه لا يلبث قليلا حتى تتداعى أركانه وتتوارى سطوته وجبروته • ومهما يكن من الأمر لا يمكن لدولة ثابتة الأركان متماسكة الأجزاء تجبى نوعا من

---

(١) مجموعة كبيرة من قبائل التتر اتصفت بالقسوة والوحشية تدفقت من آسيا في القرن الرابع الميلادي واكتسحت أمامها قبائل القوط سكان شرقي أوربا •

العملة وتنفقهـا أن يمتد نفوذها الى أبعد من حـدود تداول تلك العملة .

مصر في عصر استخدام الحنطة

ولنعد الآن الى بحث حالة المجتمع فى مصر فى عصر ما قبل التاريخ حينما كان التعامل يجرى على قاعدة استخدام الحنطة . لقد كان حاكم كل مقاطعـة وقتئذ يسـتولى على نصيب من الضرائب من المخزن المركزى لتلك المقاطعـة . غير أنه عندما اتحدت عدة مدن وأصبحت آفاق حدودها أكثر اتسـاعا كان على حاكم تلك الولاية الكبيرة أن يتنقل بين ربوعها للحصول على الضرائب المفروضه على كل مركز من مراكزها . وكان هذا الاجراء يشبه ما كان يمارسه أى رئيس من رؤسـاء عشـائر « الكلت (١) » اذ كان يحصل على الأتاوة المطلوبة مواداً غذائية تتناسب مع مساحة كل ضيعة من ضياع أتبـاعه وكان يرتحـل الى تلك الضـياع ويبقى فى كل منها أياما معدودات وفى انجلترا اسـتمرت تلك الطريقة فى جمع الأتاوات المحلية الى عصر السكسـونيين والنورمانديين . وكان ذلك راجعا الى ندرة المعادن النفيسة حينئذ . ومن أجل ذلك كان البلاط الملكى الانجليزى ينتقل من مـكان الى آخـــر وعلى الأخص بين لندن

---

(١) كانت قبائل الكلت تسكن وسط فرنسا وجنوبيها وكذلك في بعض المناطق الغربية من فرنسـا والجزر البريطانية وهى سلالات مختلفة تتكلم اللغة الكلتية .

ونشستر وجلوستر خلال العام الواحد حتى لا يأتي على موارد اقليم واحد وحتى يتحاشى ضرورة نقل المؤن المجباة من الأهلين لمسافات طويلة . ومن الجائز جدا أن تلك الحال كانت في مصر ؟ وكانت أساس نشأة ذلك التقليد المعروف « بالهبات الملكية » التي كان يقدمها الفرعون (١) لاحياء ذكرى بعض الموتى من النبلاء وأفراد الأسرة المالكة عند وفاتهم . كما كان يفرض قدرا معينا من ايجار أملاكه مقوما بالحنطة والمواد الغذائية ليكون قربانا للراحلين من أسلافه وأجداده (٢) وأننا نقرأ في احدى العبارات المدونة على مقبرة من أقدم المقابر وهي مقبرة « متن (Meten) (٣) » تنازل الملك عن ملكية احدى الضياع الى « متن » وتنازله عن اثنتي عشرة منحة عقارية لتقديم القرابين الجنائزية الى روح ذلك النبيل . ولم يعثر على أي أثر من آثار العصور التاريخية يشير الى منح هبة من الأرض الى فرد أو أفراد مدى الحياة ثم استرداد الدولة لها بعد ذلك . واذن فلا داعي لأن نفترض وجود ذلك في عصور ما قبل

---

(١) كان الأموات يدونون على أبواب مقابرهم صيغا جنائزية تبدأ جميعها بكلمة «قربان من الملك» (حتب دي نيسوت) .

(٢) ومثال ذلك ماورد في قصة الساحر « د دي » من أن الملك «خوفو» وهب لروح الملك « نب كا » قربانا مكونا من الف رغيف ومائة جرة من الشراب .

(٣) متن (Meten) موظف كبير عاش في أواخر الأسرة الثالثة وبداية الأسرة الرابعة وكان للكشف عن مقبرته أهمية كبيرة في معرفة نظام الوراثة في ذلك العهد وفي معرفة الكثير من الألقاب والوظائف . وقد نقلت مقبرته بأكملها الى متحف برلين أيام الفوضى التي تعرضت لها الآثار المصرية في القرن الماضي .

التاريخ • على أنه لما كانت الأرض تعتبر في الأصل ملكا للملك جاز لنا أن نفترض أنه في الوقت الذي ساد فيه النظام القبلي في مصر كان شيخ القبيلة يمنح فردا أو أفراداً مساحة من الأرض على أن تعاد الى الأملاك العامة للقبيلة في حالة الوفاة بدون ورثة • والظاهر أنه لم يكن هناك نظام اقطاعي على الأرض يستتبع التزامات خاصة وانما كان على من يستغل الأرض أن يؤدي مختلف الرسوم والضرائب المقررة الا اذا كانت الأرض معفاة من ذلك بصفة خاصة لوقفها على أحد المعابد •

التغيرات في عصر النحاس :

وعندما أهل عصر الأسرات في مصر ـ وكان ذلك عقب بدء استعمال النحاس على نطاق واسع ـ قامت الدولة باعداد جهاز كبير من الموظفين كان يتزايد على مر الأيام ، وكان أولئك الموظفون موزعين في شتى أرجاء البلاد ، يستخدمون معدن النحاس في معاملاتهم وكان كل مصري يود لو يصل للحصول على هذا المعدن لصنع الأدوات اللازمة له • وما جاء عصر الأسرة الثالثة حتى ظهر منصب المشرف على الفيضان • وفي عهد الأسرة الرابعة نجد قائمة بأسماء عدد من المقاطعات منقوشة على خاتم أحد الموظفين وكان يشرف على أعمال مختلفة فيها ثم كان بعد ذلك مناصب قادة القلاع ومديرو مصالح الداخلية وغير ذلك من الوظائف • وقد

أعقب ذلك زيادة سريعة في عدد كبار الموظفين . حتى جاء عهد استقرار الدولة العظيم تحت حكم الملك « خوفو » وحينئذ نجد أن ممتلكات الكهنة قد نقصت وشئون الدولة قد نظمت وفق أساليب جديدة استمر العمل على هديها منذ ذلك التاريخ .

وسوف ندرس في هذه المناسبة حالة الطوائف المختلفه التى تألفت منها طبقات المجتمع المتعددة وعلاقة كل منهما بالأخرى مرجئين الحديث عن واجباتهما فى شىء من التفصيل الى فصول لاحقة .

مركز الملك

لقد كان الملك في مصر أكثر من كونه مجرد حاكم شرعى للبلاد فقد كان يعد نفسه السيد لكافة الدويلات التى انضوت فيما مضى تحت لواء حكومة مركزية واحدة تحت امرة الملك مينا . لذلك نجد الملك قد اكتسب كافة الألقاب والامتيازات التى كان ينعم بها حكام تلك الدويلات (١) فيما مضى . وعلى هذا فقد كان

(١) كانت مصر مقسمة فى فجر التاريخ مقاطعات وكان لكل مقاطعة اله خاص تعبده وشعار يمثلها وكانت هذه المقاطعات مستقلة فى بادىء الامر . وبعد مضى زمن قامت حركة اتحاد فى البلاد ، وذلك حينما تجمعت مقاطعات الوجه البحرى فى مملكتين الأولى فى الغرب وعاصمتها « بحدت » بالقرب من دمنهور الحالية . والثانية فى الشرق وعاصمتها «بوصير» بالقرب من سمنود الحالية . وبعد فترة من الزمن اندمجت هاتان المملكتان فى مملكة واحدة شملت الوجه البحرى وأصبحت عاصمتها «بحدت» وكان الهها حور (حورس) . وفى الوقت الذى اتحدت فيه

الملك يحمل الألقاب رسمية (١) كانت لحكام تلك الولايات . وعندما

الدلتا قامت مملكة أخرى في الوجه القبلي مؤلفة من اتحاد مقاطعاته واتخذت عاصمتها بلدة « نقادة » الحالية الواقعة بالقرب من « قفط » وكان إلهها « ست » .

ثم قامت مملكة الشمال (في الدلتا) بغزو مملكة الجنوب (بالصعيد) وأمكنها توحيد القطرين وأصبحت العاصمة في «بوصير» .

ولكن بعد فترة من الزمن ثار أهالي الوجه القبلي بزعامة «نقادة» وانفصمت عرى الاتحاد . ثم ظهرت قوة «بحدت» عاصمة مملكة «حور» في الشمال من جديد وتمكنت من اخضاع مملكة «ست» في الوجه القبلي وتوحيد القطرين واتخذت العاصمة في مدينة هليوبوليس (عين شمس الحالية) حتى تكون في مركز متوسط من القطرين وكان ذلك عام ٤٢٤١ ق.م. وكانت شارة هذه المملكة المتحدة «قرص الشمس الناشر جناحيه» الذي يشاهده الزائر في كثير من الآثار المصرية .

وبعد مضي فترة من الزمن ضعفت مملكة هليوبوليس فانقسمت البلاد مرة أخرى مملكتين احداهما في الوجه البحري وعاصمتها «بوتو» (المعروفة الآن بتل الفراعين في شمال دسوق) والأخرى في الوجه القبلي وعاصمتها « نخن » (وهي المعروفة الآن بالكوم الأحمر على شاطيء النيل الغربي في مواجهة «ادفو») . وقد تم توحيد البلاد للمرة الثالثة والأخيرة على يد الملك «مينا» ملك الجنوب وأنشأ عاصمة الدولة المتحدة عند رأس الدلتا وسماها «القلعة البيضاء» وهي التي عرفت فيما بعد باسم « منف » أو « منفيس » وتوجد أطلالها الآن على مقربة من «البدرشين» جنوب أهرام الجيزة .

وبالرغم من أن أهالي القطرين اندمجوا تماما بعد ذلك واختفت معالم ذلك الانقسام الا أن ذكر مملكتي الشمال والجنوب ظل يرد على الآثار المصرية حتى آخر عصور التاريخ المصري . فكان الملك يسمى ملك الوجهين القبلي والبحري وكان «بيت المال» يسمى «البيت المزدوج» وهكذا ..

(١) الالقاب الرسمية الخمسة للفرعون هي :

(ا) «حور» وكان يطلق على الملك بمجرد اعتلائه العرش ومعناه أنه صورة حية من الاله : «حور» (حورس) تعيش على وجه الارض . وكان هذا اللقب ينقش داخل مستطيل يمثل واجهة القصر الملكي وعلى قمته صورة الصقر الذي يرمز به للاله حور . ...

ذلك فقد خلع الملك على نفســـه ألقابا للوظائف الدينية التى كان يتولاها أولئك الحكام .

على أن الوظائف الدينيـــة التى كان يتقلدها ملك مصر لم تســجل تسجيلا وافيا حتى يمكن تتبع أسسها الأصلية . فقد كان الملك يؤدى صلواته اليومية بوصفه الكاهن الأعظم للبلاد . وكانت كافة الهبات الجنـائزية والقرابين تقدم باسمه من الناحية الشكلية .

وكان المصريون كما هو الحال عند كثير من الشعوب القديمة يعتبرون أن رخاء البلاد ورفاهيتها تتوقف الى حد كبير على حيوية الملك ونشــاطه . ومن هنـا فقط يمكننا أن تدرك سر ذلك النظام الصـارم الذى قام على أساســه تحديد المواقيت اليومية لكل ما كان يؤديه الملك من أعمال . وقد جعله هذا النظام أشبه بعبد لوظيفته .

(ب) «نبتى» أى التاجان الأبيض والاحمر وكان يمثل بنسر وصل (ثعبان) يرتكز كل منهما على سلة رمزا للملكية . ويمثل هذان الحيوانان رمزين لمعبودى مدينة «نخب» فى الوجه القبلى و «بوتو» فى الوجه البحرى .

(جـ) «نسوت بيتى» ومعناه ملك الوجهين القبلى والبحرى ويمثل بنبات «البوص رمز الوجه القبلى» والنحلة «رمز الوجه البحرى . وكان هذا اللقب يطلق على الملك فى اليوم الذى يتوج فيه .

(د) «حورنب» ومعناه فى الاصل «حورس الذهبى» ثم تطور فيما بعد فاصبح مدلوله فى العصر المتأخر وعصر البطالمة «حورنبتى» أى حورس المنتصر . وهو يشير بذلك الى انتصار «حورس» على عدوه «ست» الذى كان يقطن بلدة «نوبت» وهى «البلاص» الحالية بالقرب من «قفط» كما ورد فى قصة «ايزيس وأوزوريس» .

(هـ) واللقب الأخير هو «سا . رع» ومعناه «ابن الشمس» وكان يليه اسم الملك نفسه داخل خرطوش .

وهناك مسألة أخرى كانت مثار دهشة عظيمة للاغريق تلك هى خضوع الملك التام للقانون .

ويروى المؤرخ ديودورس الصقلى (١) أن ملوك مصر لم يحكموا البلاد حكما أوتوقراطيا مطلقا كغيرهم من الحكام فى الدول الأخرى ولم يحيوا حياتهم طليقة من كل ضابط أو قيد ، وانما كانوا يراعون حرمة القانون فى كافة تصرفاتهم سواء أكان ذلك خاصا بأمور الحكم أو بشئونهم الخاصة . وعندما بدأ الملوك الأقوياء فى توحيد البلاد فى فجر التاريخ المصرى كانت الدويلات المنتشرة فى أرجاء الوادى تخضع لهم بشروط تعتبر ملزمة للملوك وعليهم احترامها . ومن هنا جاءت فكرة تقييد سلطة الملك خلال العصر التاريخى .

ومن هذا نرى أن تقييد سلطات الملك فى مصر جاء نتيجة تلك التقاليد القديمة التى آلت اليه باستيلائه على مختلف الدويلات التى كانت قائمة فى مصر من ناحية ولشخصيته المقدسة كرمز لحياة مصر من ناحية أخرى .

---

(١) «ديودورس الصقلى» مؤرخ رومانى ولد فى جزيرة صقلية وزار مصر حوالى عام ٥٩ ق.م أيام حكم البطالمة لها . والف كتابا من اربعين جزءا فى تاريخ العالم خصص جزءا منها لمصر . وقد ضاعت أغلب هذه الكتب ولم يبق منها الا ستة أجزاء .

الوزير

في عهد الأسرة الأولى كان الوزير (١) وهو رئيس الأداة الادارية يسمى حامل أختام الملك .

وفي عصر الأسرة الثالثة أصبح منصب قاضي القضاة « سبختي (٢) » أكبر مناصب الدولة . ولبث الوزير يحتفظ بلقب قاضي القضاة حتى زوال الملكية في البلاد . وكان الوزير قطب الرحى في الشئون الرسمية ناهضا بأمور الادارة والقضاء معا ويتلقى التقارير التي ترد من مختلف المقاطعات وسنتحدث عنه بتفصيل في الفصل الخاص بالادارة .

وكانت باكورة الأعمال اليومية التي يزاولها الملك الاطلاع على الرسائل الواردة من أنحاء البلاد . ومن الواضح أن ماكان لديه من تبعات دينية وأعمال أخرى متعددة في حياته اليومية قد

---

(١) لم تكن وظيفة الوزير بمعناها الصحيح معروفة في مصر قبل بداية الاسرة الرابعة اذ أن أول وزير معروف يرجع الى عصر الملك «سنفرو» وهو «نفر ماعت» حفيد الملك «سنفرو» كما يقول بعض المؤرخين (انظر كتاب مصر ، لدريتون وترجمة عباس بيومي ص ١٦٤) - أو «كانفر» ابن «سنفرو» كما يقول البعض الآخر (انظر سليم حسن ، في الجزء الثاني ، ص ١٤) . هذا ويعتقد بعض المؤرخين «كادوارد ماير» أن وظيفة الوزير كانت موجودة في عهد الأسرات الأولى ويستندون في ذلك على الكتابة التي وردت على لوحة الملك «نارمر» (الذي يرجح أنه مينا) فوق رسم شخص يتبع الفرعون ويرتدي جلد فهد . وهذه الكتابة تقرأ «تت» وهو لفظ معناها وزير ولكن ذلك غير مؤكد ولايمكن الاعتماد عليه بصفة قاطعة .

(٢) «سبختي Sebekhti » أو «ساب سبختي» .

حال بينه وبين التفرغ الكافي لادارة شئون الدولة . ومن أجل ذلك كانت وظيفة الوزير على أعظم جانب من الأهمية . وعندما وجهت الدولة عناية كبرى الى بلاد النوبة أصبحت الحاجة ماسة الى وجود منصب وزير ثان للجنوب . ولما حكمت الجنوب الكاهنات المثليمات (١) في مدينة « طيبة » ورث مساعد وهن الكبار بطبيعة الحال منصب وزير الجنوب .

توارث الحرف

واذا نحن درسنا شئون الطبقات المختلفة للمجتمع في مصر القديمة نلاحظ وجود نسبة كبيرة من الوظائف والمناصب والمهن انحدرت الى أصحابها عن طريق الوراثة وهو أمر جد طبيعي . ونشاهد مثل هذه الظاهرة في انجلترا وغيرها من الأقطار وذلك

في عهد الأسرة الثالية والعشرين الليبية الأصل لجأ الملوك الى حيلة بارعة للسيطرة على الأملاك الواسعة التابعة لمعابد الاله «آمون رع» اله طيبه فعينوا أبناءهم رؤساء لكهنة هذا الاله في مدينة طيبة .

(١) وقد ابتدع أحد ملوكهم وهو «أوسركن» الثالث بدعة جديدة هي تعيين النساء في هذه الوظائف . فعين ابنته الكبرى «شبن أوبت» كبيرةلكهنة أمون رع وبالتالي مشرفة على ايرادات معابده . وسار «تاكلوت» الثاني على منوال أبيه . ولما غزا النوبيون مصر وطردوا الليبيين عين الملك « شباكا » أخته في هذا المنصب . وقد عرفت تلك الكاهنات في التاريخ باسم «الكاهنات المثليات لآمون» ولما كانت سلطتهن تمتد على النوبة والوجه القبلي فقد كان كبار مساعديهن من الكهنة يعتبرون وزراء للجنوب .

على الرغم من أن لكل فرد هنـاك مطلق الحرية في تغيير مهنته كما يطيب له .

وعلى النقيض من ذلك نجد أنه اذا ما احترف شخص ما مهنة معينة استحال عليه احتراف مهنة أخرى غيرها . وان السهولة الطبيعيه التي كان يتعلم بها الابن حرفة والده جعلت كل جيل من الأبناء يثبت على حرفة الآباء ثم يعلمها بدوره لأبنائه . وهكذا تنتقل الحرفة بين أفراد الأسرة على مدى الأجيـال ، ومن أجل ذلك فان الأثر الذي استقر في نفوس الاغريق عندما اختلطوا بهذا المجتمع أن بنيانه قام على نظام وراثي .

تقسيم الأراضي طبقا لنظام الطبقات

وقد لحظ الاغريق أن كلا من الطبقات الثـلاث المؤلفة من الكهنة والجنود والمزارعين يمتلك أنصبة متسـاوية من الأراضي الزراعية . ويروي المؤرخ « استرابون (١) » أن هذه المساواة لم تكن مراعاة في مصر كلها بوجه عام فحسب ، ولكنها كانت مراعاة في كل منطقة على حدة . وان تقسيم أراضي كل مقاطعة الى ثلاثة أنواع من الملكيات طبقا لما رواه استرابون وغيره من الكتاب الاغريق

(١) استرابون جغرافي ومؤرخ روماني زار مصر حوالي عام ٢٥ ق.م بعد الفتح الروماني لها . وظل بها خمس سنوات وألف عنها كتابا رائعا وصف فيه خططها واورد بعض الاشارات عن تاريخها . واهم ماجاء في كتاب استرابون وصفه الدقيق المفصل لمدينة الاسكندرية .

يشبه ما ذكرته النصوص المصرية القديمة (١) من تقسيم كل مقاطعة في مصر ثلاث فئات :

١ ـ الحقول التى تقع على جوانب القنوات والترع وضـــفاف النيل .

٢ ـ الأراضى العامة أو المتوسطة الموقع .

٣ ـ الأراضى الممتدة على مقربة من حدود الصحراء وكانت عادة أكثر انخفاضـا من أراضى القسمين الآخرين ويميها وجود بعض المناقع والبرك فيها .

ولتفصيل ما أجملنـا نجد أن الأراضى المتوسـطة الموقع هى التى اختص بهـا الآلهة . فقد كانت فى نصف مجمـوع مقاطعات الدلـا مخصصــة للآلهــة « رع » و « حورس » و « آمـون » .

---

(١) أهم هذه النصوص ماورد على جوســق الملك «ســوسرت الثالث» فى الامصر . اذ دونت عليه جميع المقاطعات على هيئة قائمتين احداهما تشــمل مقاطعات الوجه البحري والثانيه تحتوى على مقاطعات الوجه القبلى . وتذكر القائمة اسم المقاطعه مبتدئه من أسوان التى تعتبر فى نظر المصريين المقاطعه الأولى ثم إسم الاله الذى يعبد فيها واسم العاصمة ، ثم مساحة الأراضى المزروعة التى تحتويها المقاطعة . هذا وكان عدد مقاطعات الوجه القبلى ٢٢ والوجــه البحرى ٢٠ مقاطعة .

و « حابي (١) » و « سبك (٢) » و « بنو (٣) » •

وكان يطلق على هذه الأراضي اسم « الحقول المقدسة » ومن الواضح أن الكهنة هم الذين استأثروا بتلك الحقول • على أنه لم يرد في تلك السجلات القديمة عند الكلام عن القسمين الآخرين من الأراضي الزراعية ما يتبين منه أنهما خصصا لرجال الجيش أو المزارعين • واذا اعتمدنا على الافتراض والاجتهاد فانه يبدو جائزا أن الجند وقتئذ استحوذوا على الأراضي الزراعية المتاخمة للصحراء • وذلك لصد غارات البدو وأداء التدريبات العسكريه اللازمة والانتقال في سهولة ويسر عبر الطريق الصحراوية في أي وقت من السنة ومهما يكن من الأمر فالظاهر أن تقسيم الأراضي بين طبقات الشعب طبقا للسجلات القديمة يمكن أن يتمشى بوجه عام مع التقسيم الذى ذكره استرابون وغيره من المؤرخين •

ولنفحص الآن مسألة « تملك طبقة ما من المجتمع لمساحة معينة من الأراضي » •

---

(١) «حابي» آله النيل وكان يمثل على هيئة عجل •

(٢) «سبك» آله الفيوم في الاصل وكان رمزه التمساح وقد انتشرت عبادته في كثير من جهات القطر •

(٣) « بنو » Benu : أحد آلهة الشمس وكان يمثل في شكل طائر ويبدو أن كهان مدينة هليوبوليس في فجر التاريخ المصرى كانوا يشاهدون هذا الطائر يحط كثيرا على شجرة في معبد الشمس فربطوا بينه وبين عبادة الشمس •

لقد كان عبيد الأرض يؤدون كافه الأعمال الزراعية في الأراضي المخصصة للكهنة وكانت معفاة من الضرائب ، وكان يعمل فيها عدد من الأفراد مساو لعدد الأفراد الذين يعملون في أراضي القسمين الآخرين ، غير أن محصول « الحقول المقدسة » كان يستحوذ عليه ويستأثر به طبقة رجال الدين ، وكانت تلك الحقول قريبه الشبه بالأراضي الموقوفة على الأديرة في العهد المسيحي والتي كانت تتضمن شروط التنازل عنها بطريق الهبة للصرف منها على بعض أبواب الخير كنفقات التعليم وتقديم المنح تشجيعا للشباب على مواصلة التعليم في الجامعات بالاضافة الى الأنفاق على نواح أخرى متعددة من الخدمات الاجتماعية .

أما فيما يختص بالأراضي التي كانت في حوزة رجال الجيش فقد بلغ عدد الجند في عهد « رمسيس الثاني » ستمائة وخمسين ألفا من الرجال كما رواه « ديودورس » ولعل هذا التقدير في جملته مقبولا ، ذلك أن عدد سكان مصر وقتئذ قدر بحوالي اثنى عشر مليونا ، وعلى هذا تكون ثلث مساحة أراضي مصر وهي المخصصة للجند بها أربعة ملايين نسمه ، فاذا كان نصفهم من الرجال ، وكانت سن التجنيد بين العشرين والستين ، واذا استبعدنا من هذا العدد من مات قبل أن يبلغ سن التجنيد ، كان عدد الجيش المصري الذي صوره « ديودورس » في روايته معناه أن الأراضي المخصصة للجيش لم تكن في حاجة الى استخدام عبيد الأرض والأرقاء .

اذ كان ينهض بالعمل فيها في أثناء الحرب الكهول والنساء والغلمان •
على أنه اذا فرض أن تعداد الجيش بلغ أربعمائة ألف جندي كما كان الشأن في عهد الأسرة السادسة والعشرين أو اذا كان مكونا من الأرقاء من كافة أنحاء البلاد فربما تطلب الأمر حينئذ استخدام عبد أو اثنين في ضيعة من الضياع الكبيرة من الاراضي المخصصة لرجال الجيش •

بيد أن واقع الأمر يحتمل أن يكون أمرا وسطا بين الاحتمالين السابقين •

والظاهر أن رجال الجيش ممن كانوا يملكون أرضا زراعية لم يكن في استطاعتهم الحصول الا على قدر محدود من معونة عبيد الأرض • فكان لذلك لزاما عليهم أن يقوموا هم أنفسهم بخدمة أراضيهم وزراعتها •

أما الطبقة الثالثة وهي « طبقة الفلاحين » فقد كان لها وضع من حيث امتلاك الأرض أو استئجارها يختلف عن وضع طائفة عبيد الأرض (١) الذين كانوا يعملون تحت امرة الطبقتين الأخريين •

---

(١) استخدم المؤلف كلمة Serf (عبيد الأرض) التي كانت تطلق على العمال الزراعيين في اقطاعيات العصور الوسطى في أوربا للدلالة على الأجراء الذين كانوا يعملون في الأراضي في مصر . ولكن هذه الكلمة لاتدل تماما على الحالة الاجتماعية لهؤلاء الاجراء لأنهم لم يكونوا عبيدا أو رقيقا ذلك أن الرق في جميع عصور التاريخ الفرعوني لم يتناول أي طائفة من أهالي البلاد . وانما اقتصر على الأسرى الأجانب فقط.

. . . .

— والواقع أن مركز هؤلاء الأجراء كان يتغير على مدى العصور بتغير النظم السياسية والاجتماعية السائدة في البلاد . ففي الدولة القديمة ادعى بعض العلماء بأن عبيد الأرض كانوا يعتبرون ضمن الأملاك الخاصة بصاحب الأرض تنتقل ملكيتهم بانتقال ملكية الأرض التي يعملون فيها . واستندوا في ذلك على وثيقتين احداهما وردت في مقبرة أحد كبار موظفي الدولة في عهد الأسرة الرابعة المدعو «متن» جاء فيها أنه خلف لأولاده ضيعة من الأراضي ومعها «الأنفار» والمواشي وجاء فيها أيضا أن والد متن ترك لابنه أمواله التي كانت تتكون من «أنفار» و « مواشي » .

والوثيقة الأخرى سند صادر من أحد أفراد حاشية الملك «خفرع» ورد فيها أن هذا العظيم يجعل أمواله من أرض و «أنفار» للمؤسسة (أي الأرض والأشياء الموقوفة على مقبرته) التي ذكرها السند . وأن هذا كله أصبح مما لا يجوز التصرف فيه . وهذا معناه أن العمال أو الزراع من الأنفار ينطبق عليهم التصرف كما ينطبق على الأشياء سواء بسواء .

ولكن يرد العلماء المعارضون على هذا بقولهم أن هذه النصوص لا تفيد حتما أن العمال أو الزراع يعتبرون من الأرقاء . فالعامل أو الزارع وفقا لهذا الرأي لم تنتقل ملكيته من شخص الى آخر (من «متن» الى أولاده مثلا) . وكل ما هنالك أن العقد الذي يربط العامل أو الزارع بمالك الأرض يعطي حقا شخصيا لهذا المالك قبل العامل . ولهذا المالك اذا شاء أن ينقل حقه الشخصي هذا الى من يشاء فيكون المالك الجديد قد حل محل المالك الأصلي في هذا الحق . أي أن المسألة هي مجرد انتقال للذمة لا انتقال للملكية . ويؤيد هؤلاء العلماء حجتهم بأن جميع الناس في ذلك العصر كانوا أحرارا . كما ورد في مرسوم «دهشور» بأن العامل الزراعي لا يعمل الا ساعات معينة بالنهار . وكما ورد في مرسوم آخر للملك «بيبي» الأول بأن العامل كان يعمل بأجر . وهذا كله دليل على أن العامل الزراعي لم يكن مملوكا لصاحب الأرض .

ولكن في أواخر عهد الدولة القديمة وفي الدولة الوسطى ازداد نفوذ الأشراف في الأقاليم وكونوا اقطاعيات كبيرة حتى انتهى الأمر بهم الى أن يصبحوا حكاما حقيقيين في أقاليمهم . وتبعا لذلك فقد الزراع الكثير من حريتهم وأصبح الملاك يتعاقدون معهم على البقاء في الأرض هم وأولادهم من بعدهم . وتطور الأمر بأن أصبح ذلك الأمر وراثي ينتقل من الشخص الى ولده ثم الى حفيده بلا قيد ولا شرط . فكان الزارع ملازما للأرض لا ينتقل منها الى غيرها ولا يخرجه المالك

فقد كانوا مزارعين أحرارا من صميم أفراد الشعب
يكونوا خاضعين الا لأداء الضرائب أو الايجارات المقررة .
أنهم كانوا يمتلكون الأراضى المجاورة لضفاف النيل و
الترع . وقد أتاح لهم موقع أرضهم الاستفادة بفترة أطول ل
الزراعي وذلك أنه كان في استطاعتهم استغلالها فى كل حين
بلغت حالة فيضان النيل من الانخفاض .

أما الطوائف الأخرى التى ورد ذكرها فى كتب مؤ
الاغريق فهم رعاة الأغنام ورعاة الخنازير والصيادون وال
المهرة والتجار وربابنة السفن . ولم يكن أحد من هؤلاء
أرضا زراعية . وكانت الطوائف الثلاث الأولى وهم رعاة
ورعاة الخنازير والصيادون تقتصر أعمالهم على مجرد التنقل
الأراضى القاحلة الخالية من السكان طلبا للكلأ سائمتهم .

وقد استقينا هذه الحقائق عن طبقات الشعب المصرى

= منها أبدا . فأصبح بذلك تابعا للارض . ولاأدل على شدة ارتباط
بالارض فى ذلك العهد من أن الكلمة الهيروغليفية الدالة على الضيعة (زر
نفس الكلمة التى تطلق على الزراع . ولكن ليس فى هذا كله مايدل على
الاسترقاق . فلم تكن للمالك ولاية على شخص الاجير او الزارع . ولم تكن
بينهما علاقة السيد بالمسود بل علاقة التابع بالمتبوع . وعلى ذلك أصبح
الزراع نصف أحرار .

وفى عهد الدولة الحديثة اضمحل هذا النظام وتحرر العمال الزراعيو
نظام التبعية . ولكن عادت الحال فى العصر المتأخر الى ما كانت عليه فى
الوسطى مع فارق واحد هو أن الاقطاعيين الاسياد أصبحوا من الكهنة وا
المرتزقة بدلا من أمراء الاقاليم .

من المؤرخين المتأخرين (١) ولكننا عثرنا على نص مصرى فى مدينة أسيوط يرجع الى بداية الأسرة الثانية عشرة يذكر شيئا عن نظام هذه الطبقات يختلف عما ذكره هؤلاء المؤرخون . فيبدأ النص بذكر الملك وموظفيه ، ثم يذكر طبقتين فقط يسمي احداهما « الرجل الصغير » وفلاحيه أو أجراءه (العبيد) أما الرجل الصغير فيقصد به طبقة صغار الملاك من المزارعين وهم الذين يمتلكون مساحات كافية من الأراضى تمكنهم من التبرع بهبات عقارية للمعابد على حين تمثل طبقة الفلاحين أحط طبقات المجتمع ، ولا يملك أفرادها شيئا وهي تعادل الطبقة الثالثة التى يشير اليها المؤرخون . هذا ولم يذكر هذا النص شيئا عن طبقة رجال الدين أو الجيش ولعل السبب فى ذلك أن رجال الجيش فى العصر الذى دون فيه هذا النص (عصر الأسرة ١٢) لم يكونوا قد أصبحوا طبقة منفصلة ، نظرا لأن الملوك كانوا يعتمدون فى حروبهم على تعبئة أفراد الشعب (٢) ثم يسرحونهم بعد انتهاء القتال فيعودون الى حرفهم الأصلية .

---

(١) المقصود بالكتاب المتأخرين هنا كتاب الاغريق والرومان ويعرفون أيضا بالمؤرخين الكلاسيكيين .

(٢) كانت مهنة الجندي من المهن غير المرغوب فيها فى عهد الدولتين القديمة والوسطى . ودليل ذلك وثيقة من ذلك العهد كتبها أحد الحكماء يوصي ابنه بالانخراط فى وظيفة الكتابة والبعد عن مهنة الجندية والسبب فى ذلك يرجع الى عدم وجود جيش موحد ثابت ولكن فى عهد الدولة الحديثة تغير الحال بعد أن أصبح لمصر امبراطورية واسعة اذ أصبح لمهنة الجندية المكان الأول بين وظائف الدولة . واغدق الفراعنة على جنودهم وضباطهم الرتب والنياشين والاقطاعيات . فصار الجيش طبقة منفصلة بين طبقات الشعب .

السيد الكبير فى القرية

ويظهر أن النظام الأساسى للمجتمع فى الدولة فى العصور الغابرة قد استمر كما هو دون تبديل أو تغير (١) . فكان السيد الكبير فى القرية يمتلك ما بين المائة والألف فدان وكان قصره مركز النشاط الاقتصادى والاجتماعى للقرية . وكان خدمه وحاشيته يؤدون وظائف رجال الشرطة ويقبضون على المستضعفين من المدنيين ويسوقونهم قسرا فى المساء للمثول بين يدى ذلك السيد الآمر الناهى . فكان يستمع الى شكايات المعتدى عليهم ودفاع المتهمين ثم يوقع الغرامات المناسبة . وقد يتقدم الحاضرون يلتمسون استعمال الرأفة ويؤكدون عدم قدرة المحكوم عليهم على أداء الغرامات المطلوبة منهم . وهنا قد يعيد السيد الكبير النظر فيها فينقصها ويفسح بعض الوقت أمام المخالفين لتدبير الغرامات المقررة عليهم .

وقد كان قصر السيد الكبير بمثابة منتدى يقصده الأصدقاء والخلان ينشدون فيه الاستجمام والمتعة فى كل وقت من الأوقات . فكنت تراهم مابين متجول فى رحابه الفسيحة أو جالس على أرائكه

---

(١) يقصد المؤلف بهذا كبار الملاك وكان كثير منهم حتى ماقبل ثورة سنة ١٩٥٢ يشغلون منصب العمدية . ويلاحظ ان كتاب المؤلف يرجع الى عام ١٦٢٣ قد أعيد طبعه سنة ١٩٣٢ .

الممدودة يتسامرون ويحتسون كؤوس النبيذ بين الفينة والفينة ، ثم يستأنفون حياة اللهو والتسلية ، وسواء أكان سيد القصر غائبا عنه أم مشغولا بأموره الخاصة فان ذلك لا يغير من الأمر شيئا بالنسبة لهؤلاء السادة .

وان على السيد الكبير بعض التبعات تجاه السلطات الحاكمة . فقد كان يبلغ عن الجنايات الخطيرة ، ويحتفظ بسجل فيه أسماء المواليد من الذكور لاستدعائهم للتجنيد وقت الحاجة . وكان عليه أن يتأكد من أن مسجل الأراضي ومسجل الايجارات يؤديان واجباتهما وأنهما يعملان على حفظ الأمن والنظام عامة وعلى تحقيق مآربه الشخصية بوجه خاص . ولقد كانت الفرص له مواتية فاذا كان فظا غليظ القلب أسيراً لحمقه ونزقه أرهق الأهلين بظلمه وابتزاز أموالهم ، واذا كان حصيفا طيب القلب رفيقا بالناس استفاد من التذبذب الطبيعي للأسعار طول العام ، اذ يبيع الفلاح عادة محصوله بثمن بخس عقب الحصاد مباشرة ، ويستطيع ذلك الحازم الحصيف أن يشترى فائض منطقة من المناطق ويختزنها . ومع ذلك ينظر اليه الناس نظرتهم الى المحسن المنقذ من الكرب والضيق .

ومن أقوال بعضهم :

ولقد قدمت الخبز لكل جائع وكسوت العارى . ولم اغتصب

شيئا من ملك الغير • ولم أنطق الا بالحق ولم أتحدث الا بالخير ولم أرو الا صدقا وما خشى انسان على نفسه فى منطقتى ممن هو أقوى منه حولا أو أعز نفرا (١) • وقد يقول كثير من الأغنياء الآن فى طول البلاد وعرضها هـذه الأقوال وأمثالها كما كان يقول أضرابهم منذ نحو خمسين قرنا •

وللمحافظة على هـذا المستوى الرفيع من العدل والانصاف فلابد من سيطرة يقظة نشيطة كان يقوم بها حاكم الاقليم فى الماضى ويقوم بها المدير فى الوقت الحاضر وبدون ذلك يصبح ما ذكر من بر واحسان استثناء لا قاعدة • فالجيش واغتصاب الأملاك وابتزاز الأموال كانت الأمور الشائعة فى كل العصور •

ان الاستقامة أصبحت منبوذة والظلم يضرب أطنابه فى المجلس (Council) (٢) • ان القوم جميعا يسلكون طريق الخطايا والذنوب • ولم يعد للاحترام المتبادل بين الناس من أثر فى الحياة ، بل ولم يبق للرجل الفقير من حول يدفع به عن نفسه ظلم من هم أقوى منه بأسا ، وان من ينتقد قولا يفقد صديقا ويكسب

---

(١) ورد ذلك القول أمراء الاقطاع فى أواخر الدولة القديمة وفى الدولة الوسطى من باب المباهاة والتفاخر ووجدت هذه العبارات منقوشة على مقابرهم فى أسوان وبنى حسن (بالقرب من المنيا) •

(٢) كان فى عاصمة كل مقاطعة مجلس Council يسميه المصريون (زازات) موكل اليه الأمور القضائية •

عدوا لأن القلوب أصبحت لا تقبل الصدق (١) (B.D.R.) وهذا ما كان يحدث في مصر حتى عهد قريب (٢) .

ومن العبث أن تحمل كبار الملاك في القرى تبعة ذلك العيب وذلك أنه لو أتيح للفلاح العادي فرصة الاستحواذ على النفوذ والقوة والسيطرة لعامل الناس نفس المعاملة . ولهذا فان الأمر يستوجب هيمنة قوية من جانب الحكومة على شئون البلاد كي يتحقق الأمن وتزدهر أحوال الشعب وهذا ما حدث في عهود « خوفو » و « أمنحات » و « أمنحتب » .

طائفة الموظفين

وقد تعددت ألقاب الموظفين بدرجة عجيبة في عهد الدولة

(١) وردت هذه التأملات الحزينة الكاهن «خع - خبر - رع - سنب» الذى كان كاهنا لإله الشمس في مدينة هليوبوليس في عهد الملك سنوسرت الثاني زمن الأسرة الثانية عشرة . وقد ظلت هذه التأملات تردد لمدة أربعمائة عام حين دونها أحد الكتبة في عهد الأسرة الثامنة عشرة على لوح يوجد الآن بالمتحف البريطاني. ولعل هذا الرأى لايعبر عن الواقع لأن مصر في ذلك العصر كانت في أزهى عصورها. ولعله يعبر عن رأى متزمت .

(٢) لقد تغير كل ذلك الآن بعد ثورة يوليه سنة ١٩٥٢ لتلاشت طبقة كبار الملاك الاقطاعيين التي يتحدث عنها المؤلف . وأصبح كل مواطن يشعر بمسئوليته وكيانه في المجتمع . وربطت القومية بين جميع المواطنين برباط متين ، ولذلك لم يعد الخوف من السلطة الحاكمة هو الوازع الوحيد بل هناك دوافع أخرى نابعة من النفوس .

القديمة ، حتى أنه كان من النادر العثور على مقبرة دون مشاهدة صفوف طويلة من ألقاب صاحبها مدونة على جدرانها (١) وقد اتسع نطاق هذه الظاهرة الغريبة حتى بلغت ذروتها في عهد الأسرة

---

(١) يرجع تعدد ألقاب الموظفين في مصر القديمة إلى عدة أسباب منها :

(أ) كان الموظفون شديدي الولع بالألقاب ، وكانوا ينشئون لقبا خاصا لكل عمل من أعمالهم القضائية أو الادارية . فاذا لزم مثلا أن ينقلوا الأوامر الملكية الى منطقتهم لقبوا أنفسهم «المستشار للأوامر الملكية» . وعندما كانت واجباتهم تقتضيهم أن يديروا الاشغال العامة كانوا يسمون أنفسهم ، «المشرفون على أشغال الملك» و «المشرفون على المهام الملكية» فاذا جمعوا ضرائب الغلال والماشية في دوائرهم الادارية أو أشرفوا على الجيش الاقليمي حملوا لقب «المشرف على بيوت الصحة والتموين» أو «المشرف على ديوان الأسلحة» .

فاذا كان لهم مكتب يضم الكتبة المتصلين بعملهم حملوا لقب «المشرف على الكتبة» .

(ب) كان هؤلاء الموظفون يكتبون ألقابهم الصغيرة الى جانب الالقاب الكبيرة . ولذلك يجد الانسان في قائمة ألقاب الموظف الواحد تباينا كبيرا بين لقب صغير جدا « كاتب المئونة » وبين الالقاب الكبيرة .

(حـ) بمرور الزمن أصبح كثير من الالقاب فخرية ولاتدل على ممارسة الموظف فعلا للاختصاص الذى يخوله له اللقب . وكان الموظفون يكتبون هذه الالقاب لمجرد الشرف . ومثال ذلك لقب «المقرب من الملك» و «الثاني بعد الملك» وهكذا ...

(د) كانت الوظيفة الواحدة متعددة الاختصاص وهذا بديهي لأنه في ذلك الزمن البعيد لم يكن المجتمع قد بلغ تعقيده الحالي . ولما كان لكل ناحية اختصاص لقب ، فقد تعددت ألقاب الموظف .

(هـ) في أواخر عهد الدولة القديمة ضعف الملوك فصاروا يغدقون الالقاب على كبار الموظفين وحكام المقاطعات بغير حساب .

السادسة . فقد دون « ايبى » على مقبرته فى دير الجبراوى (١) الألقاب الآتية :

فى البروتوكول : « الأمير الوراثى » و « الذى يلى الملك فى المكانة »
وفى البلاط الملكى : « حامل أختام الملك » و « المشرف على القصر الملكى » و « المكلف بخدمة العرش » و « رئيس الحجاب » و « المشرف على خزائن الثياب » و « كاتم السر » .

فى القضاء : « رئيس القضاة » و « كاتب سجلات المعابد » .

فى الدين : « رئيس المرتلين للتعاويذ والأسرار » و « الكاهن المكلف بتقديم القرابين » و « مدير الخدمات والطقوس الدينية » و « كاهن أحد الأهرام » .

فى الأقاليم : « حاكم المقاطعتين » و « المشرف على صوامع الغلال ومناقع طيور الصيد وخزائن المال وشئون اقليم الجنوب » وهو أيضا « حامى حمى عاصمة الجنوب وقلعتها فى الكاب (٢) » .

---

(١) الأمير «ايبى» حاكم مقاطعة طيبة (فى مديرية جرجا) فى الأسرة السادسة ومقبرته فى دير الجبراوى شرق النيل فى مواجهة منفلوط وكان ابنا للأمير «راوه» صهر الملك «ببى» الأول .

(٢) «الكاب» مدينة «نخب» القديمة وتوجد أطلالها شمال «أدفو» بقليل شرق النيل . وكانت عاصمة الصعيد قبل توحيد القطرين على يد الملك «مينا» . وكان بها قلعة ضخمة . ولعل ذكر «ايبى» لهذا اللقب يشير الى ذكرى العهد البعيد عندما لم تكن حدود الدولة المصرية تتعدى هذه المدينة مما استدعى انشاء قلعة لحمايتها من هجمات النوبيين . أما وقد امتدت أملاك الدولة الى ماوراء حدود «أسوان» فقد أصبح لقب» حامى عاصمة الجنوب وقلعتها فى الكاب» من ألقاب الشرف فقط .

وهذه الألقاب وغيرها تصل الى الأربعين منصبا كان يتقلدها رجل واحد ، وكانت كلها أو بعضها تأتي بايراد طيب له •

لقد كان عدد الخدم الذين يحتفظ بهم كبار الملاك عظيما • وكانت حاشية كل أمير من أمراء « بني حسن » (١) تنقسم الى أربع فئات : الخدم الخاصــون وخدم القصر وخدم الضياع ثم الموظفون • ونذكر فيما يلي عــدد رجال الحاشــية والخدم لــكل من الأمير « امونمحات » والأمير « خنوم حتب » على التوالي :

اولا : الخدم الخاصون :

كتبة ٥ ـ ٥ وحملة أختــام ٢ ـ ٤ وناقل أخبــار ـ ورئيس خدم وخادم شــخصي وخادم لنشر الحصــير أمام الأمير ونديم، ووصيفة وأتباع ٤ ـ ١ •

ثانيا : خدم البيت :

مشرفون على الجناح الخاص لصاحب القصر ١ ـ ٢ ومدير للمستودعات والمخازن وأمناء للقصر ٣ ـ ٥ وكتبة للتثمين والمبادلة ٢ ـ ١ وكاتب لشئون الأغذية وأمين للمطبخ وأمين لأشــياء أخرى ومستوردون لحاجات القصر ١ ـ ٣ ومسـاقي

---

(١) «بني حسن» قرية في مديرية المنيا بها مقابر صخرية لحكام هذا الاقليم في عهد الدولة الوسطى أهمهم «امونمحات» و «خنوم حوتب» وكان هؤلاء الحكام يمثلون الطبقة الاقطاعية في البلاد اذ كانوا شبه مستقلين في اقاليمهم •

وخبازون ٢ ومشرف على المغاسل ومشرفات على شئون القصر ٧ — ٥ •

ثالثا : مستخدمو الضياع :

مشرفون على محاصيل الضياع ٥ — ٤ ومشرف على قطعان الماشية ورعاة ٤ — ٤ ومشرف على كل ألف رأس من الماشية وراعي حمر وراعي غزلان ومشرفون على مصايد السمك ٣ — ٣ ومشرف على قطعان الماعز ٢ — ٢ ومدير لمكاتب الضياع ومشرفون على النجارين والنساجين وبستانيون ومشرفون على الطعام المحفوظ •

رابعا : الموظفون الرسميون المشرفون على الأعمال العامة :

حاكم القلمة وقائد عام لجيش الأمير ومسجلون حكوميون للاشراف على تحصيل الضرائب المستحقة ٢ — ٢ ومراقبون للشئون المنزلية ٣ — ومراقبون للخزانة ٢ — ورئيس محكمة وقائد للشرطة وقائد للجند ومحاسبون ٣ ومشرفون على شئون المقاطعة ٣ ومشرفون على شئون الصحراء ٢ ومشرفون على الترع ومشرف على الصيادين • لأن الأمير « خنوم حتب » كان صيادا ماهرا وكثيرا ماجاب أطراف الصحراء طلبا للصيد والقنص بالشباك •

ولعل هذه القائمة تعطينا فكرة عن ذلك الجهاز الضخم من الموظفين والخدم الذين كانوا يساعدون الأمير فى الخدمات العامه أو يقومون بخدمته الخاصة • وعلى الرغم من أنه لا يرد ذكر لتلك الوظائف جميعا فى المقبرتين فليس ضروريا أن نستنتج من ذلك أنها غير موجودة فى أحدهما لعدم ذكرها فيها •

ان كثرة عدد حمله الأختام انما يرجع الى أن الايرادات والضرائب كانت ترد فى مقادير صغيرة وكانت عينية • ولم تكن تدفع نقدا دفعة واحدة • ومن ثم كانت الصكوك المختومة تسلم الى أربابها طوال اليوم فى مقابل الغلات الواردة أو المنصرفة •

الحياة فى المدن

واذا انتقلنا لدراسة المناصب الادارية الأقل درجة (من درجة أمير مقاطعه) فانه يروى أنه كان فى كل مدينة من المدن (مفسر للقانون) • ولم يكن يشغل وظيفة القاضى بمعناها المعروف لنا الآن ولكنه كان حاكما ينظم أمور المدينة طبقا للقانون ويشرف على امداد المدينة بكل ما تحتاج اليه وكان موضع احترام القوم واجلالهم• وكان يرتدى الزى الرسمى القرمزى • ويليه فى الأهمية الكاتب أو « مسجل الوثائق الرسمية » ثم « قاضى القضاة » ثم « قائد عسس الليل » • وعلى الرغم من أن استرابون قد ذكر كل هذه الوظائف فانه يبدو أنها من بقايا نظم قديمة • وكان يحرم تحريما باتا على أهل

المدن من الصناع المهرة تغيير حرفتهم . فقد أخذ القوم بالنظرية القائلة : ان خير سبيل لبلوغ غاية الكفاية هو التفرغ لمهنة يرثها الانسان أبا عن جد ، بيد أن وراء الأخذ بتلك النظريه كان يكمن دافع آخر بأن هؤلاء الصناع ينبغى ألا يتدخلوا فى الشئون المدينة العامة . وهذه الحقيقة أيضا وان كانت قد عرفت أيام « استرابون » فمن الواضح أنها تمثل نظاما كان معمولا به فى العصور السابقة بغية ابقاء السلطة السياسية فى أيدى الموظفين دون سواهم . وان ذلك يوائم الفكرة القديمة ألا وهى احتقار أهل الريف الأمر الذى اتخذه الفنانون فى تلك العصور مادة للسخرية فى الرسوم الهزلية التى تتجلى على القبور . والى عهد قريب كانت طبقة الموظفين حتى أصغر كاتب ترى فى الفلاح لقمة سائغة سهلة الازدراد ، وأن لا جناح عليهم أن يوقعوا عليه كل حيف أو أذى « لأنه مجرد فلاح (١) » . ومع أنه كان هناك طائفة كبيرة العدد من المزارعين الأحرار ، الا أن الأعمال التى كانت تتطلب مهارة وحذقا كان قد تخصص فيها صناع مدربون فى دوائر النبلاء . ولم يكن فى البلاد طبقة متوسطة كبيرة العدد حتى ينشط الطلب والاقبال على السلع والحاجات . وكان النبيل وآل بيته يسدون حاجتهم ويحصلون على الأشغال الفنية من مقاطعته . أما الفلاح فلم يك يشترى كما هو الحال اليوم الا الضرورى من الحاجات ولم يكن فى البلاد طبقة من

(١) أصبح كل ذلك فى ذمة التاريخ بعد ان ردت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ للفلاح اعتباره وكرامته .

التجار الأثرياء لأن تجارة البلاد الداخلية كانت في تلك العصور ضئيلة ، أما التجارة الخارجية فمن المحتمل أنها كانت في أيد أجنبية ، ولذلك كانت فرص النجاح محدودة في وجه الصانع الماهر الذي يبغي الاشتغال بالأعمال الحرة • ولم تكن طبقة الموظفين كبيرة العدد في الأزمنة الأولى الى أن كان عصر الدولة الحديثة حين قامت حكومة مركزية قوية يسيرها عدد ضخم من الموظفين يكون طبقة متوسطة ذات قوة شرائية ذات بال • ونلمح هذا في حجم بيوت مدينة كاهون (١) في الأسرة الثانية عشرة فقد كان فيها ثلاثمائة وخمسين منزلا للعمال وصغار الموظفين يتراوح عدد غرف كل منزل منها ٤ و ٧ غرف وكانت تلك المنازل صغيرة المساحة في صفوف متراصة مزدحمة • والى جوارها نجد اثنى عشر دارا عظيمة يحتوى كل منها على حوالى ستين غرفة فوق ما بها من أبهاء فسيحة ذات عمد عالية • والحق أنك لاتجد في تلك المدينة شيئا وسطا بين ثراء عريض وفقر مدقع • ثم يمر الزمن واذا بنا في عهد الأسرة الثامنة عشرة حيث كان المسكن العادي في مدينة « العمارنة » يتألف من منزل مستقل مكون من اثنتى عشرة غرفة متوسطة الحجم ويحيط بها فناء فسيح • فالفرق بين مساكن المواطنين العاديين من أفراد الشعب ومساكن الأثرياء المترفين في عهد

---

(١) «كاهون» كلمة حرفها المستر بترى عن لفظه «اللاهون» وهي بقعة لقرية بالقرب من الفيوم أجرى بها بترى عدة حفائر هامة وقد أخذ المؤرخون الاجانب عنه هذه الكلمة واستخدموها في كتبهم .

كل من الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثامنة عشرة يشبه الى حد كبير الفرق بين المنازل الفقيرة في حي مصر القديمة بالقاهرة والفيلات الجميلة في ضاحية المعادى • ومن هذا يتبين أن طبقه الصناع الفنيين قد أخذ يظهر لها كيان مستقل • وان سار هذا التغير سيرا بطيئا وجاء في وقت متأخر نوعا بالنسبة لتطور المجتمع المصرى • على أن هذه الطبقة رغم هذا لم يكن لها نفوذ في الحياة السياسية في البلاد كما كان للموظفين والكتبة • وقد وجد في المجتمع المصرى منذ أقدم العصور طائفة من التجار الأحرار ، غير أن عددهم كان قليلا وبلغوا من القلة حدا لم يستطيعوا معه أن ينموا بنفوذ يذكر في شئون الدولة •

والظاهر أن الطبقات الدنيا من العمال غير الفنيين كانوا يعملون جماعات • اذ أننا نجد في عدة حالات النظام الذى كان يقضى بأن كل عشرة لهم رئيس من أنفسهم • وكانت تلك النسبة معمولا بها بين عمال مناجم سينا •

وقد وجدنا بين تماثيل المجيبات (الأوشابتى (١)) أن كله

---

(١) كلمة مصرية قديمة معناها «المجيبات» أى التى «تجيب على النداء» أطلقها المصريون القدماء على تماثيل صغيرة من الخشب أو القاشانى على هيئة المومياء كانت توضع في قبر الميت . وقد كثرت هذه التماثيل بدرجة عظيمة في الدولة الحديثة حتى بلغت الآلاف في مقبرة واحدة . وهى تدل على مدى الترف والدعة التى سادت في مصر أبان ذلك العصر ، ذلك أن المصرى كان يتصور الجنة وان كل من يدخل الجنة مهما علت مرتبته فسوف يعمل في الحقول الأخروية • وليس من شك أن هذا التخيل يرجع الى العصور المبكرة من التاريخ الفرعونى عندما كانت جمهرة الشعب من الفلاحين ، ولكن في الدولة =

عشرة تماثيل عادية لها رئيس يلبس مئزرا أو عباءة . وكان رؤساء العمال يستطيعون جلب مئات منهم للعمل في المشروعات الكبيرة .

الأشغال العامة

وكانت هذه الطريقة هي السائدة في جمع عمال المعادن وعمال المقابر . وان تسخير العمال في المشروعات العامة وهو ما يسمى « بالسخرة » كان دائما ظاهرة مألوفة لتنفيذ المشروعات . فقد كان الفيضان يغمر الأرض ويحيط بالقرى فلا يجد الفلاحون عملا يعملونه . وفي الوقت ذاته كان يهدد الجسور الرئيسية بالانهيار وهي الجسور التي كانت تتوقف على سلامتها حياة البلاد . وقد استوجب الصالح العام تسخير العمال للمحافظة على منشآت الري والجسور وزد على ذلك فان هناك فترة في أوائل الصيف بعد جني المحاصيل من الأرض حوالى شهر ابريل . وهذه الفترة التي تصل الى ثلاثة أشهر (مايو ويونيه ويولية) قبل حلول الفيضان لا يجد العمال الزراعيون في أثنائها أي عمل في معظم الحقول الزراعية .

= الحديثة أصبحت الفكرة عن الجنة بهذه الصورة لا تلائم العصر . فالمصريون قد استنكفوا ان يؤدوا هذه الأعمال الشاقة فوضعوا في مقابرهم تماثيل بطامن لتكون بديلا منهم تقوم بالعمل الذي سيكلفون به . وزودوا كل تمثال بفأس وزنبيل . وكتبوا عليه العبارة الآتية «أيها الأوشابتي» اذا نودي عليك في الآخرة للقيام بعمل في الحقول بدلا مني فلتقل عندئذ هاأنذا .

وخلال تلك الفترة تجف الترع والقنوات ولذلك يسخر العمال في هذه الفترة أيضا لتطهير الترع وتعميقها • واذا فقد كانت الأعمال الرئيسية الخاصة بشئون الرى فى البلاد تتطلب العمل فيها فى وقت لا يقوم خلاله الفلاح بأى عمل • وبذلك أصبح تشغيل الفلاحين فى الخدمة الاجبارية أمرا طبيعيا • والعمل فى الجسور والسدود يتطلب تنظيما دقيقا • فمثلا اذا تسرع المزارعون المشتركون فى أحد الأحواض الى فتح الجسور فى غير الأوقات المناسبة وغمر الحوض بالماء دون تنظيم دقيق فربما ترتب على ذلك اغراق بعض القرى المجاورة ، ولهذا فقد كان وضع نظام دقيق أمرا لابد منه فى كل الحالات • ثم ان المخازن التى تودع فيها المواد المستعملة فى تقوية الجسور واصلاحها تتطلب عناية خاصة • وقد شاهدت رجلا يجلد على قدميه لأنه سرق بعض الأخشاب والحبال • وبذلك عرض حياة البلاد للخطر فى حالة حدوث ثغرة فى أحد الجسور • هذا الى أن طوائف الفلاحين كانت تحتاج الى بعض الرعاية حتى لايساء استعمال نظام السخرة • فقد يجبر مئات العمال على عمل قد لايتطلب سوى عشرات قليلة منهم • فاذا انعدم الاشراف وساءت الادارة انحلت عزائم العمال ومالوا الى التسكع وربما لا يجدون ما يكفيهم من الغذاء • وكانت السخرة فى العصر الرومانى تقتصر على خمسة أيام فى السنة •

تسخير الرقيق

وكان استخدام الأرقاء ضيق النطاق فى العصـور الاولى من تاريخ مصر • وهؤلاء الأرقاء غير عبيد الأرض الذين كانوا مرتبطين بالمزارع التى يعملون فيها • ولهم هناك مساكنهم الخاصة ولايجوز التصرف فيهم بالبيع •

وفى عهد الأسرة الثانية عشرة كان من الممكن تأجير الرقيق وأسرته لأداء بعض الأعمال ، ولكن ليس هناك دليل واحد على التصرف فيهم بالبيع والشراء •

على أن الأمر كان يختلف فيما يتعلق بأسرى الحرب اذ كان تنقل ملكيتهم من الأمور المقررة سواء أكان ذلك بأمر الملك أم عن طريق البيع • بيد أننا لم نعثر اطلاقا على أى دليل على وجود أرقاء من الزنوج فى عهد الأسرة الثانية عشرة • أما فى عهـد تحتمس الثالث فلم يتعد مجموع عدد الأسرى الذين وقعوا فى قبضته خلال عشرين عاما من حروبه عشرة آلاف أسـير • وهو رقـم لا يسهم بمقدار يذكر فى تعداد سكان مصر • ومـع ذلك فقد كان هؤلاء الأسرى من الصناع المهرة والنساء الممتازات • ولذلك صار لهم فيما بعد نفوذ واسع على الطبقات الحاكمة فى البلاد • ولقد مرت الحقبة الباقية من عصر الأسرة الثامنة عشرة بعد تحتمس الثالث دون قيام حـروب كثيرة • ولهذا كان من المحتمل الا يزيد عـدد الأرقاء العاملين الا قليلا • مع العلم أنه من الجائز أن الأرقاء الذين جىء

بهم قبل ذلك الى البلاد من الخارج قد اندمجوا فى المصريين خلال بضعة أجيال . هذا ويبدو أن رمسيس الثانى خلال حروبه المتواصلة لم يجلب معه سوى عدد قليل من الأسرى . وقد استهلت الأسرة العشرون عهدها بالحصول على عدد كبير من الأرقاء اسرهم رمسيس الثالث . وهو الذى وهب لخدمة المعابد وحدها ١١٣٤٣٣ أسيرا فى الفترة التى قضاها فى حكم البلاد . ولاشك أن الجانب الأعظم من هؤلاء الأرقاء أسرهم هذا الفرعون عندما قضى على الهجمات المسلحة التى قامت بها الشعوب المهاجرة القادمة من الغرب ومن الشام . ويحتمل أن أعدادا أخرى من هؤلاء الأسرى استخدموا فى المشروعات الحكومية أو وزعوا على رجال الجيش والموظفين . ولذلك لا نكون مبالغين اذا افترضنا أن عدد الأسرى الذين دخلوا مصر فى عهد ذلك الملك قد بلغ ربع مليون أسير . وهو ما كان يعادل ١٠٪ من عدد السكان العاملين فى البلاد بيد أن الجانب الأكبر من هؤلاء الأسرى كانوا يؤدون أعمالا غير منتجة . ولذلك وقع عبء اطعامهم على كاهل بقية سكان البلاد .

ان كافة المواد الغذائية التى كانت تقدم قرابين للمعابد فى شتى أنحاء الدولة ما كانت لتفى بسد حاجات هؤلاء الأسرى لمدة تزيد على سدس المدة التى قضاها رمسيس الثالث فى حكم البلاد . وكان هناك نوع غريب من الاسترقاق فى عهد الأسرة السادسة والعشرين وهو نظام الاسترقاق بمقتضى عقود معترف بها . فقد كان الرجل

يوافق على أن يتعاقد مع آخر على أن يكون كرقيق له مدى الحياة لقاء دين عليه أو لقاء أجر لعلاج من مرض ألم به • وكان هذا الرقيق يتنازل عن كافة ممتلكاته بل عن أطفاله حينذاك ومن سيولد له في المستقبل • واذا كان هذا النوع من العقود قد عمل به في عهد ازدهار الحياة في مصر فالراجح أنه كان شائعا في عصور الشدة والضيق • وقد حدث في احدى غزوات الامبراطور أغسطس ضد أثيوبيا (١) أن وقع عدد كبير من الاثيوبيين في الأسر فأحتفظ الامبراطور بألف أسير منهم ليكونوا ملكا ليمينه وبيع الباقي جهارا باعتبارهم من غنائم الحرب •

وخلاصة القول أن تجارة الرقيق في مصر لم تبلغ قط ذلك المبلغ الخطير الشائن الذي بلغته في كل من اليونان وايطاليا • وذلك لأن نظام العمال الأجراء الذي يبدو أنه كان متبعا في كافة عصور التاريخ في مصر قد جعل أصحاب الضياع الواسعة في غير حاجة الى الأرقاء • ولقد كان نظام تسخير العمال في مصر قد سار في حدود الاعتدال ، وخلا في معظم الأحوال من مظاهر الايذاء والقسوة • ولذلك لم يقف حائلا في سبيل ظهور الكفايات الممتازة بين العمال المسخرين ، ذلك الى أنه جنب البلاد الخراب الذي يجره الرق عادة •

---

(١) اثيوبيا هي الاسم الذي أطلقه المؤرخون القدماء وخاصة الاغريق على المنطقة الممتدة من وادي حلفا حتى الخرطوم ولاتشمل بلاد الحبشة • وكان المصريون القدماء يطلقون على اثيوبيا هذه «بلاد كوش» (انظر سليم حسن مصر القديمة جزء • (أ ص ٧٧ — ٧٨) •

تنظيم العمل

اننا نجد أوفى بيان للعمل في العصور الأولى في تلك المعلومات والبيانات التى سجلها هيرودوت (١) عن بناء الهرم الأكبر • وعلى الرغم من أنه قد مضى آلاف السنين عليهما قبل تدوين هيرودوت لها ، الا أنها تصور ظروف الحياة في تلك العهود الغابرة تصويرا صادقا الى حد يجعلنا نثق في صحة نقلها • انه يذكر أن مائة ألف من العمال كانوا يشتغلون في نقل الأحجار مدة ثلاثة أشهر متتابعة• وهذا يتفق والوضع الطبيعى لامكان الاستفادة من عدد كبير من العمال زمن الفيضان وهو الوقت الذى يظل فيه هؤلاء العمال الزراعيون بلا عمل • هذا الى أن ارتفاع منسوب مياه النيل وقتئذ قد ساعد على نقل الأحجار عبر الوادى بأسره من سفح الهضبة الشرقية الى سطح الهضبة الغربية • ويستطرد هيرودوت فيقول ان هؤلاء العمال قد أمضوا عشر سنوات في انشاء الطريق

---

(١) هيرودوت مؤرخ يوناني زار مصر حوالى عام ٤٥٠ ق.م وألف عنها كتابا ظل أهم مرجع فى تاريخها القديم حتى استطاع علماء الآثار حل رموز اللغة المصرية ومعرفة التاريخ المصرى من كتابات المصريين أنفسهم • وقد وجد ان جزءا كبيرا مما كتبه هيرودوت على جانب من الصواب ، ولو أنه نقل كثيرا من المعلومات المشوهة وبالغ فيها لاثارة اهتمام قرائه • وقد سمى هيرودوت أبا التاريخ لشهرته وذيوع صيته •

المؤدى الى الموقع الذى أختير لبناء الهرم (١) وفى تمهيد ذلك الموقع وفى حفر الممر السفلى والغرفة الملحقة به . ثم كان أن أستغرق بناء الهرم نفسه عشرين عاما . وهذا الزمن الطويل يفيد أن طائفة من ثمانية من العمال (وهو أكبر عدد يمكن استخدامه لنقل كتلة حجر واحدة) كان فى استطاعتها نقل عشر كتل من الأحجار الضخمة من المحجر فى الهضبة الشرقية عبر النيل (٢) ثم على الطرق المرتفعة الممتدة على منحدرات الصحراء الغربية ثم رفعها الى أماكنها فى مبنى الهرم وذلك فى غضون ثلاثة شهور وكان من الممكن أن يتم ذلك متى توفرت أسباب حسن الادارة والتنظيم . والى اليوم يمكن مشاهدة عدة طرق موازية لذلك الطريق الرئيسى الكبير ممتدة فوق الهضبة . ومن المؤكد أن تلك الطرق الفرعية كانت خلال فترة البناء غاصة بطوائف العمال وقد أخذوا يدفعون أمامهم آلاف الكتل من الصخر كل يوم خلال موسم العمل . ومما لاريب فيه أن طائفة من البنائين المهرة قد أستخدموا فى بناء الكسوة البديعة المحكمة البناء ، والممرات الداخلية فى ذلك الهرم . ويمكن

---

(١) هذا الطريق يعرف فى علم الآثار بالطريق الموصل بين المعبدين (Causeway) لانه بعد اتمام بناء الهرم كان يستخدم للربط بين المعبد الجنازى الملاصق للهرم وبين معبد الوادى القريب من النيل . اذ كان لكل هرم معبدان وطريق . ويمكن مشاهدة بقايا هذا الطريق شرق الهرم الاكبر فى المسافة الممتدة الى قرية نزلة السمان .

(٢) كانت الحجارة تقطع من محاجر طره الواقعة شرق النيل وهذه الحجارة كانت تستخدم فى بناء كسوة الهرم وبعض ممراته الداخلية . أما كتلة الهرم نفسه فقد بنيت من الاحجار المقطوعة من صخر الهضبة القائم عليها الهرم .

مشاهدة التكنات التي خصصت لاقامة هؤلاء البنائين الى اليوم • وهى تتسع لسكنى أربعة آلاف رجل بصفة دائمة • فاذا كان نصف هذا العدد من البنائين قد تفرغ لانجاز عملية بناء الكسوة الخارجية كان على كل واحد منهم أن يعد قطعة واحدة من هذه الكسـوة اعدادا دقيقا ويثبتها في مكانهـا في ثلاثة أسابيع أو أن يقوم بذلك العمل ثلاثة رجال في مدة أسبوع • وهذا تقدير معقول • ومن الطبيعى أن تثبيت الكتل الحجرية الضخمة في القاعدة قد أستغرق وقتا أطول من ذلك بكثير • كما أن تثبيت الحجر الواحد في المداميك الصغيرة استغرق نصف تلك المدة • ان هذا العمل العظيم وما كان يتطلب انجازه من جماعات ضخمة من الرجال كان لابد له من مهارة فائقة في التنظيم • ولولا هذا التنظيم المحكم لوجدنا هؤلاء الرجـال قد تزاحموا في فوضى واضطراب في منطقة البناء الضيقة • وقد كتبت تفاهات كثيرة عن مدى الظلم الفـادح الذى وقع على كاهل هؤلاء العمال وعما أذرفوا من دموع وأطلقوا من أنين • لقد كان الاشراف على هؤلاء القوم محكما بفضل ذلك التنظيم البديع الذى يدل عليه ذلك العمل العظيم • ولم تستعمل أية قسوة ولاشدة ولاعنف (١)

---

(١) هذا راى أحد علماء الآثار الانجليز الذى تخلص الى حـد كبـير من استعماريته وشهد شهادة حق وانصاف بأن الاهرام لم تبن بآلام الشعب المصرى ودموعه • وكان يحلو للمؤرخين المغرضين ان يشوهوا تاريخ مصر ويسفهوا أحلام المصريين الاقدمين ويقللوا من قدر حضارتهم حتى يضعفوا في المصريين الحاليين روح الاعتزاز بماضيهم ويصرفوهم من التشبه بأجدادهم فيظلوا الى الابـد خاضعين خانعين •

في اتمام ذلك العمل فقد كان كل فرد في البلاد مكلفا بالعمل بنظام السخرة مرتين فقط طول حياته • وكان يعيش في دعة ويسر كما لو كان في منزله ، اذ لم يكن في استطاعته أن يعمل شيئا خلال فترة فيضان النيل (١) •

وغاية ماهو مطلوب من كل عامل أن يجلب معه مازنته قنطاران من المواد الغذائية اللازمة لاستهلاكه الشخصي • وهو ماكان يستهلكه حتما لو ظل قابعا في عقر داره (٢) ولاشك أنه كسب عظيم لهؤلاء القوم أن يتعلموا نظام العمل الجماعي ويتلقوا دروساً عملية في التدريب المهني •

---

(١) كان هذا الاجراء يدل على مبلغ الوعي وبعد النظر الذي تميزت به حكومة البلاد عندئذ ، ففي موسم الفيضان كان الفلاحون يظلون بلا عمل . ولا شك أن هذه البطالة كان نتيجتها ازدياد نسبة الجرائم في البلاد . فكان جمع الفلاحين وشغل فراغهم في بناء الاهرام خير حل لتلك المشكلة . وبذلك لم يتسبب بناء الأهرام في تعطيل مرافق البلاد والتأثير على اقتصادها ورفاهيتها كما يقول المغرضون .

(٢) يلاحظ أن رأى المؤلف في هذا الصدد يخالف آراء كثير من علماء الآثار بأن الدولة هي التي كانت تنفق على هؤلاء العمال . فقد ذكر المؤرخون القدامى امثال « هيرودوت » و « ديودور » أن الفراعنة كانوا يصرفون الطعام والملبس للعمال ، وأن ما صرف لعمال الهرم الاكبر من الفجل والبصل والثوم فقط بلغ ثمنه ١٦٠٠ تالنت من الفضة (التالنت تساوى ٢٤٠ جنيها تقريبا) • ورغم أن هذا لا يمكن الاعتماد عليه كثيرا نظرا لان هؤلاء المؤرخين استمدوا هذا القول من التراجمة الذين يشك في معلوماتهم ، فلا ريب أن الفراعنة من بناة الأهرام لم يعتمدوا في تموين العمال على ما كان يجلبه هؤلاء العمال معهم فقط كما يقول المؤلف .

وهكذا توارثت الأجيال التالية المهارة التى تتطلبها الأعمال الجماعية • وقد تجلى ذلك فى قدرة المصريين فيما بعد على نقل الأثقال الهائلة كما بدا ذلك واضحا فى عهد البطالمة اذ تمكن أربعة آلاف مجدف من توقيت تحريك المجاديف بدقة تامة لتسيير السفن العظيمة التى وصفها الكاتب أثنايوس (١) فى بعض مؤلفاته •

أعمال المرأة

لقد كان عمل المرأة ولاشك عند السواد الأعظم من الشعب ينحصر فى العناية بشئون المنزل واعداد الطعام ، ولكن مما يدعو الى الدهشة أن تلك الواجبات كان ينهض بها خدم من الرجال فى القصور ، وفى الأوساط الراقية • فكان الرجال فى تلك البيوت الكبيرة ينهضون بأعمال الطهى والخدمة المنزلية وتحرير المكاتبات وعزف الموسيقى • وقل أن تصادف سيدات يقمن بهذه الأعمال • بيد أنهن كن يقمن بغسل الملابس • وكان للمرأة أعمال عديدة تؤديها فى الحقول ، فهى التى كانت تنقل محاصيل الحقل فتحملها على رأسها فى سلال صغيرة بينما تحمل الدواجن فى يدها • وكانت المرأة عدا ذلك تتوجه لشراء الحاجات من الأسواق • وكانت تقوم بتذرية الحبوب عقب الحصاد • وقد وجد فى حالة واحدة أن أمرأة كانت تقوم بتسيير سفينة كبيرة للبضائع على أن كل ما تقدم ذكره

---

(١) عالم نحوى اغريقى عاش فى مدينة «نقراطيس» فى اواخر القرن الثانى واوائل الثالث بعد الميلاد •

انما يشـــير الى عمل المرأة ابتداء من الأسرة الرابعة الى الأسرة السـادسة ، فان الرسوم المنقوشـة على الآثار والتى يرجع تاريخها الى عصر الأسرة الثانية عشر تبين أن النساء كن يقمن بالغزل والنسج والعزف على الآلات الموسـيقية • أما فى الأسرة الثامنـة عشرة فقد أنفرد الرجل بعملية النسج • فاذا ما كان عصر الاغريق نجد النساء طبقا لبعض الروايات يذهبن الى الأسواق ويتاجرن على حين كان يقبع الرجال فى المنازل ليقوموا بعمليات نسج الثياب (١) •

الاعمال فى الجبانات

وكانت فى مصر طائفة كبيرة العدد من الرجال لا يسهمون فى الانتاج القومى • وهم أولئك الذين يقومون بتلك الأعمال الواسعة النطاق الخاصة باعداد المقابر • وكان حفر المقابر فى الصخر يتطلب جهدا عظيما • وقد بلغ اتسـاع بعض حفر المقابر فى عهد الأسرة الرابعـة ثمانيـة أقدام مربعة وعمقها ثمانين قدما (٢) • وفى بعض

---

(١) هذه احدى روايات المؤرخ « هيرودوت » ويجب ان تؤخذ بحرص •

(٢) كانت اغلب المقابر فى عهد الدولة القديمة تتكون من غرفة فوق سطح الأرض داخل بناء يشبه المصطبة • وكانت هذه الغرفة بمثابة « مزار » يجتمع فيه اقارب المتوفى • وفى جانب من المزار بئر عمودى منحوت فى الصخر يؤدى الى حجرة الدفن •

المقابر الأخرى كانت تنحت فى وجه حف الهضبة أبهاء عظيمه يتراوح اتساع أحدها بين ٣٠ و ٤٠ قدما (١) •

وتوجد فى طيبه مئات من المقابر ترجع الى عهد الأسرة ١٨ قد نحتت فى جوف الصخر ثم سويت جدرانها بتغطيتها بطبقة من الجص نقشت عليها كثير من الصور والنقوش (٢) •

وكان يعمل بجانب عمال نحت المقابر طائفة كبيرة العدد من الرسامين والفنانين • ولا يوجد عصر من العصور فى أى جزء من العالم صورت الحياة فيه على جدران المقابر مثلما صور عصر الدولة القديمة على جدران مقابر سقارة (٣) • وان قبر نبيل من النبلاء يشتمل عادة على مايتراوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ قدم مربع من النقوش بها ما يتراوح بين مائة أو مائتين من رسوم الأشخاص ، وتتجلى فيها الحياة والحركة وقد تطلب ذلك استخدام عدد كبير من العمال

---

(١) هذا الطراز من المقابر ساد فى عصر الدولة الوسطى واحسن مثال له مقابر أمراء بنى حسن وكانت المقبرة تتكون من بهو كبير منحوت فى الصخر له مدخل تتصدره أعمدة مضلعة تشبه فى طرازها الطراز الدورى المعروف فى العمارة الاغريقية . ويؤدى المدخل الى بهو كبير على جدرانه رسوم ونقوش ملونة . وفى أحد جوانبه بئر يؤدى الى حجرة الدفن . ويشاهد الزائر هذه المقابر من بعيد وهى تطل على النيل .

(٢) توجد هذه المقابر فى «القرنة» بغرب الاقصر لأمراء وأشراف الأسرة الثامنة عشرة . واهمها مقابر « نخت » و « منا » و « رخميرع » . وتتألف فى مجموعها من مزار صغير منحوت فى الصخر محلى بالصور والنقوش به البئر المؤدى الى حجرة الدفن .

(٣) أشهر هذه المقابر هى مقابر « تى » و « بتاح حتب » .

من مختلف الكفايات مابين قاطع الأحجار والفنان البارع • ولكن بمرور الزمن لم يعد العمل الفني ذا أهمية كبيرة اذ غلبت الروح التجارية على المقاولين وخاصة متعهدى الدفن فكانت عمليات التحنيط تؤدى بلا عناية وأجسام الموتى تلف لفاً ينبىء عن عدم اكتراث • وكانت طرق الغش عند المحنطين متعددة • كوضع جمجمة رجل وعظمة من فخذه داخل كفن طفل محنط (حتى يخدع مظهرها أهل الطفل) ولف التماسيح فى القش (بدلا من الكتان) ووضع العظام مع القطط (١) وكان عمال حفر المقابر يكونون مستعمرات في الجبانات وكانت لهم درجات بعضها فوق بعض في المرتبة والنفوذ • وكانوا يخرجون متظاهرين اذا ما أهملت جراياتهم ويتعاركون للحصول عليها (٢) •

والى جانب هؤلاء القوم كانت توجد طوائف الكهنة الكبيرة

---

(١) لجأ المصريون التماسا للبركة الى تحنيط الحيوانات المقدسة ووضعها في منازلهم ، فكان الشخص يسلم الى المحنط جثة قطة او تمساح ويطلب منه تحنيطه لكي يحتفظ به في منزله أو مقبرته ، وكان يعطي المحنط أجرا على ذلك

(٢) كان أقارب المتوفى — كما هو الحال اليوم — يذهبون الى المقابر في المواسم والأعياد (الطلعة عندنا) ومعهم القرابين لتقديمها (رحمة) على أرواح الموتى • ومن العجيب أن كلمة الطلعة هي ترجمة للكلمة المصرية « برت » التي تحمل نفس المعنى ، كما أن كلمة رحمة هي الأخرى ترجمة للكلمة المصرية « حتب » ، أما كلمة نور فتشير الى العقيدة المصرية القديمة بتمنى خروج أرواح الموتى من القبر المظلم الى ضوء النهار ، ولاستدعاء هذه الارواح كانت تقدم اليها القرابين فتخرج من ظلام القبر الى نور الشمس للتمتع بهذه القرابين ، وهكذا مازال الحاضر يقبع في ثنايا الماضي •

الذين كانوا يقومسون بأداء الطقوس الجنائزية • ولم يسكن عملهم ينتهي عند دفن الميت بل كان يستمر لأعوام طوال بما يقدمونه من قرابين الى روح الميت وفقا لعقود مبرمة (١) •

كل هذا وذالك تطلب استخدام عدد كبير من السكان في أعمال غير منتجة • وقد تسببت تلك الأعمال غير المنتجة جميعها في زيادة أعباء الحياة على بقية أفراد المجتمع • اذ كان عليهم أن يطعموا بعرق جبينهم هذا العدد الكبير من الأفواه التي لانفع منها •

تعداد السكان

ان المصادر الخاصة بعدد السكان في مصر في مختلف العصور قليلة ، بل نادرة • ولما كان المصريون شعبا ولودا كثير النسل فقد تضــاعف عدده في مدى الأربعين ســـنة الأخيرة ، ولهذا كان من المحتمل أن البلاد كانت تزدحم بالسكان بسرعة كبيرة في العصور التي كان يســـود فيها الأمن والرخاء وحسن الادارة كعصر الدولة

---

(١) من أهم الأمثلة على هذه العقود هي العقود العشرة التي أبرمها الأمير « حابي — جفا » حاكم أسيوط في عهد الأسرة الثانية عشرة مع كهنة أحد المعابد في أسيوط لتقديم القرابين والبخور في مقبرته بعد وفاته • وأوقف على هــذا العمل ضيعة بمواشــيها وحدائقهــا • وقد نقش « حابي — جفا » هذه العقود على جدران مقبرته المحفورة في جبل أسيوط .ويعرفها العامة هناك بأسم اسطبل عنتر » •

القديمة ، حين وصــل عدد السكان على مانعتقد الى أقصى مداه فى تاريخ مصر القديم • وفى عصر الزعامة استطاعت المناطق المخصصة للجند وكانت مســاحتها تبلغ ثلث أرض البــلاد أن تمد الجيش المصرى بستمائة وخمسين ألفــا من الجنود الذين كانوا فى السن الملائمة للتجنيد • وهذا يشير الى أن عدد الســـكان فى البلاد قد تراوح بين ١٠ ، ١٢ مليونا من الأنفس • وفى أيام « ديودورس » بعد اضــمحلال نفوذ البطالمة كان عدد الســــكان يتـراوح بين ٧ و ١/٢ ٧ مليون من الأنفس طبقا لتقرير يوسف اليهودى (١) •

وفى القرن الثامن الميــلادى بلغ عدد الســكان حوالى عشرة ملايين وفقا لقوائم ضريبة الرءوس التى أدخلها العرب فى مصر • وقد تضاءل عدد السكان أيام حكم الأتراك والمماليك تضاؤلا كبيرا • ثم أخذت البــلاد عقب ذلك تنعم باســتتباب الأمن وتنفيذ كثير من مشروعات الرى والصرف واستغلال الموارد الطبيعية • فكان هذا من عوامــل زيادة الســــكان زيادة سريعة مطردة حتى انه يقدر جملتهم عام (١٩٥٩) بحوالى ٢٥ مليونا (٢) أما جملتهــم فى عام

---

(١) سبق ذكر وصف يوسف اليهودى •

(٢) أضفنا هذا الرقم من عندنا الى نص الكتاب الأصلى (المترجمون) •

١٩٧٠ فتقدر بحوالى ٣٢ مليونا ونستطيع القول أن عدد السكان في مصر القديمة كان يتأرجح بسرعة بين ستة ملايين واثنى عشر مليونا وفقا لمدى كفاية السلطة المهيمنة على شئون البلاد • ولاشك أن الزيادة المطردة الحالية في عدد السكان سوف تظهر خطورتها فيما بعد اذا علمنا أن نسبة المواليد في البلاد ٦٠ في الألف ونسبة الوفيات ٤٠ في الألف • وهذا يعنى زيادة سنوية في عدد السكان تقدر بحوالى ٤٥٠٫٠٠٠ نسمة •

الفصل الثاني

إدارة البلاد

الملكية المقيدة

كانت مصر القديمة تخضع دائما لنظام الحكم الملكي وكانت سلطة الملك تضمحل بين حين وآخر فتستقل المقاطعات بادارة شئونها الداخلية ، ولكن الحكم في كل منها كان دائما في يد رئيس واحد . وان عدم قيام النظام الجمهوري في أي عصر من عصور التاريخ المصري القديم رغم قيامه في أقطار أخرى بحوض البحر المتوسط مرده على ما يظهر الى أن النظام الملكي في مصر قد حدد القانون سلطته وحقوقه تحديدا دقيقا ولهذا فان الملك مهما سامت أخلاقه الشخصية فانه لا يستطيع أن يأتي عملا يكسبه حقد رعيته عليه وكراهيتها له كما كان يفعل الظالمون الغاشمون من حكام الاغريق وأباطرة الرومان الذين لم يكونوا يشعرون بمسئولية ولم يقيدهم شرع أو قانون .

لقد كان الملك في مصر يعتبر جزءا لا يتجزأ من جهاز حكومي على درجة كبيرة من التنسيق والتنظيم يعرف كل فرد فيه عمل الآخرين كما يعرف أختصاصه الرسمي • وكانت أعمال الملك الرسمية تعد في نظر القوم جزءا لا يتجزأ من ذلك الجهاز ، بل ان حياة الملك الخاصة لم تكن ملكا له وحده اذ كان عليه أن يتصرف في كل لحظة طبقا لنظام مرسوم دون أن يجد مجالا للتحلل والعبث كما كان يفعل أمثال « ديونيسوس » أو « كاليجولا » (١) اننا نقرأ عن محاكمات رسمية تجرى في البلاط لمحاكمة بعض أفراد الأسرة المالكة ، وذلك في عهد كل من الأسرة السادسة والأسرة العشرين (٢) • وكانت تلك المحاكمات تسير بدقة طبقا للاجراءات القانونية بل وبدون حضور الملك ، فقد كان الفرعون في مصر ذا سلطة محدودة حتى في شئونه الخاصة • ولم تبلغ سلطته على أفراد (آل) بيته ما بلغته سلطة كلوديوس أو هنري الثامن •

---

(١) امبراطور روماني حكم بين عامي ٣٧ — ٤١ م واشتهر بقسوته وظلمه •

(٢) محاكمات الأسرة السادسة والأسرة العشرين : في عهد كل من هاتين الأسرتين دبر رجال الحاشية بزعامة زوجة الملك مؤامرات لقتل الفرعون الجالس على العرش • ففي عهد الأسرة السادسة دبرت زوجة الملك المدعوة « أمتس » مؤامرة لقتل زوجها « بيبي » الأول ، والظاهر أن المؤامرة فشلت لأن الملك أصدر أمره بتشكيل محكمة لمحاكمتها • ولا نعرف السبب في اقدامها على هذه الجريمة ، ولكن يبدو السبب غيرتها من زواج الملك بأميرتين غيرها • وفي عهد الأسرة العشرين دبرت احدى نساء الحريم المدعوة « تي » مؤامرة لقتل الملك رمسيس الثالث والاستيلاء على السلطة لتمكين ابنها « بنتاؤرع » من اعتلاء العرش • وقد كشفت المؤامرة وأمر الملك بتشكيل محكمة لمحاكمة زوجته والمتآمرين معها •

القيود انحدرت الى الملك بالوراثة

وكان الوضع السياسي للملك يتمثل في كونه خليفة حكام الدويلات العديدة التي أزدهرت في عصر ما قبل الأسرات (١) وكان لكل منها نظمها الخاصة وحقوقها التي كانت شديدة التمسك بها . وبذلك فان حقوقه والتزاماته آلت اليه من مختلف النظم التي كانت سائدة في تلك الدويلات . فقد كان الملك يعتبر الوارث لعرش مملكة « هيراكونبوليس » . وكان بهذه الصفة يتخذ « الصقر » رمزا له . فاذا مات الملك عبر المصريون عن ذلك بقولهم « لقد طار الصقر الى السماء » .

وكان الملك أيضا يعتبر وريثا لحكومات كل من الكاب «نخب» التي كانت تقع على الضفة اليمنى للنيل ازاء « نخن » (٢) « وبوتو » العاصمة الشمالية في الدلتا . وهذه السيادة المزدوجه كان يرمز لها في شعار الملك « بالصل » و « العقاب » كما ضم أقليم

---

(١) عن هذه الدويلات راجع ص ١٦ (حاشية) .

(٢) كانت « نخن » في الأصل عاصمة المقاطعة الثالثة في الوجه القبلي ثم تمكن أمراؤها من توحيد مقاطعات الوجه القبلي تحت حكمهم . وجعلوا « الصقر » رمز هذه المدينة والهها علما على الوجه القبلي كله . ولذلك سماها الاغريق « هيراكونبوليس » أي مدينة الصقر الجاثم . وتوجد أطلال هذه المدينة الآن في قرية الكوم الأحمر غرب النيل في مواجهة ادفو . وفي العصور التالية حلت مدينة « نخب » محل « نخن » كعاصمة للمقاطعة الثالثة . فورثت عن نخن أهميتها التاريخية كعاصمة للوجه القبلي قبل اتحاد القطرين . وكان رمزها والهها « انثى العقاب » . وتوجد اطلال « نخب » الآن في قرية «الكاب» شرق النيل شمال ادفو بقليل .

« سايس » (١) تمثله « النحلة » . وقد قرن ذلك باقليم الجنوب وتمثله « البوصة » . وليس واضحا ما اذا كانت « البوصة » قد أتخذت في الأصل شعارا لعاصمة معينة . ومن المؤكد على أية حال أنها كانت ترمز دائما لاقليم الجنوب (٢) . ويبدو أن اخضاع قبيلة الاله « ست » التى كانت على جانب كبير من القوة والبأس فى عهد الأسرة الثانية (٣) قد تم نهائيا أيام الأسرة الرابعة بدليل تمثيل الملك بهيئة الصقر منتصرا على الاله « ست نبتى » (٤) . وكان يرمز لذلك الحادث برسم العلامة « نوب » (٥) وفوقها يجثم الصقر

---

(١) كانت « سايس احدى المقاطعات الهامة فى الدلتا وهى أقدم من « بوتو » وشعارها « النحلة » . ومكانها الآن « صالحجر » (بالقرب من كفر الزيات) . وقد اتخذ الفراعنة من النحلة (بيتى) رمزها شعارا آخر للوجه البحرى . كما اتخذوا البوصة « نسوت » شعارا للوجه القبلى . وضموا (البوصة والنحلة) فى شعار واحد واحد واصبح رمزا ولقبا للملك بعد التوحيد (ملك الوجهين القبلى والبحرى) .

(٢) هناك رأى ينادى به العالم الفرنسى (لوريه) بأن البوصة كانت فى الاصل الشارة التى تدل على اقليم مصر الوسطى من بداية بحر يوسف الى رأس الدلتا . وكانت عاصمة هذا الاقليم مدينة « هيراكليوبوليس » ومكانها الآن بلدة « اهناس » بالقرب من الفيوم .

(٣) ودليل ذلك ما ورد على آثار الملك (بر ـ ايب ـ سن Per ib-Sen أحد ملوك الأسرة الثانيه من أنه استبدل صورة الاله (حور) بصورة الاله (ست) فى اسمه .

(٤) (ست نبتى) أى الاله ست الذى ينتمى الى بلدة (نبت) . ومكانها الآن قريتا (نقادة وكفر البلاص) الواقعتان على الضفة الغربية للنيل بالقرب من (قفط) . راجع ص ١٦ (حاشية) .

(٥) « نوب » كلمة مصرية قديمة معناها الذهب ومنها اشتقت كلمة النوبة التى تطلق الآن على المنطقة الممتدة جنوب اسوان نظرا لكثرة مناجم الذهب

وآخر كسب للملك كان ما ورثه من حقوق في الأسرة الخامسة من كهان مملكة هليوبوليس العظام ومن بعدها أصبح الملك يلقب « حقا » أو حاكم « هليوبوليس القديمة » (١) . وبذلك أصبح الملك يحمل أيضا لقب حاكم (هليوبوليس) ويمثل في الشعار الملكي بصولجان كان يحفظ في المعبد (٢) . وكان من الألقاب الدينية الرفيعة التي يحملها الفرعون لقب (الكاهن الأعظم للاله

= التي كان المصريون القدماء يستغلونها في هذه المنطقة ولكن كلمة «نوبت» هنا لها معنى آخر فهي ترمز الى بلدة (نوبت) مقر عبادة الاله (ست) . فيكون معنى الرمز (حور المنتصر على ست في بلدة نوبت) . ويقول بعض العلماء أن هذا التفسير يرجع لعصر البطالمة ، وان المعنى الحقيقي لهذا اللقب الذي يرجع لأقدم عصور التاريخ المصرى هو (حورس الذهبي) .

(١) سبق القول بان هذه المملكة ظهرت في مصر ما قبل الأسرات (راجع ص ١٦) حاشية.وكان ملوكها يسمون «شمسوحور» أي اتباع حور . وكانت مركزا لعبادة الشمس . وقد برع كهانها في علوم الفلك والرصد . فكانوا أول من اخترع التقويم الشمسي المعروف الآن بالسنة القبطية . وكان ذلك حوالي عام ٤٢٤١ ق.م. وفي العصر التاريخي وخصوصا في أواخر الأسرة الرابعة زاد نفوذ كهنة الشمس بدرجة خطيرة حتى تمكنوا من اعتلاء عرش البلاد وتأسيس الأسرة الخامسة . وبنوا أهرامهم في أبي صير بالقرب من الجيزة . هذا وكلمة (هليوبوليس) يونانية معناها مدينة الشمس . وقد ترجمها العرب الى عين شمس .

(٢) فسر المؤلف في هذه السطور الألقاب التي كان الملك يحملها على هيئة رموز لكل من « الصل والعقاب وكذا النحلة والبوصة ولقب حور نبتي وحاكم هليوبوليس » وان كانت في ظاهرها تعتبر ألقابا للفرعون الا انها في حقيقتها ترمز الى الدويلات التي تكونت منها مصر قبل توحيد القطرين ، وتدل على وراثة الملك لهذه الدويلات بما فيها من نظم وما لها من التزامات .

حورس) (١) • ويشير اليه الخرطوش الذى يحوى الاسم الملكى ويظهر هذا فى شكل قلادة حول رقبة تمثال الكاهن الأكبر « رع سمنخ » (المحفوظ فى متحف اللوفر) •

الوظيفة الدينية للملك

ولم تكن الوظيفة الدينية للملك قاصرة على رئاسة كهنة الالهين « حورس ورع » فحسب بل كان عليه تقديم القرابين اليومية من أجل رعيته • وكما كان يهب النبلاء وغيرهم من كبار الحكام المنح المختلفة من الأراضى وهم على قيد الحياة فقد كان يمنحهم الهبات من الأرض بعد مماتهم لضمان استمرار تقديم القرابين لأرواحهم كما ورد فى مقبرة الأمير « متن » ولهذا فان كافة الهبات الجنائزية كانت تعد فى الواقع « قرابين ملكية » وتشير الى ذلك صيغ الدعاء التى كانت تدون على اللوحات الجنائزية فى كافة عصور التاريخ الفرعونى ، فكان الفرعون بحكم مركزه الكهنوتى عائلا لرعيته فى الحياة ، كما كان سندا لهم فى الممات • وقد لا تكون الهبات الملكية دائما منحا من الأراضى بل ربما اشتملت على مواد غذائية تمثل قيمة ايجارات عينية لبعض مزارع الملك ،

---

(١) « حورس » هو أحد آلهة مصر الرئيسيين وكان يعبد فى جهات متعددة من القطر • وقد اعتبره كهنة هليوبوليس صورة أخرى لالهم « رع » اله الشمس وكانوا أحيانا يوحدون الالهين فى اله واحد اطلقوا عليه «رع حورس» •

أو قيمة ايجارات عينية للملك حق الحصـــول عليها • ومع ازدياد المعاملات وتعقدها تبعا لنمو سلطان المملكة صـار من المستحيل أن يتصرف الملك شخصيا في كافة شئون الدولة • ولذلك نرى الملك « ســـنفرو » قبل نهـاية عصر الأسرة الثـالثة (١) يقلد نجله « نفر ماعت » منصبي « حامل الأختام الملكية » و « قاضي القضاة » • ويقلد نجله « رع حتب » منصب « الكاهن الأكبر للاله رع في هليوبوليس » • وقد فعل الملك « خوفو » ما يشبه ذلك مع ابنـه « مرى ايب » •

وظائف الملك السياسية

واذا أنتقلنـا الى الوظائف السياســية للملك نجد أن أول واجب عليه بعد اعتلائه العرش منذ عهد الأسرة الأولى هو التفتيش على الحدود وتأمين سلطته ويطلق على هذه المهمة « الطواف حول الجدار » (٢) احياء لذكرى اتحاد الوجهين القبلي والبحرى • وكان

---

(١) السائد الآن بين علماء الآثار أن الملك « سنفرو » هو أول ملوك الأسرة الرابعة وأن « نفر ماعت » هو حفيد « سـنفرو » وليس ابنـه (راجع مصر القديمة جـ ٢ ص ٤٤) •

(٢) « الطواف حول الجدار » احتفال كان يقوم به الفرعون يوم توليتـه العرش • يطوف أثناءه حول مدينة « منف » عاصمة المملكة • والقصد من ذلك احياء ذكرى توحيد الوجهين القبلي والبحرى على يد الملك « مينا » الذى اسس مدينة منف وبنى حولها سورا أو جدارا • وهذا هو احدث تفسير لهذا الاحتفـال كمـا اثبتته الحفـائر الحـديثة التي اجريت في منطقة سقارة =

الملك هو القائد الأعلى للجيش واليه شخصيا ينسب الفضل في الانتصارات التي يحرزها جيشه • ولم يكن ذلك ادعاء بل كانت حقيقه لأن الملك كان يقود جيشه بنفسه ويشترك في المعارك اشتراكا فعليا • ولدينا أمثله على ذلك منها مساهمة الملك بشخصه في الحرب ضد اثيوبيا (١) في عهد الأسرة الثانيه عشرة وفي الصراع المميت الذي خاضه الملك « سكنرع » (٢) في عهد الأسرة السابعة عشرة • ومن قيادة « تحتمس » الثالث و « رمسيس » الثاني من ملوك الأسرتين الثامنه عشرة والتاسعة عشرة بشخصيهما للجيوش المصرية في المعارك الحربيه الهامة وليس هناك أي دليل على أن ملوك مصر قد تخلوا عن بعض حقهم في قيادة الجيش • وكان الملك يقوم برحلات كبيرة يتفقد خلالها الأشغال العامة

= وميت رهينه • وهذا التفسير كما يلاحظ القارىء لا يتفق مع تفسير المؤلف الذي وضع كتابه عام ١٩٢٣ •

(١) المقصود « باثيوبيا » هنا ليست الحبشة وانما يقصد بها في كتب علماء المصرولوجيا المنطقه الممتدة من الشلال الثاني الى الشلال السادس على وجه التقريب • وقد قام الملك « سنوسرت » الثالث أحد ملوك الأسره الثانية عشرة بحملات شديدة على هذه الجهات فكان يقود الجيش بنفسه حتى استطاع تأمين حدود مصر •

(٢) هو أحد ملوك مدينة طيبه الذين بدأ الصراع بينهم وبين ملوك الهكسوس • وقد حارب « سكنرع » واستمات في القتال حتى قتل في احدى المعارك • ويوجد جمجمة هذا الملك بالمتحف المصري وبها آثار كسور دليلا على استشهاده فداء لحرية البلاد واستقلالها •

والمناجم للوقوف على مدى أمانة الموظفين وللقضاء على المساوى، والمظالم .

النظام اليومى للملك

وقد انفرد « ديودورس » بوصف نظام حياة الملك اليومى وربما يكون ما أورده مشابها لنظام الحياة اليومية للملوك البطالمة ، ولكن الأرجح أن يكون وصفه مطابقا لنظام حياة ملوك الأسرة السادسة والعشرين الذى بدوره قد يرجع فى أصله الى عهود أقدم . لقد كانت كل ساعة من وقت الملك مخصصة لأداء واجبات شتى والقيام بأعمال مفروضة لا أن ينغمس فى المتع والملذات . فاذا استيقظ فى الصباح بدأ عمله بقراءة الرسائل الواردة من مختلف الأقاليم وربما تطلب الأمر املاء الردود عليها ، ثم يعقب ذلك طقوس التطهير فيرتدى الزى الرسمى تزينه الأوسمة والشارات الملكية ، استعدادا لتقديم الضحية للالهة . ولكن قبل بدء هذه الطقوس كان يقف الكاهن الأكبر ، والملك والناس حافين من حوله يبتهل للالهة كى تمنح الملك الصحة والسعادة . وبعد أن يعدد فضائل الملك يستنزل اللعنات والسخط على جميع الخطايا والذنوب التى اقترفت عن جهل وارتكبت من غير قصد ، ملقيا اللوم على الوزراء . وكان معنى ذلك توجيه نقد شديد لأعمال الحكومة لم يكن يجرؤ عليه الا رجال الدين . وقد قيل ان ذلك كان لهدى الملك الى الطريق المستقيم وارشاده اذا ضل ، وكبحه

اذا سلك جنبات الصواب • ولم تدلنا النصوص عما اذا كان الملك يقدم التضحية للآلهة بنفســه أم كان يقوم بذلك الكاهن الأكبر • على أن الثابت أن هذه المهمة كانت تعد من مهـام الملك • وكان الفرعون يختبر الأحشاء (١) مثلما كان ملوك آشور يفحصون الكبد• وقد أشـــارت التوراة لذلك : « وللتنبوء •• كانوا يفحصـــون الكبد •• (سـفر حزقيال اصحاح ٢١ آية ٢١) • واذا انتهى من تقديم القرابين من النبيذ والزيوت وغيرها من ســوائل التطـــهير المقدسة ، قام الكهنة بتلاوة العظة (الخطبة) وقراءة بعض المراسيم والقوانين والنصــوص التاريخيــة التى تناسب المقام • وكان طعام الملوك بسيطا محدود الأصـناف • وهذا يشير الى أنه كان لهم نظام خاص فى الغذاء محافظة على صحتهم وضمانا لسلامتها التى تتوقف عليها رفاهية البـلاد • وهذا الاعتقاد مازال سـائدا فى بعض مناطق افريقية ولكن بصورة غاية فى القسوة الوحشية فعندما تعتل صحة الملك وتضعف حيويته يقتل كى تتجنب البلاد انتقال ذلك الضعف والاضمحلال اليها • ولم تكن تلك العادة الوحشــية بطبيعة الحال

---

(١) الأصل فى هذا التقليد هو أن الضحايا كانت تقدم للآلهة كل صباح • وغالبا ما كانت هذه الضحايا من الثيران المسمنة • وبعد ذبح الضحية كان يقطع خير أجزائها وهو الفخذ ، وكان المفروض أن يقوم الملك بهذه العمليـة ليقدمه للآلهة • ولكن أصبح هذا العمل يقوم به الكاهن الاكبر أولا ثم بتطور الزمن ترك هذا العمل للكهنة المختصين الذين يقومون بذبح الضحية • وصار عمل الملك ينحصر فى فحص أحشاء الضحية •

متبعة في مصر القديمة اطلاقا ، لأن الملكية في مصر قد نشأت فيما يظهر عن نظام كهنوتي يعتمد على الحكمة وليس عن طريق رياسة تستند الى قوة جثمانية قاهرة (١) . وقد ورد وصف وفاة الملك في السجلات الخاصة بالأسرة الثانية عشرة (٢) . « لقد دخل الاله أفقه وصعد الملك الى السماء واقترن بقرص الشمس والتقى ظل الاله بخالقه . لقد ساد الصمت أرجاء القصر واكتنفه جو كئيب من الحزن والأسى ، وأغلقت أبوابه الكبرى وجثم رجال الحاشية على الأرض في خشوع ، وكان الناس في حزن صامت رهيب » ، وقد قيل بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة (٣) « ان المصريين عامة اذا مات أحد ملوكهم قاموا بنعيه في حزن شامل ، يشقون الجيوب ويوصدون أبواب دور العبادة ويحرمون تقديم الضحايا للآلهة ، واقامة الولائم

---

(١) كان الفراعنة في مصر في بداية عهد الأسرات يحتفلون بعيد يسمونه « حب سد » أى عيد الذنب لأن الملك كان يلبس جلد حيوان له ذنب . والغرض من هذا العيد تجديد شباب الملك لأن الاحتفال به كان يتم كل ثلاثين عاما من عمر الملك . وبمرور الزمن أصبح الفراعنة لا يتقيدون بشرط مرور ثلاثين عاما ، بل كثيرا ما نجد فراعنة يحتفلون بهذا العيد مرات كثيرة في حياتهم مثل رمسيس الثاني ورمسيس الثالث ولعل هذا العيد تطور انساني متحضر لتلك العادة البدائية التي يشير اليها المؤلف .

(٢) ورد ذلك الوصف عن وفاة الملك « امنمحات الأول » في قصة سنوحي المشهورة .

(٣) هو وصف المؤرخ « ديودورس » الذي زار مصر سنة ٥٩ ق.م. اي في أواخر مصر البطالمة . وهذا معناه انقضاء حوالي ألفي عام بينه وبين الوصف المذكور آنفا الذي يرجع الى عهد الأسرة الثانية عشرة وليس ثلاثة آلاف عام كما ذكر المؤرخ (انظر وهيب كامل : ديودور في مصر ٧٢) .

والحفلات ويلتزمون الخشوع اثنين وسبعون يوما (١) • ويخرج الرجال والنساء وقد حثوا التراب على رؤوسهم (٢) وأتزروا فيما يلي الصدر بلباس من التيل الرفيع في جماعات مؤلفه من مائتين او ثلاثمائة ، ويطوفون بأنحاء المدينه مرتين في اليوم ، متغنين بمدح الفقيد العظيم ومشيدين بذكره • وكانوا يمتنعون عن تناول اللحوم أو الأطعمة المطهوة على النار أو المسخنة عليها ، ويحرمون على أنفسهم تناول الأنبذة وكافة الأطعمة الفاخرة » • ويبدو أنه لم يكن هناك أي أثر للفوضى والتحلل والترخص العام عند وفاة الملك كما كان يحدث في بعض الجهات الأخرى وهذا يتمشى مع الحقيقة الثابتة وهي أن الملك خاضع للقانون وليس المصدر الأوحد للقانون والنظام ، وكانت سلطات الملك مقيدة كل التقييد ومن ذلك يستطرد ديودور قائلا « انه لم يكن ليستطيع أن يقوم بأي عمل عام أو يدين شخصا أو يعاقب آخر لمجرد نزعة شخصية ، أو بقصد التشفي والانتقام ، أو لأي دافع آخر لا يتفق وروح العدالة ، ولكنه كان مقيد التصرف في كل حالة وفق ما تنص عليه القوانين » ومن أجل ذلك رأينا الملوك وقد راعوا المساواة والعدل في المعاملة بين رعاياهم

---

(١) السبب في تحديد مدة الحداد باثنين وسبعين يوما هو الفترة اللازمة لتحنيط الجثة .

(٢) مازالت هذه العادة باقية بمصر بين الطبقات الدنيا اذ يلطخ النساء وجوههن بالنيلة عند حدوث وفاة في أسرهن كما يخرجن نادبات نائحات ولكن تلك العادات في طريقها الى الزوال .

فاكتسبوا من محبتهم ما يزيد كثيرا عما يكنونه لأهلهم من حب ٠ وعلى الرغم من أن ما ذكر عن هؤلاء الملوك فى تلك المناسبة يرجع فى تاريخه الى عصر متأخر ، الا أنه يسرى على العصور السابقة أيضا كما يتبين من محاكمة احدى الملكات فى عهد الأسرة السادسة (١) ٠ فقد تولى هذه المحاكمة أحد القضاة ثم اشترك معه قاض ثان فى تحرير التقرير وقد تم هذا كله دون ان يشترك الملك فى الأمر أو يتدخل فى سير القضية وقد يكون قد أصدر الحكم النهائى فى هذه القضية وفى غيرها من القضايا الخطيرة ٠ ولكن محاكمات المجرمين وقرارات اتهامهم كانت دائما تسير وفقا للاجراءات القانونية ٠

واذن فقد كانت نظرية الحق الآلهى للملك مقيدة تقييدا كبيرا بالنسبة لملوك مصر ٠ بيد أنه لما كان المصرى لا يعتقد أن آلهته يحيطون بكل شىء علما وأنهم ليسوا منزهين عن الزلل والخطايا فلم يكن هناك الا تناقض ضئيل بين هذه العقيدة وقبول فكرة ألوهية الملك ٠ على أن الملك كان اذا أوتى شخصية قوية وروحا جريئة مبتكرة استطاع أن يجد لنشاطه وحيويته مجالا فسيحا ٠ ذلك أن تنظيم أمور الدولة وانجاز المشروعات العامة والهيمنة على شئون العلاقات الخارجية كل ذلك كان يكفى ليفسح أمام الملك ميادين

---

(١) يشير المؤلف بذلك الى قصة الملكة « امتس » التى تآمرت على حياة زوجها « بيبى » الأول ٠ وقد سبق الكلام عليها (راجع ص ٢٩) ٠

واسعة لعمل كبير • وممن أشيد بذكرهم فى هذا المقام « أحمس » الأول الذى أنشأ نصبا تذكاريا فخما لجدته الملكة « تيتي شيرى » (١) وحتشبسوت التى أقامت مسلاتها الرائعة (٢) • وسيتى الأول الذى قام بزيارة المناجم وأمر بأقامة معبد وحفر بئر فى وادى عباد (٣) بعد أن لمس مشقة العمل فى تلك المناطق •

وكان عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية حقا من حقوق الملك كذلك • بيد أن الصياغة القانونية الدقيقة لمعاهدة مصر مع الحيثيين(٤)

---

(١) يشير المؤلف بذلك الى حيوية الفرعون « أحمس » وتعدد ميادين نشاطه . وفضلا عن أنه قام بأعظم عمل قومى فى تاريخ مصر وهو طرد الهكسوس فان نشاطه امتد الى الأعمال السلمية .

(٢) توجد هذه المسلات فى معبد « آمون » الكبير بالكرنك وما زالت احداها قائمة ويبلغ ارتفاعها حوالى ٣٠ مترا ووزنها حوالى ٣٠٠ طن .

(٣) طريق صحراوى يبدأ من وادى النيل جنوبى ادفو بعدة أميال ويخترق الصحراء الشرقية الى جبل الزبارا على ساحل البحر الاحمر حيث مناجم الذهب .

(٤) هى أقدم معاهدة فى التاريخ أبرمها الملك رمسيس الثانى مع ملك الحيثيين حفظا للسلام بين الدولتين بعد ان دامت الحرب مدة طويلة . وأهم بنودها ما يلى :

(أ) عدم اعتداء كل من الطرفين على أراضى الطرف الآخر وارجاع العلاقات الودية كما كانت .

(ب) مساعدة كل طرف للآخر فى حالة هجوم دولة اجنبية عليه .

(جـ) التعاون فى عقاب الخارجين على طاعة الطرفين .

(د) طرد الهاربين السياسيين والمهاجرين التابعين لكل من الطرفين الى بلاده .

وهذه المعاهدة مسجلة فى معابد رمسيس الثانى بطيبة . كما عثر عليها =

توحي بأن تلك الصياغة انما هي من عمل أحد رجال القانون •
وكان تعيين كبار الموظفين من سلطة الملك • وهكذا نجد في عهد الأسرة السادسة أن التماسا يقدم الى الملك كي يخلع على « زاو »(١) لقب أمير وقد تقبل الملك الالتماس وأصدر مرسوما ملكيا تحقيقا لذلك •

وكان من أعمال الملك الهامة منح الأراضي فكثيرا ما أعلن الملك منح ضياع للنبلاء وهبات للمعابد لصالح الكهنة ، ولقد كان في الامكان في العصور المبكرة أن تمنح تلك الهبات من الأراضي البور بعد اصلاحها بشق قنوات الري والصرف فيها غير أن ذلك المورد كان مآله الى النفاد فمن أين كانت تمنح الهبات الملكية ؟ فاذا لم يكن للتاج قدر كبير من الأراضي الزراعية في البلاد تعذر على الملك أن يواصل مثل تلك الهبات من أملاكه • وقد اتخذت الهبات التي كان يمنحها الملك لأفراد أسرة ما صورة من صورتين :

فهي اما تنازل عن ملكية تلك الأراضي للأفراد في حياتهم بوثيقة ملكية •

= منقوشة بالخط المسماري على قالب من الطوب اللبن في « بوغازي كوي » عاصمة الحيثيين القديمة بآسيا الصغرى • وتوكيدا لهذه المعاهدة زار ملك الحيثيين مصر وزوج ابنته للملك رمسيس الثاني •

(١) كان « زاو » موظفا كبيرا في عهد الأسرة السادسة وكان يحمل ألقابا كثيرة منها « الحاكم العام للعاصمة وكبير القضاة والوزير ورئيس الملابس الملكية وحامل أختام فرعون » • والسبب في تمتعه بهذه المراكز أنه كان صهرا للملك « بيبي » الأول الذي تزوج من شقيقتي « زاو » •

أو تنازل عن الأرض كهبات جنائزية بعد مماتهم .

وكلاهما يشير الى منح الأراضي منحا نهائيا وامتلاكها مدى الحياة . وقد لاتشير المنح الملكية الى التنازل عن ملكية الأرض نفسها وانما شير الى اعفائها من الضرائب المستحقة للتاج كما كان الحال بالنسبة للأراضي التابعة للمعابد . وذلك أن فرض الضرائب كان ناشئا من أن للملك حقوقا على ملكية تلك الأراضي باعتباره السيد المطلق على البلاد . واذن فاعفاء الأرض من الضرائب كان يعتبر من الناحية العملية أنه منحة ملكية دون أن يترتب على ذلك نقل ملكيتها من التاج .

وظيفة الوزير

كانت أعمال الوزير على أعظم جانب من الأهمية باعتباره الأداة المنفذة لكافة الشئون الادارية التي تدخل ضمن اختصاصات الملك باستثناء الناحية الدينية . ولدينا من حسن الحظ بيان شامل لمهام الوزير وواجباته يرجع الى عهد الأسرة الثامنة عشرة دون على جدران مقبرة الوزير « رخميرع » (١) ورغم أن جانبا كبيرا

---

(١) « رخميرع » وزير مشهور عاصر الملك « تحتمس الثالث » « وأمنحتب الثاني » . وتولى بنفسه تتويج الملك الأخير . وقد ذاعت شهرته بسبب أهمية مقبرته الموجودة بالبر الغربي بالأقصر ، اذ أن نقوشها ونصوصها ألقت ضوءا على كثير من النظم السياسية والادارية والقضائية في مصر القديمة وعلى مهام الوزير وأعماله . انظر : Newberry, The Tomb of Rekhmare.

من هذه المهام يصعب تفسيرها الا أنها تعطينا فكرة عن تلك الواجبات التى يمكن اجمالها فيما يلى :

١ ـ الادارة العامة •

٢ ـ تعين أربعه مقررين ومفتشين لموافاة الوزير ثلاث مرات فى السنة بأحوال المقاطعات الواقعة ضمن اختصاص كل منهم ، مع تقديم الوثائق والتفتيش على القائمين بمراجعه الحسابات وضبطها •

٣ ـ تسلم التقارير الواردة من مفتشى الأقاليم وكذلك قوائم الاحصاءات التى فى حوزتهم •

٤ ـ النظر فى الشئون الخاصه بحدود المقاطعات وتحديد الأراضى ، والفيضان والترع ، واصدار التعليمات الخاصة بالمحصول التالى ، وقطع الأشجار وتنظيم تحصيل المتأخرات من الضرائب • والنظر فى مظالم الحكام المحليين وحوادث السطو والسرقه فى الأقاليم والمنازعات المختلفة •

والى جانب هذا كله كان على الوزير أن ينوب عن مليكه فى اذاعه الرسائل الملكيه الى شتى المقاطعات وارسال البلاغات والأوامر الملكية الى الجهات المختلفة • واصدار الأوامر لرسول الضياع الملكه • وتعيين المشرف على الرسائل فى ساحة القصر الملكى • والاشراف على رجال الحرس الملكى ، وعلى تنظيم البعثات الملكيه •

وفي القضاء كان من سلطات الوزير ترقية القضاة وتعيين حارس المحكمة . وفي المعابد كان ينظر في أسباب نقص ايرادات الهبات . (فقد تكون بسبب الاختلاسات من جانب الكهنة) كما كان ينظر في توزيع الجزية السنوية (١) عليها وكان عليه أن يفتش وفي معيته حامل الأختام على هذه الجزية وعلى الأرصدة ، وكان من واجباته أيضا تنظيم الملاحة في نهر النيل والاشراف على سير سفن البضائع ومراقبة أعمال مرشدي السفن وموجهيها . ثم يلي ذلك وظائف أخرى عديدة . غير أن بعضها قد ضاع وبعضها الآخر يتعذر فهمه ، من ذلك السجل المنوه عنه فيما سبق . على أن هذا كله يدل على مدى اتساع اختصاص الوزير في النواحي الادارية . وعلى عظم اعتماد رخاء الدولة ورفاهيتها على حسن ادارته ونزاهته . لأن الوزير منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها كان هو الحاكم العام للعاصمة والقائد (« مرتوت » و « وثاتي ») وقد أصبح من الضروري نتيجة لهذا العبء الثقيل من الأعمال على كاهل الوزير تعيين وزير ثان للجنوب ابتداء من مستهل عهد الأسرة الثامنة عشرة واتخذ مقره مدينة طيبه . على حين أختص وزير الشمال بشئون الدلتا ومصر الوسطى .. زد على ذلك أنه تقرر تعيين حاكم له

---

(١) كانت هذه الجزية تجبى من الأملاك المصرية في آسيا . وكان يخصص كل معبد من المعابد الكبيرة نصيب معلوم كل عام .

سلطات مماثله على أقليم النوبه وأثيوبيا (١) وكان يطلق عليه الابن الملكي في كوش (٢) .

موظفو البلاط

ولابد أن رئيس البلاط الملكي كان يتمتع بسلطان عظيم وكان يطلق عليه « حامل المروحة على يمين الملك » وكان دائما كريم المحتد عريقا في الحسب ويختار لمهابته وشدة بأسه وقوة مراسه وكفايته الممتازة في التوجيه والقيادة لضمان استتباب الأمن والنظام . ونظرا لما كان يتمتع به هذا الموظف الخطير الشأن من حق الاطلاع على كافة الشئون الخاصة بشخص الملك واصغاء الملك الى مشوراته والسلطة الكبيرة المخولة له في اقصاء من يشاء من المثول بين يدى الملك . كل هذا قد جعله المتحكم غير المنازع في مصائر الأفراد بل في مصائر الدولة بأسرها .

ومن موظفي الخاصة الملكية الذين كان لهم حق الاتصال

---

(١) راجع ما ذكر عن دلالة لفظ أثيوبيا ص ٣٢ حاشية .

(٢) كوش : Kush كلمة مصرية قديمة كانت تطلق على اقليم النوبة العليا الممتد بين وادى حلفا حتى قرب الشلال السادس . وكانت عاصمته هي بلدة « نباتا » الواقعة شمال شرق « كورتي » على النيل النوبي وكان يحكمه نائب من قبل الفرعون يحمل لقب « ابن الملك في كوش » ولم يكن هذا اللقب يعنى بنوة ذلك الحاكم للملك مصر ولكن كان يدل على متانة الصلة والروابط التي تربط مصر بالسودان .

المباشر بالملك « عيون الملك وآذانه » وكانوا يختصون بالمخابرات السرية . ومنهم « المبعوث الخاص الذى يطوف بأرجاء البلاد ويوافى الملك بالأخبار التى تدخل على قلبه السرور والغبطة » ثم « المعلم الذى يصل بعلمه بالملك الى حد الكمال » ثم « الكاتب الخاص لحورس الثور القوى » (١) ثم « كبير أمناء القصر الملكى » ثم « الأمناء » ثم « رئيس الحرس الملكى » ثم « الأتباع » وهم الذين يرافقون الملك فى الصيد . ثم « الدليل الذى كان يرافق الملك فى كافة رحلاته » .

وكان ضمن رجال الحاشية من ذوى المكانة « رئيس حملة أختام الملك » و « الرسول الخاص » و « كاتب المائدة الملكية » و « رئيس رسل جلالته » وكان يقوم بتنظيم بروتوكول الأسبقية وترتيبات المقابلات ثم « رئيس المسجلين الملكيين » و « المشرف على شئون الديوان » . والديوان هو الأجنحة الخاصة والغرف الداخلية بالقصر . و « ملاحظ الحدائق » وهو لقب حتى سنموت كان

---

(١) كان لقب « الثور القوى » يطلق على الفرعون منذ بداية عهد الأسرات . وكان الفرعون فى عصر الأسرة الاولى يمثل نفسه بثور يقطع قلاع أعدائه ويحطمها . ومثال ذلك الرسم الممثل على لوحة الملك مينا ـ نارمر ـ المشهورة والمحفوظة بالمتحف المصرى فى القاهرة . وقد حافظ عليه فراعنة مصر على مر العصور لانهم اعتبروه تراثا مقدسا ورثوه عن آبائهم الاولين .

بحمله ، ثم رئيس المهندسين المعماريين ، وهو الذى كان يوكل اليه عمل (١) تصميمات بناء الأهرام والمعابد والاشراف على تنفيذها والموظفون الذين يتصلون أتصالا شخصيا بالملك هم : السكرتير الأول : (الذى فوق الأسرار) وذلك في الدوله القديمة فقط . ثم « مسجل الأختام وحارس الأختام وكاتب التقارير وكاتب الرسائل فى القصر » ثم المادحون والعازفون على الجنك (آلة موسيقية تشبه القيثارة) وهناك « حامل القوس ورئيس الأتباع والسائق الأول للعربة الملكية ورئيس المشرفين على العربات الحربية وربان يخت الملك وكاتب رسائل الملكة وأمين قصرها » .

أما هيئة موظفي القصر عدا هؤلاء فكانت تتألف من كتبة المائدة الملكية والمؤن والشون والحسابات « رئيس الحسابات الحاذق » أو رئيس الحسابات اليومية وكتاب القصر وبيت المال وكتبة حسابات الفضة والذهب وكتبة حسابات المفتشين الملكيين لبيت المال . وكذلك مسجلى المكاتبات المقدسة الخاصة بالملك . ثم المترجم الأول للملك والصائغ . وصانع التحف البديعة ، ورئيس الاسطبل والمتولى

---

(١) كان « سنموت » وزيرا للملكة « حتشبسوت » وكبيرا لمهندسيها . وقد شيد لها ما تركته من روائع المعابد والمسلات فى الدير البحرى والكرنك وكان ذا حظوة ومنزلة عند الملكة . وقد اختفت أخباره بعد وفاتها . ويرجح بعض العلماء أنه ذهب ضحية انتقام الملك « تحتمس » الثالث الذى تولى الملك بعدها . وكان فى حياتها محجوبا بشخصية هذه الملكة الفذة ويشير المؤلف هنا الى أن سنموت هذا رغم مركزه الرفيع كان يحمل هذا اللقب البسيط وهو « ملاحظ الحدائق » (راجع التعليق فى ص ١٧ بخصوص الالقاب) .

شئون الخيل والمشرف على اطعام الكلاب ، وصانع النعال ، وطاهي قصر الملكة ، ثم رسل القصر الملكي •

وكان قاضي القضاة اهم رجل في الدوله بعد الوزير عندما كانت تنفصل الوظيفتان • وكان يحمل لقب قاضي (ساب) محكمه العدل (زادو) • وليس واضحا ما اذا كان لفظ « ثاتي » Thati يعني رئيسا على الاطلاق أم رئيسا في القضاء فحسب • فقد مثل « رخميرع » يجلس في محكمة العدل مع هيئة الروساء لا لينظر في القضايا فحسب بل ليتسلم الجزية أيضا • وورد في النص المجاور للرسم لقبين له هما « ساب امرى نخن » و « ثاتي امرى نخن » فاذا لم يكن اللقب الأخير يحوى لقبين منفصلين فان « ثاتي » ترادف « ساب » •

القضاة

وكانت محكمة الجنوب تتألف من مجلس السلاثين ويقوم أعضاؤه باختيار رئيس المحكمة من بينهم • وكانوا يلقبون بالقضاة العظام (أور) • أما في الشمال فكان مجلس القضاء يتألف من ست دوائر تعقد في « أثيت تاوى » (١) برياسة الوزير • وكانت

---

(١) مدينة انشأها الملك « امنمحات الاول » مؤسس الاسرة الثانية عشرة لكي تكون عاصمة للملكه ومعنى اسمها (القابضة على الوجهين) • واطلالها الآن في قرية اللشت في الطريق الى الفيوم •

اجراءات المحاكمة تتضمن أن يتقدم المدعى بمذكرة مكتوبة الى المحكمة • ثم يتقدم المدعى عليه بتحرير رد على هذه المذكرة • وكان يصرح لكل من الطرفين بعد ذلك بتقديم رد آخر كتابة على مذكرة الخصم وفى ضوء تلك المذكرات يفصل فى القضية • وفى محاكم الجنوب كان يحفظ سجلات تحوى أسماء ملاك المنازل وأسماء أفراد أسرهم ومن يعولونهم • وكان يرأس المحكمة المحلية فى كل مدينة أحد القضاة • وذلك فى العهود الأخيرة على الأقل وربما كان فى العهود الأولى أيضا حيث يرد لقب قاضى (Daiaan) فى مناسبات عديدة بدون اضافة ألقاب أخرى اليه • وكان يوجد عدا ذلك « مفسر القوانين » و « أمين المراسيم الملكية » وغير ذلك من ألقاب وكلها ترجع الى عهد الدولة القديمة وتدل على مدى قدم الوظائف وثباتها خلال عصور التاريخ • ومن الوظائف الصغيرة الثانوية وظيفة « مسجل حسابات المحكمة ومسجل المراجعات الملكية » •

الادارة المحلية

وكان رؤساء الحكومات المحلية يطلق عليهم «حكام المقاطعات» كان اذا ضعف نفوذ الحكومة المركزية قويت شوكة هؤلاء الحكام وكونوا امارات المدن المستقلة • ونجدهم بعد ذلك يسجلون الأحداث الهامة مقرونة بأعوام حكمهم لا بسنى حكم الملك كما هو

العادة . ونظرا لعدم كفاية المعادن النفيسة للتداول الواسع النطاق فقد ترك الجانب الأكبر من الأموال الحكومية المقررة في يد السلطات المحلية . وتمنى بذلك الضرائب الخفيفة والعوائد الكبيرة . ولم تكن هناك قط مركزية قوية . ولهذا فقد كانت الادارات المحلية مستعدة دائما للقيام بشئون الادارة غير معتمدة على السلطة المركزية . واذا كان الملك قوى الشكيمة شديد المراس تمسك بحقه في اختيار حكام المقاطعات . وحتى في هذه الحالة كان من المحتمل أن ينحصر الاختيار في نفس أسرة حاكم المقاطعة السابق ولقد حدث مرة أن أحد الحكام مالأ أعداء الملك فجرد من منصبه ، وحقت عليه لعنة السماء أبد الآبدين . ولكن يبدو وفقا لما ورد بمرسوم . قفط . أنه لم ينفذ فيه حكم الاعدام . وكان يقيم في كل مقاطعة مندوب ملكي وعدد من المشرفين على أملاك التاج من ضياع وقطعان ماشية .. وكان نسب حكام الأقاليم والمقاطعات ينتمى الى الأم ، ولذلك كان من الممكن لابنة الحاكم أن تتولى شئون المقاطعة كوصية على ولدها القاصر كما كان الشأن في مثل تلك الحال . وكثيرا ما نشاهد في الرسوم المسجلة على الآثار ملكا قاصرا تصحبه والدته . وكان حاكم المقاطعة يجمع بين هذا المنصب ووظيفة الكاهن الأكبر للمقاطعة في معظم الحالات كما كان الملك كاهن القرابين للبلاد .

وكان الحاكم يرسل مندوبين عنه في كل قسم من أقسام المقاطعة يقومون بما يقوم به الآن مأمورو المراكز . على أن هؤلاء

المأمورين كانوا يقدمون تقاريرهم الى الوزير مباشرة • وفي ذلك بعض الحد من سلطات حاكم المقاطعة •

وكان لكل مدينه محافظ(Prefect) يرعى مسئونها ويعمل لخيرها ورفاهيتها ويبلغ الأوامر والتعليمات لكل من يعنيهم الأمر • وكان لها أيضا كاتب سجلات يحتفظ بالسجلات الخاصة بالأراضي والمعاملات • ثم قاضي أول ورئيس للشرطة (العسس) • ولاشك أن وجود تلك الوظائف يرجع الى عصور قديمة جدا وان كنا لانجدها مسجله بهذا الوصف الا في عهود لاحقة •

الحكم الذاتي في الريف

وكانت ادارة شئون الأقسام الريفية يعهد بها الى بعض أعيان تلك المناطق ويسمون « سارو » (Saru) أى « الرؤساء » أو السراة (١) وكانوا بهذه الصفة يشبهون أعضاء المجالس القرويه • ولم يكن هؤلاء موظفين حكوميين • وكانوا ينظرون في دعاوى عقود الايجارات وتقسيم الملكيات والوصايا والمبيعات • وكانوا يصدرون بعض الأوامر والتعليمات بعد التصديق عليها من « مدير الجنوب » ويقوم بتنفيذها الموظفون الحكوميون • وكان هؤلاء الأعيان

---

(١) أطلق عليهم هذا اللفظ الدكتور سليم حسن لتشابه النطق المصري القديم مع هذا اللفظ . (أنظر مصر القديمة جـ ٢ ص ٦٥) .

يقومون عدا ذلك بتنفيذ نظام السخرة وجمع الضرائب المحلية ، التي يفرضها عليهم الملك كمجموعات ، ومن هذا نرى انه كانت في الأقاليم سلطتان متداخلتان :

١ ـ سلطة محلية وهي سلطة أعيان الريف وهم رؤساء القرية أو أعضاء المجالس القروية في الاصطلاح الحديث ومنهم حاكم المقاطعة .

٢ ـ وسلطة مركزية وهي سلطة الوزير ومفتشيه في المراكز الذين يراقبون أحوال البلاد وينفذون القرارات المحلية .

أما فيما يتعلق بطبقه أولئك الذين كانوا ينهضون بتلك الواجبات فالمعتقد أن الحكومة كانت تستخدم لذلك موظفين من الطبقة المتوسطة الدنيا ازداد عددهم عاما بعد آخر حتى أصبحت وظائفهم وراثية في عهد الدولة الوسطى . أما في عصر الدوله الحديثة فقد كان صغار الموظفين من أسرات الموظفين القديمة الذين كان يتزايد عددهم يوما فيوما . أما كبار الموظفين فكانوا يؤخذون من النبلاء . وعلى ذلك نجد ان أفراد طبقة النبلاء من الاقطاعيين السابقين قد أخذوا يندمجون في سلك الوظائف الحكومية . وبذلك أضمحلت سلطة الحكومة المحلية .

وقد شاهدت كافة عصور التاريخ البشرى ظهور عباقرة وعظماء من بين الطبقات الدنيا لم يحل دون ظهورهم عرف

أو فانسون . وكثير مسن عظمساء المصريين الذين كتبسوا تاريخ حياتهسم يذهبون الى أن النساس يعتقدون أنهسم ينحدرون من أصسل وضسيع لا لشيء الا لأن أسسماء آبائهسم لم ترد في سجل من السجلات ومن هؤلاء سنموت المشهور ، ولعل ذلك كان السبب الأول في قوة بنيان المجتمع المصرى . ذلك أنه على الرغم من وجود فوارق كبيرة بين الطبقات فقد كان هناك تسلسل وتدرج يعملان دائما على امتزاج كافة الطبقات . وان مدى اتساع الأقسام الادارية في البلاد كان يختلف باختلاف كثافة السكان ، ففي أقدم عصور ما قبل التاريخ التي يمكننا تتبعها نجد أن عدد المدن التي كانت تصنع من سنابل القمح أشكالا على هيئة أوزير (١) هي أربع في الوجه القبلي وتسع في الدلتا . وفي عصر المملكة الأولى بلغ عدد المدن التي صارت مقدسة لوجود مخلفات من آثار الاله الشهيد أوزيريس (٢) بها ، سبعا في الوجه القبلي وعشرا في الوجه البحرى . وفي عصر الدولة القديمة كان عددها ثلاث عشرة بالوجه القبلي واثنتي عشرة في الوجه البحرى . وفي عصر الدولة الوسطى بلغ عدد المقاطعات اثنتين وعشرين في الوجه

---

(١) كانت هذه الطريقة يتبعها الزراع المصريون في الاحتفال بالحصاد وكانوا ينصبون اشكال أوزيريس هذه (اله النيل والزراعة) في وسط الحقول ويرقصون حولها ابتهاجا .

(٢) يشير المؤلف بذلك الى قصة «ايزيس وأوزيرة» التي ورد فيهما أن «ست» الشرير مزق جثة الاله «أوزيرة» اربا ووزعها على مختلف مقاطعات القطر المصري وكان المصريون القدماء يحتفظون بأعضاء «أوزيريس» المقدسة في المعبد الرئيسي لكل مقاطعة .

القبلي وتسع عشرة في الوجه البحرى وفي عصر الدولة الحديثة قسمت الى اثنتين وأربعين بالوجه القبلي وخمس وعشرين بالوجه البحرى • وفي العصر الروماني كان هناك اثنتان وعشرون مقاطعة بالوجه القبلي وخمس وثلاثون بالوجه البحرى •

أما المديريات الحالية (المحافظات) فيبلغ عددها سبعا في الوجه البحرى وسبعا في الوجه القبلي وبهذا فقد أصبح حجم المديريات كبيرا كما كانت المقاطعات في عصر المملكة الأولى (١) •

---

(١) كان ذلك عام ١٩٢٣ وقت تأليف الكتاب اما الآن فاصبح عدد محافظات الوجه البحرى تسعة (بما فيها مديرية التحرير) والوجه القبلي ثمانية •

التغييرات الادارية
فى العصر الاغريقى الرومانى

ولم يحدث البطالمة الا تغيرات قليلة جدا فى التقسيم الادارى للبلاد • واستمر العمل بنظام الوظائف القديمة فى عهدهم ولكنهم أطلقوا عليها أسماء اغريقية • وكان أبرز تغير فى عهد الرومان اختفاء منصب الملك ، على حين أن الحكام المؤقتين لم يكن يعنيهم أمر البلاد أو يهمهم رفاهيتها ولم تتوفر فيهم الكفاية الشخصية التى تمكنهم من الاضطلاع بالمهام الكثيرة التى كان يضطلع بها ملوك مصر فى العهود السابقة • ولم تكن مصر فى نظر الرومان احدى ولايات الامبراطورية وانما كانت تعد ملكا خاصا للامبراطور • فكان يفرض عليها مايشاء من الضرائب ويعامل أهلها وفقا لنزواته الشخصية • وكان الحاكم الرومانى للبلاد يمثل الامبراطور شخصيا • وكان خاتمه الذهبى يحمل « الخرطوش » المزدوج الخاص

بالامبراطور (١) وعلى ذلك فقد كانت كل وثيقة تمهر بذلك الخاتم تأخذ صفة المرسوم الامبراطوري •• ولا يخفى علينا تلك المساوىء والشرور التي نزلت بسبب غياب الأباطرة عنها • ولم يزرها منهم الا الامبراطور « فسباسيان » والامبراطور « هادريان » • وقد مكث كل منهما فيها بضعة أشهر • أما الامبراطور « أغسطس » فقد حضر اليها فاتحا • وجاء كل من « ماركوس أوريليوس » و « وكراكالا » (السفاح) لاخماد الثورات وسفك الدماء •

وكان تدخل الأباطرة « أوريليان وبروبس ودقلديانوس (٢) في شئون مصر لمدة قصيرة • وقد انحصر تفكير امبراطور الرومان في مدى ما يستطيع الحصول عليه من انتاجها من الغلات لملء بطون دهماء روما ومدى ما يمكن ابتزازه من أموال المصريين لتحقيق أهوائه الشخصية •

النظم التي وضعها الرومان لحكم مصر

والظاهر أن الحاكم الروماني كان يقوم بجولة تفتيشيه في البلاد مرة كل سنة • وكان في أثناء تلك الزيارات يعمل كأحد

---

(١) سار اباطرة الرومان على نهج ملوك البطالمة في تشبههم بالفراعنة القدماء • وبالنسبة لاباطرة الرومان كانت هذه الأسماء بطبيعة الحال تطلق عليهم في مصر فقط •

(٢) راجع قائمة التسلسل الزمني التي الحقناها بهذا الكتاب •

قضاة الاستئناف • وعلى العموم فقد كان في يده من السلطات ما كان للوزير في العهود السابقة • ويمكن القول بأنه قد خلف الوزير فعلا في منصبه • وكان يلي الحاكم في المنصب ثلاثة موظفين من الرومان يطلق عليهم مديرو الأقاليم (Epistrategoi) (١) وكانت اختصاصاتهم تشبه اختصاصات المفتشين (٢) الأربعه (المقررين) الذين كانوا يتجولون في البلاد لموافاة الوزير في العصر الفرعوني بأحوال الأقاليم التي تقع في اختصاص كل منهم • وكان هؤلاء الموظفون الثلاثة في أثناء زياراتهم لأقاليمهم يعملون كقضاة ، ويقدمون للحكومة قوائم الضرائب وكشوف الاحصاء • وقد وكل اليهم اختيار صغار الموظفين من المصريين الذين يعملون تحت اشرافهم • وكان الحاكم المحلي لكل مقاطعة من الرومان أيضا ويشغل نفس وظيفة حاكم المقاطعة المصرى في العصر الفرعوني وكان يطلق عليه (Strategos) غير أن مدة حكمه كانت

---

(١) كانت مصر في العصر الروماني مقسمة الى ثلاثه اقاليم ادارية هي اقليم طيبة والهبتانوميا والدلتا أو بعبارة أخرى مصر العليا ومصر الوسطى ومصر السفلى • وكانت كل منهما تخضع لادارة «استراتيجوس» وهذه التسمية ترجع الى عصر البطالمة • ولكن في ذلك العصر كان «الابستراتيجوس» قائدا حربيا أما في العصر الروماني فأصبحت الوظيفة مدنية • ويمكن أن تسمى مدير الاقليم ويبدو أن مديرى الاقاليم الثلاثة في العصر الروماني لم يكن لهم مقر دائم كل في اقليمه بل كانوا يديرون أعمالهم من الاسكندرية ولكنهم كانوا يطوفون بأقاليمهم بانتظام •

انظر : Milne, Egypt under the Roman Rule, pp. 125-126.

(٢) راجع ص ٣٦ •

محدودة بثلاث سنوات كي لا يزداد نفوذه ويحاول الاستقلال بشئون المقاطعة وحتى يمكن لرجال الحكومة المركزية الاثراء عن طريق بيع مثل هذا المنصب الكبير للراغبين فيه . وكان الحكام المحليون للمقاطعات يجمعون بينات القضايا أثناء تجولهم في المقاطعة ولكن لم يكن يسمح لهم أن يكونوا قضاة ، ولكن يحتمل أنهم كانوا يقومون بدور الحكم في كثير من المسائل التي لم تصل بعد الى دور التقاضي رسميا . وكانوا مسئولين كحكام المقاطعات قديما ومديري المديريات عن تقدير الضرائب وتحصيلها مقابل تقديم صكوك للممولين عن هذه الضرائب مهما قلت قيمتها ، كما يتبين من قطع « الأستراكا (١) » التي عثر عليها . وكانوا عدا ذلك يشرفون على نظم الرى . ولامراء في انهم تولوا شئون السخرة ..

ان الخوف من أتساع سلطانهم وقوة نفوذهم قد حفز الحكومة المركزية الى القاء أعباء ثقيلة على كاهل هؤلاء الحكام خلال تلك السنوات الثلاث من ولايتهم والى التشديد عليهم بتقديم التقارير عن أعمالهم وفحصها بغاية الدقة . وكان يقيم الى جانب كل من هؤلاء الحكام من يتجسس على أعماله وتصرفاته في شخص الكاتب

---

(١) «الأوستراكا» هي قطعة مصقولة السطح قد تكون من الحجر او الفخار او العاج عليها نقوش وكتابات .

أو المسجل الملكي (١) الذي يمثل الحكومة المركزية . وانا نجد منذ عهد الأسرة الثانية عشرة أن هذا المسجل الملكي الرسمي يلازم مسجل المقاطعة ليطمئن على نصيب الملك من الضرائب ، وقد أمتد العمل بهذا النظام في العصور التالية . وكان الرومان يستخدمون أفراد عائلات حكام المقاطعات القدامى كموظفين لسعة خبرتهم بالشئون المحلية ، وكجباة يبتزون أموال الأهلين في شكل رسوم وضرائب عقارية وتجارية وغيرها .

وقد أخذت حكومة الرومان بالنظام القديم لتسجيل المعاملات الخاصة وهو النظام الذي كان معمولا به على الأقل منذ عهد الأسرة الثانية عشرة . وربما عمل به قبل ذلك بكثير . فلم يقتصر الأمر على ضرورة تسجيل كافة الوثائق الرسمية بل كان لابد من تسجيل جميع الاتفاقات التي تبرم بين الأشخاص حتى تصير لها الصفة القانونية وتصبح مستندا رسميا . وقد بلغت قيمة التسجيل حوالى أربع بنسات أي ثمن رطل من حديد .

وكان القائمون على شئون القرية أشبه بأعضاء المجالس القروية ، ويتألفون من نخبة قليلة العدد من رجال القرية البارزين

---

(١) كانت وظيفة المسجل الملكي ولو انها مستمدة عن وظيفة حاكم المقاطعة الا انها أقل منها في المرتبة وكان المسجل الملكي ينوب عن حاكم المقاطعة في حالة غيابه ، ويختص بالنواحي المالية فقط ولضمان استقلاله عن حاكم المقاطعة وعدم خضوعه لسلطته فقد أوقفت بعض الضرائب عليه بالاضافة الى مرتبة . ويرجع هذه الوظيفة الى عهد البطالمة .

لرعايه شئون أهل القرية • وكانوا مسئولين عن حفظ الأمن والنظام والتأكد من جمع الضرائب • والظاهر أن مجلسهم الأكبر الذى كان يسمى فى العهود الماضية • سارو Saru قد أختفى تماما ومن المحتمل جدا أن تلك المجالس قد قضت علها الأنظمة الصارمة الدقيقة التى أبتكرها محصلو الضرائب ايام البطالمة الذين كانوا لا يرغبون فى وجود مجالس بالقرى توازن بين حال قرية وآخرى وكان يختص بالأعمال الرسمية فى القريه كل من كاتب القرية الذى عليه اعداد كشوف الايرادات للحكومة ومسجل كان يقوم بقيد الناس وكان يزود الكاتب بما يلزمه من أحصاءات ومسجل العقود والمعاملات التجارية •

وكانت قوات الشرطة (البوليس) فى البلاد مستقله عن الهيئات المحلية كما هو الحال فى الوقت الحاضر • ففى عهد الأسرة الثانية عشرة كان يوجد مدير للشرطة « خوتو » يعاون حاكم المقاطعه وقد زاد العدد فى العصر الرومانى الى أثنين فى كل مقاطعه • ومن ذلك العصر كان رجال الشرطة المخصصون لكل قرية يتولون حفظ الأمن والنظام وتأديب الخارجين على القانون على حين اقتصر عمل الخفراء المحليين على أداء المسائل العادية كالقبض على المتهمين •

المدن الاغريقية التى تمتعت بالاستقلال الذاتى

وقد قام الى جانب هذا الجهاز الادارى العام نظام آخر يتضمن

وجود عدد غير قليل من المدن التي تتمتع بالاستقلال الذاتي وتسكنها جاليات كبيرة العدد من الأجانب ومن المحتمل أن « نقراطيس » (١) كانت أول مدن مصر التي تمتعت بهذا النوع من الاستقلال الداخلي . لقد كانت مدينة أغريقية خالصة ، ولذلك فقد استقلت باختيار حكامها . وكانت الاسكندرية أيضا مدينة مستقلة استقلالا ذاتيا بطبيعة الحال . فقد كان يستوطنها عدد كبير من اليهود والاغريق منذ نشأتها . وبعد أن قام ملوك البطالمة باسكان عدد كبير من جنود الاغريق في الفيوم أنشأ هؤلاء مدينة سميت «أرسنوى Arsinoe» (٢) وكان أغلب القائمين على شئونها من الاغريق . أما مدينة « بطوليمايس Ptolemais (٣) الواقعة في الصعيد فكان لها مجلس

---

(١) أسسها تجار الاغريق في منتصف القرن السابع قبل الميلاد في عهد الملك «ابسماتيك» الأول على فرع النيل الكانوبي ومكانها الحالي «كوم جعيف» بجوار بلدة «نقراش» التي استمدت اسمها منها . وقد بلغ من تمتع «نقراطيس» بالسلطة الذاتية أنها أصدرت عملة محلية خاصة بها في أوائل عصر البطالمة . وكانت نقراطيس الميناء الرئيسي الواقع على الطريق النهرى بين الاسكندرية ومنف .

(٢) ذكرها المؤلف Ptolemais ولكن لما كانت هذه المدينة بعيدة عن الفيوم كما سيأتي ذكره . فمن الواضح أنه يقصد «ارسنوى» وهي المدينة التي انشئت في الفيوم .

(٣) بطوليميس » هي ثالث مدينة اغريقية انشئت في مصر بعد نقراطيس والاسكندرية . وقد شيدت مكان مدينة مصرية قديمة وسميت كذلك تخليدا لذكرى منشئها بطليموس الاول ومكانها الآن قرية المنشية بمديرية جرجا .

محلى وادارة محفوظات ، ثم هناك مدينة « أنتينوى Antinoe » (١)
وكان لها دستور أغريقي بحت ، وبحلول القرن الثالث الميلادى
نجد مدنا أخرى عديدة ذات طابع أغريقي قد أتخذت لنفسها
مجالس للأعيان تجعلها شبه مستقلة عن النظام الادارى العام في البلاد
مثل « اكسرينكوس Oxyrhynkhos » (٢) و « هيراكليوبوليس
Herakleopolis » (٣) .

على أن وظائف مجالس الأعيان لتلك المدن وغيرها يتبين في
جلاء عند دراسة الاختصاصات التي يتمتع بها مجلس هيراكليوبوليس .
لقد كان ذلك المجلس يقوم بتعيين كافة الموظفين المحليين للمدينة
والأشراف على اعداد الحفلات والبت في جميع مطالب الحكومة
المركزية واقرار كافة المسائل المتعلقة بالتجارة المحلية . وكان يمثل
المدينة في كافة العلاقات القائمة بينها وبين الحكومة المركزية . وأن
الأثر العام الذى يتركه هذا الحكم الذاتي في أذهاننا هو أن كل فرد

---

(١) مكانها الآن قرية الشيخ عباده بمديرية المنيا . انشأها الامبراطور الرومانى هادريان حوالى عام ١٣٢ بعد الميلاد عند زيارته لمصر . وذلك تخليدا لذكرى نديمه «انتينوس» الذى غرق فى النيل فى ذلك المكان . وكان كل سكانها من الاغريق ولذلك كان يغلب عليها الطابع الاغريقى . وقد صممت المدينة طبقا للطراز الاغريقى فى انشاء المدن . ونقل اليها مواطنون اغريق من مدينة بطوليميس واعطاها الامبراطور جميع امتيازات المدن الاغريقية لتحقيق استقلالها الذاتى .

(٢) مكانها الآن بلدة «البهنسا» الحالية فى مديرية المنيا .

(٣) مكانها الآن بلدة «اهناسيا المدينة» فى مديرية بنى سويف .

من سكان تلك المدن كان يحاول التملص من الأعمال الشاقة التى تفرضها الحكومة عليهم من غير أن تدفع لهم أجورا عن أدائها .
وكانت مناقشات هذه المجالس تطول فى غير جدوى وتتشعب دون حسم للمسائل المعروضة عليها . وقد تشتد وتحتدم فيلجأ الأعضاء الموقرون الى استعمال العنف تارة بالألفاظ وتارة بالأيدى .

نظام الضرائب فى العصور الأولى

ان الضرائب هى قوام الحكومات كلها • وقد تتخذ صورا شتى • فالضريبة على محصول الأرض هى الوسيلة البدائية الأولى التى كان يعتمد عليها كل زعيم • ثم تدرج الأمر الى تقدير الضرائب فى صور شتى • وكانت ضريبة العمل من الضرائب البدائية العادية فكان يقوم الشخص بالعمل عدة أيام للزعيم • ومازال هذا متبعا (فى انجلترا) بين الطبقات العليا اذ لايزال يكلف القضاة وغيرهم بأعمال مرهقة • وفى النظم الاغريقية والرومانية كان تكليف الأفراد بأعمال لمصلحة المجموع يعتبر من الضرائب الثقيلة • ومن أمثلة ذلك الخدمة فى المعابد الاغريقية وفى الاحتفالات العامة الرومانية • وان وجود مقادير كبيرة من العملة الذهبية أو الفضية فى قطر من الأقطار يؤدى حتما الى أن تكون الضريبة من هذا المعدن أو ذاك • وقد أخذت ضريبة الرأس تتلائم مع حالة الدافع حتى أصبحت معقدة وتحتاج الى طبقة من الموظفين المتخصصين • وكانت الضرائب البدائية

التى تؤدى فى صورة محاصيل عينية وخدمات هى السائدة الى عهد الأسرة الثامنة عشرة • ولم تختف تماما حتى فى أيام الرومان لأن منح حق اسـتغلال الأرض للأهلين فى مجتمع زراعى كمصر انما كان يصدر عادة من الزعيم مقابل تقديم مواد غذائية له أو عوله لمدة أيام معلومة أو مقابل قدر معين من الحنطة أو عدد من الماشية • وكان ذلك النظام سائدا فى عصر الدولة القديمة • وكان على جميع عبيد الأرض (Serfs) الذين يعملون فى المزارع الملكيـة أن يؤدوا الضرائب المقررة ، بيد أنه اذا منحت بعض تلك الأراضى الملكية للمعابد أعفيت من الضرائب التى كان يتقاضـاها الملك ، وآلت الرسوم الى الكهنة ، وأصبحت دخلا لهم ، ويمكن اعتبار تلك الرسوم ايجارا عاديا كائنا من كان الذى يتسلمها ليفلحها • وكانت الضرائب التى تجبى على المحاصيل الزراعية تسمى « مزيدو Mezedu أى العصارة مشبها أياها بالخمر المعصور • وقد أتخذت صورة مواد غذائية كسلال الخضر والمأكولات والأطعمة والخبز وعلف الماشية • وأحيانا فى صورة مؤن ومواد مختلفة تقدم لمكتب تسجيل الضرائب ومقادير من كتان وغزل وحبال • وكانت الضرائب تكون أحيانا من المعادن النفيسه وغير النفيسـه هى اثمان بيع محاصيل زراعية • وان هذه الضرائب لتدلنا على أننا لانكتب هنا عن مجرد عبيد للأرض ولكن عن مزارعين يملكون ما يزرعون • وقد استمر العمل بهذه الضرائب والايجارات الى عصـور متـأخرة • ولذلك يمكن القول

بأنه كان معمولا بها فى كافة العصور التاريخية وربما كان لها أصول فى عصر ما قبل التاريخ •

وان حق استخدام العمال استخداما مباشرا كان لزراعة الأرض الملكية وكذلك لحفر الترع واقامة الجسور (الترابية) • وكان من حقوق الملك أيضا أن يتمتع القائمون على خدمته وخدمة ممتلكاته بالاعفاء المطلق من رسوم المرور فى البحر والبر أى على ظهور الدواب أو السفن • وهو تقليد مألوف فى معظم دول العالم ذات النظام الملكى •

الضرائب فى عهد الأسرة الثامنة عشرة

ولم يترك لنا التاريخ أى أثر نستدل منه على قيمة ايرادات الدولة المصرية فى عهد الأسرة الثامنة عشرة • ولكننا نجد فى مقبرة الوزير « رخميرع » من عهد الأسرة الثامنة عشرة قائمة عن الضرائب التى جبيت من اثنتى عشرة مقاطعة من مقاطعات الوجه القبلى « تقدير حسابات ديوان الوزير » وبعض أجزاء هذه القائمة غير واضحة وقد أختفت معالم الأرقام فيها ، بيد أنه يمكن تقدير الأرقام المفقودة فى مثل هذه الحالات على أساس متوسط ماورد من أرقام فى الأجزاء الأخرى • وبما أن ما تبقى لنا من هذا السجل القيم قد اشتمل على جملة الأتاوات التى أدتها أثنتا عشرة مقاطعة (عدا القدر القليل المفقود) وبما أن عدد المقاطعات فى مصر فى ذلك العهد قد بلغ حوالى واحداً وأربعين فمن الممكن اذا ضربنا جملة الأتاوات المبينة فى

السجل فى أربعة كان الناتج هو جملة ايرادات الدوله وقتئذ ، وهو ما سنبينه فيما بعد ، مع العلم بأن نسبة تلك الجملة الى غيرها من أنواع الضرائب الأخرى ليست من المسائل التى يمكن الجزم بمعرفتها .

لقد ورد الجانب الأكبر من الذهب من الجنوب فأسهم اقليم الحدود النوبية بستين « دبناً » (١) وأسهمت المقاطعات الأربع الواقعه جنوبى مدينة طيبة بأربعة وستين « دبناً » بالاضافة الى خمسة وعشرين « دبناً » أخرى « فى شكل خواتم وحبيبات من الذهب ، على حين أسهمت المقاطعات السبع الواقعة شمال طيبة بثمانية وعشرين « دبناً » فقط عدا اثنين أو ثلاثة « دبنات » من حبات الذهب ، وقد كان من الواضح أن القدر الكبير الذى ورد من الجنوب قد استخرج من مناجم الذهب هناك ، فى حين لم يسهم الذهب المتداول فى المقاطعات الواقعة شمال طيبه بأكثر من أربع « دبنات » عن كل مقاطعة وهذا القدر هو متوسط ما يمكن أن تسهم به كل مقاطعة من الاثنتين والعشرين الموجودة بالدلتا مع اضافة بعض الزيادة تقديرا لثراء منف .

واذن فقد أسهمت كافة أجزاء البلاد فى الدفع الى خزانة الحكومة المركزية بما يقرب من ٣٠٠ « دبن » من الذهب (وتقدر

---

(١) الدبن يساوى ٩١ جراما .

قيمته الحالية بنحو ٤٠٠٠ جنيه) (١) • ويمكننا أن توازن هذا القدر من الذهب وبقية الغنائم التي أستولى عليها المصريون من الدول المجاورة • لقد جلب تحتمس في غزوته الأولى للشام ١٧٨٤ دبناً من الذهب ومن غزوة الحيثيين ٣٢٠٠ دبن ومن « واوات » (٢) من الذهب ٩٠٠٠ دبن تقدر قيمتها بمبلغ ١٢٠٠٠٠ جنيه • وذلك في مدى خمسين عاماً •

واذن فالضرائب من المقاطعات البالغ قيمتها كما رأينا ٤٠٠٠ جنيه في السنة الواحدة تفوق ما أستولت عليه البلاد عن طريق الغزوات الخارجية • ومن المحتمل أن الجانب الأكبر من الذهب الذي رصدته الحكومة للتداول كان من الذهب الوارد عن طريق الغزوات • ومهما يكن من أمر فان جملة هذا الايراد السنوي للدولة كان طفيفا بحيث لم يكن يفي الا بدفع مرتبات موظفي الحكومة المركزية • وعندما أتسع نطاق استعمال الذهب تضاعفت ايرادات الدولة أضعافا مضاعفة (٣) في عهدي الاغريق والعرب • وقد قيل أن التقدير الذي ورد في السجل السابق ذكره انما كان يجبيه الوزير فقط بيد أن ذلك ينطوي على مبالغة كبيرة فهو قدر لا يمكن أن يخصص

---

(١) لاحظ في التقدير اختلاف سعر الذهب الآن عما كان عليه عام ١٩٢٣ وقت صدور هذا الكتاب اذ لا شك ان قيمة الذهب قد ازدادت الان اضعافا .

(٢) «واوات» كلمة مصرية قديمة كانت تطلق على النوبة السفلى اى المنطقة الممتدة من أسوان الى وادي حلفا .

(٣) ذكر المؤلف أنها تضاعفت آلاف المرات وهو قول غريب .

لشخص واحد في الدولة ويحتمل أن هذا المبلغ كان يمثل الايراد المخصص للادارة في الحكومة المركزية •

وكانت الفضة في مصر أندر من الذهب وان كانت قيمتها لم تبلغ شاو قيمة الذهب • وكان مقدار الضرائب التي تجبى فضة ستين دبنا كما كان مقدار ما جبى منها من غزوات الشام ٣٠٠ دبن • واذن فقد كانت الفضة قليلة الأثر في الايرادات العامة وفي التداول •

أما فيما يتعلق بالماشية طبقا لما ورد في السجل السابق ذكره فاننا نجد ٧٠٠ ثورا و ٢٤٠ عجلا صغيرا و ١٢ بقرة فقط • وهذا يدل على أن ذلك العدد من الماشية لم يكن المقصود به أن يضاف الى القطعان الملكية وانما لغرض الذبح • ويرجع السبب في قلة عدد الأبقار الاناث في القائمة الى تحريم ذبحها • وبما أن هذا العدد المحدد من الماشية الوارد في البيان آنف الذكر لم يكن ليسمح بذبح أكثر من ثور واحد أو عجلين صغيرين في اليوم الواحد خلال العام فقد دل ذلك على أن هذا العدد من الماشية كان معدا للاستهلاك المنزلي ولم يكن القصد منه المشاركة في الايراد العام للدولة • وقد ذكر في السجل أيضا ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ حمامة أي بمعدل ٦ أو ٨ حمامات في اليوم الواحد وهو زيادة ضئيلة في المؤونة • ولم يرد في السجل أي ذكر لأوز من أي نوع • ولعل ذلك راجع الى أن هذا الطير لم يكن ينقل من مكان الى آخر وانما كان يربى محليا •

وكانت الأتاوات من الغلال قليلة وقد بلغت ١٤٠٠ رطل من الحنطة و ١٦٠٠ رطل من الشعير لعمل الجعة و ٣٠٠٠ رطل من الذرة (١) وهى جملة قدرها ٦٠٠٠ رطل ، وهذا يدل على متوسط يومى قدره ١٦ رطلا ، ويحتمل أن تلك المقادير القليلة لم تكن الا لبعض الموظفين المحليين الذين كانوا يعطون الأهالى الموردين ايصالات بها وتحتسب مما عليهم من ضرائب ، وقد ورد ذكر مقادير طفيفة من الخبز المصنوع من لب ثمر الدوم ، ومن الغريب أنه لم يرد ذكر للبلح ضمن محتويات القائمة المذكورة ، غير أننا نلاحظ من الصور أن اقليم الحدود ومنطقة دنقلة قد أسهما بعدد من (الغرائر) شدت بحبال من الليف على طريقة تعبئة البلح فى الوقت الحاضر ويغلب على الظن أن محتويات تلك الغرائر كانت من البلح ، وكانت مقادير البلح على أية حال طفيفة جدا ، ولعل انتاج البلح من بساتين النخيل بالمزارع الملكية كان كافيا لسد حاجات البلاد الى حد كبير والظاهر أنه كان هناك عدا ذلك حوالى ٦٠ جرة من عسل النحل ، ولما كان العسل المادة السكرية الوحيدة وقتئذ لصناعة الحلوى وتحلية النبيذ فان هذا العدد من جرار العسل لم يكن كافيا لمنشأة واحدة ،

هذا هو كل ماذكر عن المواد الغذائية والمعادن النفيسة ، ومنه

---

(١) المقصود بهذا الذرة الرفيعة (العويجة) وكانت معروفة فى مصر والعالم القديم أما الذرة الشائعة الآن فى العالم فهى الذرة الشامية ، وهذه لم تعرف الا بعد كشف امريكا .

يتضح أنه لم يكن هناك زيادة عما كانت تتطلبه حاجات الموظفين الاداريين بالحكومة المركزية • بل أن انتاج المزارع الملكية قد أسهم في سد بعض تلك الحاجات • وليس لدينا دليل على تقديم أتاوات كالمدونة بالقائمة للملك خاصــة فيما عدا ما كان يحصل عليه من ضرائب عينية معتادة من الماشية والمحاصيل • ولقد كانت أسلاب الغزوات الخارجيــة هي المورد الذي أمد الدولة بمقادير الذهب والفضة التي استعملت في صنع الزخارف وأدوات الزينة والأواني التي ازدانت بها القصــور الملكية والمعابد • ولم يحدث قط أن اعتمدت الحكومة المركزية في نفقاتها كلهـا على رصيد مركزى • وكان ما يفرض من ضرائب ورسوم يقصد به دفع رواتب موظفي الحكومة المركزية ولا يحمل معنى ما نسميه الآن بالايرادات العامة للدولة • وكانت أهم مصروفات الدولة وهي نفقات الجيش تدفع محليا • وكان هذا الجيش يتألف من أربع فرق وهي : فرقة «آمون» من مجندى الوجه القبلي • وفرقة « بتاح » من منف وفرقة « رع » من جنوبي الدلتا وفرقة « سوتخ » من شمالي الدلتا • ولاشك أن عبء تجنيد هذه الفرق وتزويدها بكافة العتاد اللازم كان يقع على كاهل السلطات المحلية •

تقدير الضرائب

ولقد عنيت الحكومة في عصر الدولة الحديثة بتحسين مركز البلاد وزيادة ثروتها ويدلنا التوسع في تقسيم المقاطعات أقســاما

صغيرة في ذلك العهد على الاتجاه لبذل عناية أكبر للنهوض بالشئون الادارية في الدولة . لقد كانت الحكومة تقوم بتقدير قيمة كافة الأراضي سنويا مع استثناء الأراضي الموقوفة على المعابد . وذلك لتقدير الضرائب المناسبة عليها وهي ضرائب كانت تتفاوت تبعا لارتفاع فيضان النيل ومقدار المحصول الذي تنتجه الأرض ويرجع هذا النظام في تقدير رسوم الضرائب على الأرض وفقا لحالة فيضان النيل الى عهد الأسرة الأولى ، وان لم يكن قبل ذلك . لأن ارتفاع ماء الفيضان كان يقاس بدقة عظيمة تصل الى ٢٠٪ من البوصه . وكان ذلك الارتفاع يسجل في الحوليات (١) الوطنيه سنويا . ومن المؤكد أن هذا التسجيل الدقيق لحالة الفيضان لم يكن ليتم الا لغرض هام وخطير (٢) . ولم تقتصر الحكومات المتعاقبة على تسجيل الأراضي

---

(١) كان المصريون يسجلون الحوادث طبقا لسني حكم ملوكهم فيكتبون الأحداث التي وقعت في حكم ملك سنة بعد أخرى . وكانت هذه الحوليات نوعين :

(أ) حوليات الملوك وهي التي يسجل فيها الفراعنة حوادث حروبهم واحتفالاتهم . ومن أمثلتها حوليات الملك تحتمس الثالث المسجلة على جدران معبد الكرنك .

(ب) والحوليات الوطنية وهي التي كان يسجل فيها أسماء الملوك الذين تتابعوا على حكم البلاد والحوادث التي وقعت في زمن كل منهم . ومن أمثلة هذه الأخيرة حجر «بلرمو» المشهور الذي سجل عليه أسماء الفراعنة منذ عصر ما قبل الأسرات حتى منتصف الأسرة الخامسة مع بيان الحروب والأعياد الملكية والدينية والاحتفالات وتأسيس المعابد والمدن والمباني التي أقامها الملوك . وتسجيل ارتفاع فيضان النيل في كل سنة .

(٢) الغرض من ذلك بطبيعة الحال هو الاستعداد للفيضان من ناحية ولتقدير الضرائب من ناحية أخرى .

عامة بل كانت تسجل كذلك مختلف الضياع وعدد الأفراد الذين يقيمون فى كل منها . وكانت الضرائب بطبيعة الحال عينية . وكانت تبلغ ⅒ المحصول . وكانت تلك الضرائب كما رأينا لا يبعث بها الى الحكومه المركزيه وانما كانت تصرف فى سد نفقات الادارة المحلية والجيش . على أنه كان هناك لون من ضرائب الدخل المهنية يتقاضاها الوزير من الموظفين كل بحسب منصبه . وقد رفع « حور محب » (١) تلك الضريبة وكان يهدف من وراء ذلك الى معاضدة الموظفين المدنيين له واضعاف نفوذ الوزير الذى كان يرى فيه رجلا خطرا على مركزه بعد أن أضمحل نفوذ أتباع « آتون »(٢) وسادت صفوفهم الفوضى والارتباك . وقد قدر حور محب أن مثل هذه الضريبه لن يزيد مع مرور الزمن من قوة هؤلاء الموظفين اذ من الممكن خصم قيمتها من رواتبهم . والظاهر أن ما لجأ اليه هذا الملك

---

(١) ملك مشهور فى التاريخ باصلاحاته . حكم مصر بعد أخناتون وخلفائه الضعاف وكانت البلاد قد عانت من الفوضى الداخلية والفساد والرشوه . فقام حور محب بحملة تطهير واسعة فى الأداة الحكومية وأصدر قانونا يتضمن أنظمة تشريعية واجراءات ادارية منها فرض عقوبات صارمة على الموظفين ورجال الشرطة الذين يضطهدون الفقراء أو يثبت عليهم الرشوة ، وتشجيع الموظفين ذوى السيرة الحميدة ، والاغداق على الموظفين المسئولين ، بالرواتب والعطايا حتى لاتمتد أيديهم للرشوة . ويعتبر حورمحب صاحب الثورة الاصلاحية الأولى فى التاريخ القديم .

(٢) هم الذين اتبعوا الملك «اخناتون» فى عبادة الهة «آتون» (ومعناه القوة المتمثلة فى قرص الشمس) وبعد وفاة هذا الملك اضطهدوا وتشتتوا وقضى عليهم .

كان وسـيلة ماهـرة لنقل هذا الكسب بطريقة بارعة من يد الوزير الى يده •

وكان تقدير الضرائب من اختصاص المفتشين الملكيين الملحقين بالقصر الملكي ، اذ كانوا يقومون بتثمين الأراضي وغيرها من العقارات ويقررون الضرائب المناسبة عليها • وكان النظام المتبع لضبط عملية تحصيل الضرائب يتضمن اعداد تقارير شهرية يبعث بها جميع الموظفين المحليين المختصين الى الوزير متضمنة كافة صكوك التوريد والنفقات ومصحوبة ببيانات عن حالة مياه النيل ، اذ تقرر على ضوئها الضرائب في السنوات التالية • هذا وقد اتخذت كافة الوسـائل والسبل الممكنة لمراعاة الموازنة بين الايرادات والمتصرف وكان من الممكن تدبير النفقات المطلوبة من أقرب مراكز التموين الحكوميـة • وقد كان جميع الغزاة الأجانب ينقلون مقر حكمهم الى مصر وهذا كان شـأن برابرة الأسرتين السـابعة عشرة والثامنـه عشرة (١)

---

(١) يقصد المؤلف بالبرابرة من غير شك الهكسوس الذين غزو البلاد فى فترة الانحلال الذى أعقبت سقوط الدولة الوسطى . اذ كان المصريون يطلقون على الهكسـوس اسماء كريهة كالبرابرة والطاعون والوباء ولكن هناك ناحية غامضة فى عبارة المؤلف وهى انه يقرن حكم البرابرة او الهكسـوس بالاسرتين السـابعة عشرة والثامنة عشرة . لان المعروف فى التاريخ أن حكام هاتين الأسرتين هم الملوك الوطنيون الذين طردوا الهكسوس من مصر وأسسوا الدولة الحديثة . ولاشك ان المؤلف يقصد الاسرتين الخامسة عشرة والسادسـة عشرة وهما فقط الاسرتان اللتان تكونتا من ملوك الهكسوس كما ذكر المؤرخ المصرى مانيتون •

والبوبسطيين (١) الذين أسسوا الأسرة الثانيــة والعشرين والنوبيين الذين وان كان ملوكهم قد بقوا فى « نباتا » (٢) ، الا أنهم أسسوا فى مصر الأسرة الخامسة والعشرين التى كان يتولى الحكم فى مصر فى أثنائها ولى العهد • ولـكن الامبراطورية الفارسية كانت الدولة الأولى التى تغـزو مصر وتفرض عليها جزية ترســل سنويا الى فارس (٣) • وقد بلغت تلك الجزية الســنوية ٧٠٠ وزنة (٤) من الفضة أي ما قيمته ١٦٠٫٠٠٠ جنيه • على أن هذا المبلغ كان طفيفا

---

(١) البوبسطيون هم سلالة الليبيين الذين استوطنوا اقليم الفيوم ثم اغتصبوا ملك مصر وأسسوا الاسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ – ٧٤٥ ق٠م٠) وكان ذلك على يد أحد أفراد سلالتهم وهو الملك «شـشنق» الأول • وقد اطلق عليهم «البوبسطيين» بسبب اتخاذ عاصمة ملكهم «بوبسطه» أو تل بسطه بالقرب من الزقازيق الحالية •

(٢) كان أجداد هؤلاء الملوك فى الأصل مصريين من سلالة كهنة آمون الذين فروا من مصر نحو الجنوب هربا من اضطهاد ملوك الليبيين واستقروا حول نباتا حيث تمكن احفادهم من تأسيس مملكة بلغ من قوتها أن أحد ملوكها وهو الملك «بعنخى» تمكن من غزو مصر والقضاء على الملوك الاجانب الذين كانوا يتنازعون على عرشها ، ولكنه لم يستقر فيها على عادة الغزاة الاخرين بل عاد الى نباتا بعد أن عين أخته «امنرديس» أميرة دينية على طيبة • وظل ملوك النوبة يحكمون من نباتا ويجيئون بين الحين والحين لاستعادة نفوذهم حتى نقل «تانوت آمون» العاصمة من نباتا الى مروى •

(٣) يجدر هنا التنويه بأن الاشوريين سبقوا الفرس فى هذه الناحية اذ تعرضت البلاد لغزوات الاشوريين قبل مجىء الفرس بحوالى ١٥٠ عاما • وخضعت مصر لسلطان « آشور بانيبال » ملك آشور ودفعت له الجزية • ولكن فترة سيطرة الاشوريين كانت قصيرة جدا •

(٤) الوزنة أو «التالنت» اليونانية تساوى حوالى ٢٤٠ جنيها •

بالنسبة لموارد البلاد المصرية ، الا أنه مع ذلك كان يزيد عما أعتاد الوزير المصرى أن يجمعه في العهود السابقة ، هذا بالاضافة الى أنه كان يصرف خارج مصر ، ولذلك لم تنتفع منه مصر ، على أن قيمة هذه الجزية وهي كما رأينا قيمة معتدلة فيها الدليل على أن الضرائب التي فرضها الفراعنة على البلاد في العصور السابقة لم تكن باهظة والا لأتخذت حصيلة تلك الضرائب مقياسا لتقدير الجزية التى فرضها الفرس على البلاد ٠

ثقل الضرائب في عصر البطالمة

على أن عبء الضرائب كان أثقل كثيرا في العهد البطلمي والسجل الوحيد الشامل الذى لدينا عن تلك الضرائب يرجع الى أواخر ذلك العصر الذى لم تكن حالة البلاد فيه مزدهرة ، فقد بلغت جملة ايرادات الدولة أيام « أوليتس » (١) ١٢٫٥٠٠ وزنه من الذهب أى ما يقرب من ثلاثة ملايين من الجنيهات (٢) وكانت مصر أيام حكم الرومان طبقا لتقدير « استرابون » أكثر غنى وايراداتها العامة أعظم قدرا ، وكان الحصول على الايرادات في عهد البطالمة يتحقق بطريقة تتطلب المبالغة التامة في التحرى والاستقصاء

---

(١) «أوليتس» معناها الزمار وهو اسم التهكم الذى أطلقه أهالي الاسكندرية على الملك بطليموس الحادي عشر (٨٠ — ٥٢ ق٠م) والد الملكة كليوباترة بسبب هوايته النفخ في الزمار ٠

(٢) طبقا لسعر الذهب عام ١٩٢٣ ٠

والتفتيش مما أستدعى وجود جيش عرمرم من الموظفين الذين لانفع فيهم للبلاد للقيام بتلك المهمة ، ونجد في الوثائق البردية من عصر « فيلادلفوس » (١) عن الايرادات المتصلة بضريبة الزيت فقط كيف كان يتحتم على الأهلين الالمام بطائفة عديدة من التعليمات والتوجيهات لأداء الرسوم المقررة على حاجاتهم المنزلية من الزيت • فكان المفتشون يدخلون المنازل ويقومون بجرد محتويات المطابخ للتأكد مثلا من أن الزيت الذى يستعمله أهل البيت ليس من الزيت الحر المتداول وانما ينبغى أن يكون من الزيت الخاضع للضريبة • واذا عرفنا أن كل هذا التدقيق تطلبه الفحص عن رسوم سلعة واحدة أصبح من السهل أن تتصور ذلك الجهد الكبير الذى كان ينفق فى التحرى عن كل نوع من أنواع الرسوم والضرائب •

راتب الأراضى

وكانت الضرائب المقررة على الأراضى الزراعية تختلف بطبيعة الحال تبعا لحالة ملكيتها فقد أعفيت أراضى الكهنة من الضرائب بينما بلغت الضريبة على الأراضى التى يملكها المزارعون من المواطنين الأحرار ⅙ جملة المحصول • وكان مستأجرو الأراضى والضياع الخاصة بالملك يؤدون ايجارا كبيرا • وكان على عبد الأرض أن

---

(١) هو بطليموس الثانى وحكم من ٢٨٥ الى ٢٤٧ ق٠م٠

يقدموا الجانب الأكبر من المحاصيل التى يقومون بانتاجها الى ملاك الأرض سواء أكانوا من المزارعين الأحرار أم الكهنة أم الملك .

ضرائب الماشية

وكانت الضرائب تفرض على رءوس الماشية منذ العصور الأولى . ففى عهد الأسرة الثانية اتبع نظام احصاء الماشية مرة كل سنتين . ومن الواضح أن الغرض من هذا الاجراء هو الحصول على نصيب الحكومة كاملا . وفى عهد الأسرة الثانية عشرة كان احصاء الماشية يتم مرة كل سنة وكان « أمير بنى حسن » يحصل على ٣٠٠٠ رأس من الماشية سنويا من مقاطعته كضريبة مستحقة للحكومة . وكانت الضرائب تقرر أيضا على مصائد الأسماك فى البلاد . غير أنه لا يوجد لدينا سجلات فى هذا الصدد الا من عصر الحكم الفارسى . فقد كان ايراد الرسوم على مصائد الأسماك فى بحر يوسف عند مدخله بالفيوم يصل الى « وزنة » من الفضة فى اليوم الواحد . وذلك لمدة ستة أشهر من كل سنة و ⅓ ذلك الايراد بقية أيام السنة . وهو ايراد يبلغ فى جملته ٢٤٠ وزنة من الفضة سنويا . وهذا القدر من الايراد يبدو مبالغا فيه ويصعب تصديقه ولا يمكن تحقيقه الا اذا كان الصيد قد منع منعا باتا على طول مجرى بحر يوسف حتى يمكن تركيز جمع الرسوم كلها فى مكان واحد .

الضرائب في عصر الرومان

وكانت الغاية الأولى من جمع الضرائب أيام الرومان الحصول على أكبر قدر منها لصالح الامبراطور الروماني الذى كان يقيم بعيدا عن مصر • وقد أدت تلك الوسيلة البشعة في مدى قرنين من الزمان الى افقار البلاد وقيام ثورات منها ثورة بوكوليا (١) Bucolic War وقد أستمر هذا الضعف على موارد مصر حتى لتجد أن أحط أنواع العملة المتداولة قد أختفت من الأسواق ورجعت البلاد القهقرى الى طريقة المقايضة البدائية • فلا عجب اذن وقد انحدرت حاله البلاد الى هذا الحضيض أن يرحب المصريون بقدوم الفاتحين العرب بغيه التحرر من قســوة محصــلى الضرائب من البيزنطيين • وكان الامبراطور الروماني الغريب عن البلاد هو الذى يقرر عاما بعد آخر جملة ما ينبغى تحصيله من أهل مصر من الضرائب • وكانت أوامر الامبراطور تبلغ الى حاكم مصر فيبلغها فورا الى حكام الأقاليم الثلاثة وهؤلاء يبلغونها بدورهم الى حكام المقاطعات الذين يجبون الضرائب المطلوبة من القرى •

وكانت أهم أنواع الضرائب ضريبــة الحنطه التى لابد من ارسالها الى روما • وكان على أهــل كل قرية أن يقوموا متضامنين

---

(١) قام بها الفلاحون ورعاة البقر الذين كانوا يستوطنون المستنقعات الواقعه شرق الاسكندرية المعروفة بمنطقة بوكوليا ، وذلك عام ١٧٢ م في عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس •

بنقلهــا من القرية الى مركز التسليم بالاسكندرية • وكانت الأراضى التى لاتزرع حبوبا تؤدى ضريبــة نقدية عن انتاجهــا من الكروم والتين والبلح والزيتون وغير ذلك مما قد تنتجه الأراضى • وكانت السلطات المحلية نفسها تتولى عدا ذلك تحصيل العوائد على المنـازل وغيرها من المنشآت • وقد تعرضت مصر عدا ذلك لمزيد من الضغط والعنف من جانب روما ، فقد كان هنـــاك موظف كبير من قبـــل الامبراطور يســمى • نائب الامبراطـــور Idiologas همه الأكبر أن يرعى مصــالح الامبراطور وأن يطمئن على أن الجهاز الادارى يسير فى البلاد دون أن يعتريه ضعف أو خلل • فقد يكون لدى الحاكم العام من كثرة الأعمال وتنوعها وما قد يتراءى له من مقتضيات الأمن والنظام أو حالة البــلاد العامة ما يحمله على التســاهل فى تحصيل الضرائب المفروضة • فاذا حدث شىء من هذا من جانبه فهناك نائب الامبراطور الذى كان لتعيينه من قبــل الامبراطور مباشرة صـــفة الاســتقلال عن الادارة فى مصر • وقد كان النــائب يكرس وقتــه وجهده فى أمر واحد هو الحصول على المال ولاشىء غير المال ، ودن مراعاة لأية اعتبارات أخرى • وأخيرا نجد أنه عملا بقانون الاصلاح الذى أصدره (دقلديانوس) قد تقرر سحب مهمة تحصيل الضرائب من يد الحاكم العــام وعهد بهــا الى نائب الامبراطور الذى أصبح مستقلا تمام الاستقلال عن الادارة المدنية فى البــلاد • وكان نائب الامبراطور هو الذى يشرف على ادارة الأراضى المملوكة للحكومة

أو لشخص الامبراطور أو المرهونة لقاء ديون مستحقة للدولة • وكذلك على الأراضي التي ليس لها ملاك معروفون • وكان يساعده في عمله موظف آخر يسمي « الديوكيتس » (٢) (Dioketes) ويعمل تحت امرته نفر من الموظفين يحمل كل منهم لقب وكيل • (Epipelropes) وكان من الممكن التصرف في الأراضي التي ليس ملاك بالبيع في أي وقت من الأوقات كما بيعت أراضي الدائرة السنية أيام أسرة محمد علي •

وكانت المحاجر والمناجم في البلاد تعتبر من أملاك الامبراطور الخاصة • وتتولى الحكومة ادارتها وتسخر في العمل بها المساجين تحت حراسة مشددة كما يحدث الآن في محاجر « البازلت » في أبي زعبل شمال القاهرة • وقد أدخل تعديل خاص على اعفاء ممتلكات المعابد من الضرائب • ويحتمل أن تكون الحكومة قد كشفت عن تهرب بعض ملاك الأراضي من الضرائب بالتواطوء مع الكهنة • ولذلك قامت الادارة بفرض الضرائب على أراضي المعابد أسوة بغيرها من الممتلكات على أن تقدم الحكومة في مقابل ذلك بعض المنح للصرف منها على شئون المعابد • وكان من أثر هذا

---

(٢) كان الديوكيتس في عصر البطالمة هو وزير المالية ، وكان يتمتع بسلطات واسعة لأنه كان المشرف الاول بالنيابة عن الملك على الشئون المالية في الدولة. ولكن هذا اللقب تطور في العصر الروماني فأصبحت وظيفة الديوكيتس اقل في المرتبة من وظيفة الحاكم الروماني لمصر ومعادلة لوظيفة نائب الامبراطور ، وصار من مهامه الاشراف على الاشغال العامة .

الاجراء اخضاع الكهنه لنفوذ الحكومة التي هي مصدر ما يتمتعون به من منح والتي كان يعنيها الابقاء عليهم واكتساب وفائهم وتعضيدهم لها .

وقد فرضت ضرائب على حركة المرور في النيل تؤديها السفن المتجهة نحو الجنوب عند ثغر « شيديا » (١) (Schedia) والآتية من الجنوب عند « هرموبولس » (٢) (Hermopolis) وكانت تلك الضرائب شبيهة بالرسوم النهرية التي كان خديوى مصر يفرضها عند مرور السفن بكبارى السكك الحديدية وكان الغرض منها تحويل حركة التجارة الى السكك الحديدية .

وكانت المكوس تفرض على السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر ويتم تحصيلها في مدينة قفط بطريق الالتزام . وكانت

---

(١) شيديا أو سخديا : ثغر نهرى قديم مكانه الآن قرية النشو البحرى الواقعة شمال كفر الدوار . وكانت تقع عند ملتقى ترعة شيديا القديمة التي حفرها البطالمة لامداد مدينة الاسكندرية بالماء العذب بفرع النيل الكانوبى الذى جفه الآن . هذا ويكاد يتفق مجرى هذه الترعة مع مجرى ترعة المحمودية الحالية في جزئها الغربي . كما كانت ترعة شيديا تصب في الميناء الغربيه مكان مصب المحمودية الحالي .

(٢) هرموبوليس : الاسم الاغريقى لقرية الاشمونين الحالية الواقعة شمال غرب ملوى . وكانت في العصر الاغريقى مدينة زاهرة تمتد حدودها حول مساحة كبيرة من الأرض تصل الى النيل . اما اليوم فهى قرية صغيرة تبعد عن النيل . ومعنى اسمها مدينة هرمز وهو اله العلم عند الاغريق الذى يعادل الاله تحوت المصرى معبود هذه المدينة . هذا وكلمة الأشمونين أصلها من الكلمة القبطية «شمون» ومعناها (ثمانية) لأن الاله تحوت كان يعبد مع ثمانية آلهة في هذه المدينة .

فئاتها تعلن للجمهور منعا من ابتزاز أموال الناس • وفي البحر الأحمر كانت ضرائب الرءوس تجبى على البحارة وعلى النساء أيضاً ويبلغ قيمتها عدة شلنات • أما ضرائب النقل فكانت بسيطة • وكانت ضريبة الرءوس تفرض على المصريين بين سن الرابعة عشرة والستين • ويستثنى منها بعض الطبقات التي تتمتع بأمتيازات خاصه كالرومان والاسكندريون وسلالة الضباط الاغريق ممن أستوطنوا مصر وبعض كهنة المعابد • ومن حين لآخر كان هناك الى جانب ضريبة الرءوس نوع آخر من الضرائب سمي « تبرعات خيرية » أو « ضريبة التاج » وكانت في الأصل مساهمه مالية من جانب سكان البلاد لشراء اكليل من الذهب يقدم للحاكم الروماني عند ما يتقلد منصبه الجديد في مصر • ولكن هذا النوع من التبرع الاختياري اتخذ بمرور الزمن شكل ضريبة تشبه ضريبة « بشائر الفاكهة » التي كانت تفرض على زوار الكنائس • وكانت الحرف المختلفه تخضع لضريبة الدخل وتقدر على أساس المتحصلات الشهرية • واذن فقد كانت في الواقع ضريبة مهنية بصرف النظر عن الأرباح الناتجة ولعل هذا الاجراء الشاذ قد شجع القوم على أتباع نظام المقايضة في معاملاتهم اذ لم تكن تلك الطريقة في المبادلات خاضعة لأية ضريبة بل انها في الواقع حلت محل العملة التي تدهورت قيمتها وقتئذ •

وكانت هناك ضرائب على بيع الأملاك بنسبة ١٪ من قيمة

العقار • وعلى التركات بنسبة ٢½ من قيمة التركة • ومثلها عند عتق الأرقاء • ورسم طفيف قدره ٢½ على تسجيل الوثائق الرسمية وكانت الغرامات التي توقع في حالة الاخلال بالعقود المبرمة لاتدفع الى الجانب الذى وقع عليه الضرر وانما تورد الى خزينة الدولة • ولاشك أن هذا الاجراء كثيرا ما شجع طرفى النزاع على حسم الخلافات والوصول الى اتفاق قبل الالتجاء الى المحاكم •

ولقد أدت صعوبة تحصيل تلك الضرائب المتنوعة الى أتباع نظام الالتزام بما فيه من مساوىء ومنها استغلال الأهالى فى الارشاد عن المتهربين من دفع الضرائب • وكان الالتزام معمولا به في عصر البطالمة • ورغم أن هذا النظام كان فى صالح الحكومة الا أنه ادى الى ارتكاب مساوىء مروعة فقد كانت الأطماع والمصالح الشخصية للملتزم الذى كان يستند الى مساعدة السلطات الرسميه تدفعه الى استعمال منتهى الضغط والعنف مع الأهلين لجمع الضرائب•

الفصل الثالث

الحسنات والسيئات

الحسنات والسيئات

ان النصوص التي كان حقا على موتى المصريين القدماء تلاوتها يوم الحساب ، منكرين فيها ارتكابهم لبعض الخطيئات ، ومتبرئين من اقترافهم لبعض السيئات ، لخير بيان عن اعتقادهم فيما كان ينبغي أن يكون سلوك الناس وأخلاقهم • وقد تضمنها الفصل الخامس والعشرون بعد المائة من الكتاب المسمى كتاب الموتى (١) • وقد سميت خطأ الاعتراف الانكاري •

---

(١) كتاب الموتى هو مجموعة لفائف من أوراق البردي تحوى نصوصا وتعاويذ وادعية وصلوات ، كان الغرض منها طرد الأرواح الشريرة عن مقبرة المتوفى ، وتسهيل الطريق له الى العالم الآخر . وقد سمى كذلك للعثور على نصوصه في مقابر الموتى منذ عهد الدولة الحديثة . والفصل الخامس والعشرون بعد المائة من هذا الكتاب يوضح طريقة محاكمة المتوفى على ما قدمت يداه في الحياة الدنيا من خير أو شر ، أمام محكمة العدل الالهية ، التي يرأسها الاله اوزيرس امام الموتى ، وتتكون هيئة المحكمة من ٤٢ قاضيا . وللمتوفى ان ينكر اقترافه اية خطيئة أمامها ، فتكلف أحد أعضائها ان يزن قلبه =

ولقد تعرض فصل « انكار الخطايا » أو اعلان البراءه لكثير من التغيير والتبديل على يد الناشرين والمؤلفين ، فكاتب يعيد ترتيب فصوله ، طبقا لآرائه الخاصة ، ويحذف ما يستعصى عليه فهمه فيها ، وآخر يلتزم ترتيبها الأصلي ، ولكنه يحذف مالا يحلو له .

واليك النص كاملا من غير حذف أو تغير .

وهى مقسمة مجموعات ، عدد فقرات كل مجموعة منها خمس . وقد يكون علة هذا التنظيم تيسير حفظها بالاستعانة بالعد على أصابع اليد الخمسة (١) .

السلوك العام

١ ـ لم الحق ضررا ما بأى انسان .

٢ ـ ولم أعمل على اشقاء حيوان .

٣ ـ ولم استبدل السيئة بالحسنة .

٤ ـ ولم أعرف الشر ، ولم أعمله .

٥ ـ ولم أقدم مصلحتى الخاصة على واجبى .

= بميزان (١) للتأكد من صدقه ، فاذا كان صادقا دخل جنة أوزيريس يستمتع بما فيها مما تشتهيه النفس الى الأبد ، أما اذا ثبت كذبه ، فانه يلقى به الى حيوان مفترس ، يؤتى به لهذا الغرض ، فيلتهمه ، أو يلقى به فى النار .

(١) كان يوزن قلب المتوفى بوضعه فى كفة الميزان ، ويوضع فى الكفة الاخرى ريشة ، فاذا خفت كفة قلبه كان صادقا ، اما اذا ثقلت فيكون من الكاذبين .

العمل الصالح

٦ ـ لم يشكني أحد لرب الأسرة ٠

٧ ـ لم ألعن الآلهة ٠

٨ ـ لم أسع الى اشقاء انسان ، أو أتسبب في فقر أحد ٠

٩ ـ لم ارتكب ما يغضب الاله ٠

١٠ ـ لم أحرض خادماً على عصيان سيده ٠

انكار اقتراف السيئة وارتكاب الظلم

١١ ـ لم أتسبب في مرض أحد ٠

١٢ ـ ولم أتسبب في بكاء أحد ٠

١٣ ـ ولم أقتل ٠

١٤ ـ ولم أحرض على قتل أحد ٠

١٥ ـ ولم أتسبب في حرمان انسان من حق له ٠

الواجبات الدينية

١٦ ـ لم انقص من قرابين المعابد ٠

١٧ ـ ولم أسرق الفطائر المقدسة التي تقدم للآلهة ٠

١٨ ـ ولم أسلب خبز الموتى الأمجاد ٠

١٩ ـ ولم ارتكب الفاحشة في حرم الآلهة ٠

٢٠ ـ ولم أدنس نفسي في حرم الاله ٠

٢١ ــ لم انقص كيل الحنطة •

٢٢ ــ ولم انقص المقياس (راحة اليد) (١) •

٢٣ ــ ولم ارتكب الغش في الحقول •

٢٤ ــ ولم أطفف في الميزان •

٢٥ ــ ولم أتسبب في فقر أحد بالتلاعب في الميزان •

احترام حقوق الآخرين

٢٦ ــ لم اختطف اللبن من فم الرضيع •

٢٧ ــ ولم أطرد الماشية من مراعيها •

٢٨ ــ ولم أقتنص الطيور من رحاب الآلهة •

٢٩ ــ ولم أصد السمك من بحيراتهم •

انكار أعمال التخريب

٣٠ ــ لم أصد الماء في موسم جريانه ، ولم أقم سـدا في مجراه •

٣١ ــ ولم أطفئ شعلة في وقت الحاجة اليها •

٣٢ ــ ولم أخالف الحدود بتناول اللحـوم في غير الأيام المخصصة لتناولها •

---

(١) راحة اليد : مقياس كان مستعملا في مصر القديمة ، يبلغ سبع ذراع اي حوالي سبعة ونصف سم •

٣٣ — ولم أطارد الماشيــة وغيرها من الحيوانات المقدسه •

٣٤ — ولم اعترض على ارادة الله •

وان من يفحص عن هده الوحدات أو الفقرات يتضح له أن بعض المعاني قد تكررت أكثر من مرة ، وان نظام الخماسيات محافظ عليه عدا الفقرة الخامســة في احترام حقوق الآخرين التي أغفلهــا المترجمون لعدم فهمهم اياها ، وأن الفقرتين رقم ١٩ ورقم ٢٠ تشير الى عادات لم تكن متبعة في مصر القديمة ، ولكنها كانت متبعة في معابد بلاد الشام (١) والتي ظلت متبعة حتى وقت قريب في بيت المقدس •

---

(١) كانت بعض المعابد في الشام ، وفي بلاد ما بين النهرين تذخر باعــداد كبيرة من النساء يطلق عليهن «عاهرات المعابد» ، وكن يعتبرن سراري للآلهة أو لكهنتهم ، ولم تكن الفتيات أو أهلهن يجدن في ذلك العمل الشائن عارا ، بل كن وكانوا يعدونه نوعا من الواجبات المقدســة ، وكان الأهل لذلك يحتفلون بالحاق بناتهم في المعابد المقدسة ، لتقمن بذلك الواجب المقــدس .. وكانت عاهرات المعابد كثيرات في غربي آسيا ، فكن موجودات في فريجيــا وفينيقية وسوريا ، كما كن موجودات عند بني اسرائيل . وقد جاء في سفر عاموس من التوراة : أصحاح (٢) آيات ٦ و ٧ مايلي : هكــذا قال الرب من أجل ذنوب اسرائيل الثالثة والرابعة لا أرجع عنهم لانهم باعوا البار بالفضة ، والبائس لأجل نعلين ، الذين يشتهون تراب الأرض على رؤوس المساكين ، ويصدون سبيل البائسين • ويذهب رجل وأبوه الى صبية واحدة حتى يدنســوا اسـم قدسي .

... وظلت الدعارة المقدسة متبعة في بابل حتى ألغــاها الامبراطور قسطنطين سنة ٣٢٥ ميلادية .

هذا ولم يعرف هذا النظام في مصر ، لأنه كان يعتبر رجســا (١) في نظــر المصريين القدماء .

ولقد كان القانون المصرى يعد انقاص كيل الحنطة ، كما فى الفقرة ٢١ أو مقياس الأقمشة كما فى الفقرة ٢٢ ، أو عدم الدقة فى تحديد الأراضى ، أو تقدير الضرائب ، كما فى الفقرة ٢٣ ، أو اخسار الميزان كما فى الفقرتين ٢٤ ، ٢٥ ، كان يعد كل أولئك غشا وتزويرا [1] كما أن معنى الفقرة رقم ٢٨ غامض ، ولعل ورودها فى خماسية احترام الحقوق تشير الى أنها تعنى صيد الطير فى الأراضى المملوكة للآلهة ، التى كان الملوك يهبونها لمعابدهم ..

أما الفقرة رقم ٣٠ ففيها تكرار لمعنى واحد ، لأن صد مياه النهر اعاقة له عن الجريان ، لايختلف معناه عن معنى اقامة سد فى مجراه لحجز المياه أمامه .

وان هذه الخماسيات السبع كانت بمثابة محظورات - بحكم الدين والقانون - يتجنبها المتقون الذين كانوا يحرصون على أن يلقوا أوزيريس رب يوم الحساب وصحيفتهم بيضاء من غير سوء !

ولقد كان لحكمائهم حكم ونصائح وأمثال ، لا تتصل بالحقوق المفروض مراعاتها ، كما هو الحال فى الخماسيات ، قدر اتصالها بآداب السلوك وسياسة الناس ، وإماتة الضغينة والحقد فى قلوبهم ، وتوجيههم الى الطريقة المثلى لمعاملة بعضهم بعضا ، ولاترقى الى أن

---

(١) يقول هيرودوت : لقد كان المصريون اول من فرضوا على الرجال أن يغتسلوا بعد قربهم للنساء . وكان جميع الشعوب عدا المصريين واليونانيين يأتون الفاحشة ، ويدخلون المعابد دون أن يغتسلوا .

تكون أوامر ونواهي يلتزمها الناس كالحماسيات ، ولكنها مبادىء سامية ، اذا احتذاها الناس رفرفت عليهم السعادة والهناء وخلو البال ومن أشهر حكمائهم ـ أن لم يكن أشهرهم جميعا ـ بتاح حتب(١)، الذى عاش فى عهد الأسرة الخامسة ، وان حكمه ونصائحه لتبين عن السلوك السوى من وجهة نظر المصريين فى زمانه واليك بعض نصائح بتاح حتب :

١ ـ لا تنغمس فى مظاهر الثراء الذى أنعم الله به عليك ..

٢ ـ اذا أردت أن تكون أعمالك محمودة فتجنب الشرور ، واحذر نزعات الجشع والطمع .

٣ ـ لا يغرك بغزارة علمك الغرور ، وتحدث مع الجاهل والعالم على السواء ، فان العلم بحر لا ساحل له ، ولا يستطيع لذلك أحد أن يبلغ مداه ، وليس هناك أحد يحيط بكل شىء علما ، فيعرف كل ما ينفعه وما يضره .

---

(١) ان حكم بتاح حتب ونصائحه مكتوبة على ١٨ صفحة من ورق البردي، وتعرف باسم بردية برس نسبة الى الاثرى Prisse الذى اذاعها سنة ١٨٤٧ م - وقد كتب بتاح حتب هذه الحكم والنصائح وهو وزير الملك اسيسى احد ملوك الاسرة الخامسة ، ولقد كتبها وله من العمر ١١٠ سنة لتكون هاديا ومرشدا لابنه الذى كان بعده لان يتولى وظيفته بعد وفاته ... ولقد كانت هذه الحكم والنصائح تدرس فى ذلك العهد وبعده فى المدارس .. وكان التلاميذ يكتبونها على قطع من الخزف او على الواح ملساء من الحجر ، وذلك لغلاء الورق البردى آنذاك ..

وكان للصدق مكانة عظيمة عند قدماء المصريين ، ويتبين ذلك من كثرة عدد كهنة الالهة « معات » الهه الصدق (١) ، اذ كانوا أكثر عددا من كهنة الاله بتاح أقدم آلهة المصريين القدماء وأعظمهم (٢) وان هذا التمجيد لالهة الصدق .. لدل على مدى ما للصدق من أثر عميق في نفوسهم .

ولقد كان المصريون القدماء يحرصون على نيل رضى الآلهة ، وادخال السرور عليهم باتباع السلوك القويم ، وتمسكهم بالأخلاق

---

(١) كانت معات الهه الصدق والعدل تمثل على هيئة امرأة على رأسها ريشه . وعند وزن قلب المتوفى أمام محكمة أوزيريس كانت هذه الريشة توضع في احدى كفتي الميزان كمعيار للصدق ويوضع القلب في الكفه الاخرى . فاذا تبين أن القلب أثقل من الريشه دل ذلك على صدق المتوفى ، فتبرئه المحكمة من الخطايا ، واذا حدث العكس كان ذلك دليلا على كذبه واقترافه للخطايا التي انكرها . فتحكم بأنه مذنب وأمرت بذهابه الى النار .

(٢) بتاح من أعظم آلهه المصريين ، ومن أعلاهم مقاما ، ان لم يكن أعظمهم جميعا ، لانه أقدمهم ، فكان المصريون يلقبونه لذلك بالمادىء الذي انبعثت منه جراثيم الاشياء ، والذي قدر أرزاق الاحياء ، والخالق الذي خلق الانسان من طين .. وانه ناشر الأموات يوم القيامة ، ليحيوا الحياة الأخرى الأبدية .

... ويرى الأستاذ المؤرخ الكبير آرثر مي أن المصريين أول من اهتدوا الى الله ، وأول من اشترعوا شريعة تقربهم اليه ، وان معتقداتهم الدينية كانت الحلقة الاولى في اتجاه العقيدة الصحيحة التي تأثر بها من جاءوا بعدهم من علماء البشرية ، ولقد استطاع عقل اولئك المصريين أن يلهمهم بأن لهم حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، وأنهم محاسبون حسابا دقيقا ... عن أعمالهم في حياتهم الأولى ، حينما تتجرد أرواحهم من هياكلها المادية لتخلد هنالك في برازخ الأبدية ، بحيث تجزى أرواحهم بالخير خيرا ، وبالشر شرا . ترجمة حامد القصبي .

القويمة ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن التمتع بالسعادة والهناءة بعد الموت يتوقف على أعمالهم فى الحياة الدنيا . ولقد أدت تلك العقيدة بدورها الى الاعتقاد بأنه لابد من تقدير أعمال الانسان قبل أن يتقرر استحقاقه لصحبة الآلهة ! ومن هنا نبتت فكرة محاسبة المرء على أعماله فى الحياة الدنيا أمام الاله أوزيريس ، فاذا ما مثل الميت أمامه ، خاطبه ومن يحفون حوله من آلهة صغار بقوله :

سلام عليكم يا أرباب العدل الجالسين حول أوزيريس ، والقادرين على غفران الخطايا والذنوب . أعيرونى آذانا صاغية : لقد سعيت اليكم فامحوا جميع خطاياى (كتاب الموتى ١٧ ، ٨٤) .

ولم يكن دعاؤه هذا للتدليل على حسن سلوكه وعدم ارتكابه للمعاصى فحسب ، ولكنه كان فوق ذلك رجاء لتطهيره وتبرئته ... وهو اعتراف بأن المرء لاينبغى له أن يعتمد على أعماله الطيبة فقط ، بل هو فى حاجة الى عون الآلهة وغفرانهم .... ولقد كان المصرى يشعر شعورا قويا بقيمة متانة الخلق وضبط النفس فى معاملاته للناس ! وكان من تعاليم الآباء للأبناء ، والمعلمين للتلاميذ ، والحكماء لعامة الناس : أن ليس هناك مجال للانحراف أو التردد اذا ما حزم المرء أمره على انتهاج خطة معينة . وكان يرون أن العقل الثابت الرصين غير المتردد منحة سماوية وكان مما يفخرون به قولهم :

« لم أستسلم الى الهم والضنى والقلق الشديد ، ولست من ذوى الحدة أو التردد .

وكانت الحكمة والاتزان والهدوء من السجايا التى كانوا يرون أنه من الواجب أن يتصف بها الناس جميعا • ومن أقوالهم : اذا كان خصمك أحمق أخرق كثير الصخب ، فخير ما تفعله أن تلتزم الهدوء ، وتتغاضى عن سخافاته وتفاهاته ! واذا عاملت أكفاء وأندادا ، فتجنب الغش والخداع ، وتغاضى عن هفواتهم وذلات ألسنتهم (١) ، واحرص على صداقتهم والتودد اليهم ، وبش فى وجوههم حين تلقاهم (٢) ، واطرح البخل والتقتير ظهريا •

أما لمن هم أعلى مقاما فكانوا ينصحون بالاذعان لهم وطاعتهم ، وبألا ينسوا الزلفى لهم والتقرب اليهم بشتى الطرق ، والتوسل اليهم بأتباعهم •

أما من هم أقل منزلة ، فكان يرى معاملتهم بالعدل والاحسان، من غير مس يقتل الحسنات ، أو تذكير بما قدم لهم من عوارف أو نعم • وكان التكبر عليهم ونهب أموالهم ، ونهرهم أو استعمال العنف معهم من الأمور المذمومة •

ومن نصائحهم :

لا تكن ثرثارا ، فان الناس يصمون آذانهم عن الاصغاء لكثير

---

(١) فى الأصل نهى عن ظلمهم ، وعن عدم السماح بتعذيب أحد •• وهما أمران لا يستقيم مستاهما فى معاملة الأكفاء •

(٢) فى الأصل يزعم المؤلف ان المصريين كانوا يرون أن الصداقة فيها منافع جمه ولذلك كانوا يحرصون عليها لنفعتها لهم ، لا لأنها فضيلة • ولأجل هذا كان ينقصها الاخلاص •

الكلام •••• والتزم الصــــمت يرض عنك النـاس ، ويحمدوك ! واذا ما تكلمت فتخير ألفاظك ، لأن هلاك المرء قد يكون في عثرة من لسانه •

وعلى الرغـم من أن المصريين القـدماء كانوا يحضـون على المثابرة على العمل والجد فيه ، فان مطالب الحيـاة ورغبات النفس لم تـكن عندهم موضـع كبت وحرمان • ومن أقوالهـم المأثورة في ذلك :

ان من يعمل النهار كله ، لا ينعـم بلحظة ممتعـة واحدة ، كذلك الذي يقضي يومه كله في اللهو واللعب ، فانه لا يجد قوت يومه ! وان الرامي الماهر لا يصيب هدفه الا بشده القوس واطلاقه ، كما يفعل ربان السفينة بالسكان ليصل الى المـكان الذي يريده • وان من يطيع قلبه يعلو ويسود ، فاستمع الى نداء قلبك ، ولا تعص له أمـرا ، فان من الموبقـات عند النفس « الكا » أن يغفل ما تومى به ! ولا ينبغي أن تسترسـل في العمل بعد حصـولك على ما هو ضروري لسد حاجات بيتك • وعندما تحصل على ذلك فاتبع نداء القلب ، لانك اذا كنت متعبا منهوك القوى ، عز عليك أن تستمتع بما حصلت عليه الاستمتاع كله ، لأن الثروة التي يجمعها الانسان بجده واجتهاده ، ليست الا وسيلة لاسعاد النفس وهنائها ، وليس

على المرء بعد ذلك الا اكرام الناس ، وحسن ضيافة الطارق الغريب، والمحروم منهم بخاصة .

ومما يسترعى النظر أنه لم يرد في النصوص الانكارية حقوق أفراد الأسرة وواجب المنكر نحوهم ؟ وان الاشارة الوحيدة فيها عن الزواج هي أنه لا ينبغي أن يخالف فيه أوامر الدين ونواهيه ! أما في العصور الأخيرة فقد كانت الجرائم الجنسية مستنكرة في قائمة الخطايا . ويبدو أنه لم يكن لأفراد الأسرة الواحدة من الحقوق والواجبات قبل بعضهم بعضا غير ما كان لهم منها نحو أفراد الأسر الأخرى . وليست هناك أية اشارة في أي عصر من العصور الى الفروض الواجبة نحو الاخوة والأخوات وأبناء الأعمام والأخوال وبناتهم ، وأن وشائج القربى والروابط العائلية لم تكن أبدا فيما يبدو قويه كما كانت في الأقطار الشمالية (١) . ومع ذلك فقد كانت العلاقة بين الآباء والأبناء قوية جدا والحقوق والواجبات بينهم مراعاة ...

ويبدو أن النصوص الانكارية أقدم عهدا من دستور الزواج، اذ ليس فيها الا اشارة واحدة الى الرباط الزوجي الدائم الذى ساد المجتمع المصرى فيما بعد ألا وهو عدم اشتراط الحصول على تصريح ديني لاتمامه ، ذلك التقليد الذى كان متبعا في معظم الأقطار

---

(١) يقصد بالاقطار الشمالية الأقطار الأوربية .

الاسيوية . أما فى مصر منذ العصور الأولى حتى عهد الأسرة التاسعة عشرة ، فقد كان الزوج ينظر اليه كأنه نزيل مقيم فى منزل سيدة (١) .

ولا أدل على ذلك من أقوالهم المأثورة التى نحتزى منها ما يأتى :

لا تكن فظا غليظ القلب لسيدة فى منزلها ، ولا تشر الى شئ ثم تقول لها : ما هذا ؟ ائتنى به ، عندما تكون قد وضعته فى مكانه ، وأنت تراه بعينى رأسك فيه ... انك عندما تلتزم الصمت تكشف عن سجاياها ، وان من تمام سعادتك أن تعاون يداك يديها .

وتتمثل قوة الرابطة الزوجية فى تلك القصة القديمة للتمساح السحرى (٢) ، فقد حكم على الزوجة الخائنة التى أهدرت

---

(١) قد يبدو هذا غريبا لنا ولكنه يعتبر شيئا منطقيا فى مجتمع قائم على نظام الأمومة ، لقد كان المصريون القدماء ينتسبون الى أمهاتهم ، وكانت البنت الوارثة المفضلة لأملاك والديها ، فكانت ترث المنزل والأثاث والأراضى الزراعية وما عليها . ولهذا السبب كان الاخوة يتزوجون بأخواتهم حتى يحصروا الميراث فى الأسرة ، ولهذا السبب كان الزوج يعتبر شيئا دائما فى منزول الزوجة .

(٢) مجمل القصة أن زوجة لأحد رؤساء المرتلين لأحد فراعنة الدولة القديمة أحبت أحد الفتيان فأرسلت اليه خادمتها بهدية فاخرة وتدعوه ليقابلها فى حديقة بيتها ، فلبى دعوتها ، وكان يوافيها فى الحديقة ، ويظلان يمرحان حتى المغيب ، وكان الفتى يسبح فى البحيرة التى فى الحديقة ، فرآه حارسها فأخبر سيده بما يجرى ، ولما علم الزوج بذلك ، وكان ساحرا ماهرا ، صنع من الشمع ما على هيئة تمساح ، وأعطاه للحارس الامين ، وقال له : خذ هذا معك الى الحديقة وحين ترى الفتى يسبح فى البحيرة ، ألق التمساح

كرامتها مع أجنبي في الحديقة بالموت حرقا من غير أن يكون في ذلك العهد الواغل في القدم نص على ذلك العقاب في قانون متبع آنذاك ، على الرغم من أن الموت حرقا كان عقابا للخيانة الزوجية فيما تلاه من عهود .

ويستخلص من الأقوال المأثورة في عهد الأسرة الخامسة أن العرف كان يجيز أن يتصل رب الأسرة اتصالا غير شرعي بأية امرأة من نساء الأسرة ، من غير أن يسيء ذلك الى سمعتها ، ولا يحط من قدرها بين الناس .

على الرغم من أن النص الكهنوتي لقائمة التبرء من الخطايا

في الماء وامره بأن يقبض عليه ويمكث به في قاع البحيرة . وفعل الحارس ما أمر به . وانقلب التمساح الصغير من الشمع تمساحا ضخما قويا قبض على الفتى بنواجذه وجره الى قاع البحيرة .

وذهب الزوج الى فرعون وقال له : هل أدلك على عجيبة من أعاجيب أيامك السعيدة !

قال الملك : نعم

فسار الزوج بصحبة الملك في ركب حافل بأتباعه حتى وصلوا الى البحيرة ، ونادى الزوج على التمساح فخرج وبين فكيه الفتى فأمره أن يتركه ، فما كاد يتركه حتى حال التمساح الهائل لعبة صغيرة على هيئة تمساح من الشمع ووقف الفتى كاسف البال مطرقا من الخجل .

وسأل الملك الزوج عن خطب الفتى ، فقص عليه قصته مع زوجته !

فقضى الملك على الفتى بأن يلتقمه التمساح ، فألقى في الماء وألقى وراءه التمساح ، وكان ذلك آخر عهده بالدنيا ، وقضى على الزوجة الخائنة بأن تحرق حية ، فحرقت جزاء وفاقا لخيانتها زوجها .

الذى يرجع تدوينه الى العصور الأخيرة فيه ذكر لقانون الزواج ، وتأكيد لحقوق الزوج على زوجتـه ؟ على الرغم من ذلك فقد كانت الذرية تنسب الى الأم ، كما سبق أن ذكرنا ، وكان للخـال منزلة هامـة فى الأسرة تفوق منزلة العم . كمـا كانت جميع العقارات الثابتة ملكا للزوجة ! وكان الزوج اذا ورث منزلاً مثلا من أخ له أو اشتراه من ماله الخاص ، يسجله فور ايلولته اليه باسم زوجته ، على أن يؤول الى أولادها فى الوقت الذى تراه .

على أن النظام الأبوى أى النظام الذى يكون بمقتضـاه الأب رب البيت ، والمهيمن على شـئونه والمالك للثروة ، واليه ترجع أموره ، واليه ينسب البنين والبنـات ! ان ذلك النظام أخذ يظهـر وينتشر ويخضع له الناس ويتبعونه فى عهد الدولة الحديثة ، وفى عهد الأسرة التاسعة بخاصة ، نتيجة للتأثيرات السامية ! ولكن تملك المرأة لمعظم ثروة الأسرة استمر متبعاً الى ما بعد ذلك العصر بزمن طويل ، ولايزال باقيا فى بعض جهات مصر حتى وقتنا هذا ! ففى صحراء سينا لاتزال المرأة هنـاك تملك الخيمة (١) وقطعان الغنم ، وتملك ثروة الأسرة النقدية فى برقعها !

ولقد كانت الهيئة الحاكمة فى مصر القديمة تشعر شعورا قويا بضرورة حماية المحكومين ورعايتهم والسهر على مصالحهم ومعاملتهم

---

(١) يذكر المؤلف ان الرجال من بدو سيناء ينامون تحت ظلال الصخور ، ولا ينامون فى الخيام ابدا .

بالعدل والاحسان • وكان الوازع لهم فى ذلك متانة أخلاقهم •

وكثيرا ماكان الحكام يدونون فى مقابرهم ما كانوا يقومون به من أعمال البر والاحسان الى رعاياهم ، راجين من الآلهة تقديرها ، ومثوبتهم عليها •

ومن أمثال ذلك قول أحدهم :

لقد أعطت الخبز للجائع ، والكساء للعارى ، وأفسحت مكانا فى زورقى لأولئك الذين لا يستطيعون العبور لأمر من الأمور • ولقد كنت أبا لكل يتيم ، وزوجاً لكل أرملة ، وحمى من الريح الصرصر للمقرورين ، وجار اللاجئين ، وأماناً للخائفين •• وكنت أتكلم بالخير ، •• ولقد جمعت مالى بالطرق المشروعة العادلة •

ومن أقوال آخر :

عندما ظل النيل منخفضاً خمسة وعشرين عاماً ، ولم تكن مياهه تفى برى أراضى الأقليم الذى كنت أحكمه ، استوردت لأهله الحنطة من الجنوب فى أثناء تلك السنين العجاف ، فلم يحل لذلك بربوعه جوع ولا بؤس ولا شقاء حتى جاءت السنون الخضر فى اثر فيضانات النيل الغامرة •• ولقد كنت أطعم الأطفال بيدى ، وأواسى الأرامل ، ولم أترك فى عهدى فقيرا بائساً محروماً • ولقد

عملت جاهدا على كسب محبة الناس بالحق ، ليعلو بينهم ذكرى ، وينوهون بشأنى ، وأجازى على أعمالى الخيرة فى الآخرة ..

وهذا يدل على أن الوازع الدينى لارضاء الآلهة كان السبب المعترف به .. للقيام بعمل الخير .

ولقد كان الشعور بالعدالة بين الناس قويا عند المصريين القدماء ، وان كلمة « معات » (١) لم يكن معناها العدالة المعنوية فحسب ، ولكن كانت تدل على العدالة العملية . ولم يكن يكتفى .. بمعرفة الحق واتباعه ، ولكن كان ينتظر ممن يعنيهم الأمر اظهار المودة والعطف على من يستحقونهما .

ومن أقوالهم فى ذلك :

اذا كنت قاضيا فرحب بالاستماع الى من يتقدم اليك بظلامة ، وشجعه على أن يفضى اليك بما عنده ، ودعه يفصح لك عما فى قلبه ، وان بشك فى وجهه واظهار العطف عليه يحملانه على قول الصدق والاعتراف بالحق ولو كان فى غير مصلحته ! .. وان من سمو الأخلاق وحسن التربية الأصغاء له فى حلم وسماحة وعطف .

---

(١) كانت العلامة الدالة على هذه الكلمة «معات» معناها الصدق ، كما سبق أن ذكرنا ، وكانت توضع فى مكان بارز فى دور القضاء ، ودور الحكم ، وفى المنازل وفى المقابر ! وهذا دليل قاطع على تمسك المصريين القدماء بالصدق والعدل .

ولم يكن ثمة أدعى لحسن نية المصريين القدماء فى كل العصور ، وطاعتهم لأولى الأمر منهم ، والعمل بنصائح حكمائهم من الحكم بينهم بالعدل والقسطاس ، واعطاء كل ذى حق حقه .

ولقد كان من نصائح ملوك الأسرة الثامنة عشرة لوزرائهم حين ما كانوا يتولون مهام مناصبهم التزام العدل المطلق بين الناس جميعاً ! لا فرق بين غنى وفقير ومالك ومملوك ! وألا يمالئوا الأغنياء ، لأن الناس اذا ما اختصموا سواسية وان الميل الى أحد المتخاصمين رجس عند الآلهة .

ولقد كان التفانى فى التمسك بالصدق شعار اخناتون العاهل المثالى (١) ، الذى أضاف الى ألقابه ، الجملة الآتية « الذى يحيا فى الصدق وللصدق » .

---

(١) اخناتون هو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، حكم مصر وهى فى قمة عزها وأوج مجدها وقد ورث ملكا عريضا مؤثلا ، ولكنه انصرف عنه الى التفكير فى الكون وموجده ، فاهتدى الى أن هناك الها واحدا يسيطر على هذا الكون ، وأنه خالق كل شيء ! وتتمثل قوته أكثر ما تتمثل فى الشمس أقوى الكائنات فى اعتقاده ، لذلك اتخذ قرصها رمزا لالهه الواحد القهار وسماه «آتون» . وألغى عبادة جميع الأرباب والآلهة التى كان يعبدها المصريون القدماء وغيرهم من الأمم الأخرى ، وعلى رأسهم الاله آمون رع أقوى تلك المعبودات ، وبذلك أثار سخط أقوى طوائف الشعب المصرى ، الا وهى طائفة الكهنة ، وأخذوا يكيدون له ، فلما ضاق بهم ذرعا شيد عاصمة جديدة له فى مكان قرية تل العمارنة الحالية ، وانتقل اليها هو ووزراؤه ومحبوه والمتحمسون لدينه الجديد ، تاركا طيبة عاصمة الامبراطورية ومقر عبادة آمون رع ! وسما عاصمته الحديثة اخيتاتون أى افق آتون . وكان دين اخناتون يتمثل فى حقيقتين

ولقد ظل شعار المحاكم المصرية التمسك بالعدل المطلق بين الناس حتى آخر عصر البطالمة • وفى ذلك يقول المؤرخ المعروف ديودورس الصقلى :

لقد كان البطالمة يولون المحاكم اهتماماً خاصاً ، ويعنون بها عناية فائقة لاعتقادهم أن اللوائح والأحكام التى تصدرها ذات أثر فعال فى أخلاق الأفراد وسلوك الجماعات ، وذات أهمية بالغة للصالح العام •

ولقد كانوا يعتقدون أن خير وسيلة لتقويم الناس توقيع العقاب فى الوقت المناسب على المسيئين والمذنبين ، ورفع الحيف والظلم عمن وقع عليهم أحدهما أو كلاهما •• الى أن يقول :

---

(١) الوحدانية

(٢) الحقيقة

ولقد بلغ من تمسكه بدينه الجديد وايمانه به ، والتعصب له أنه محا أسماء آلهة المصريين جميعهم وآمون بخاصة ؛ والمنقوشة على آثار الملوك الذين جاءوا قبله ، من معابد وقصور ! وكان يمحو كلمة آلهة من النصوص لأنه — فى اعتقاده وملته — لا يوجد الا اله واحد •

وبعد وفاة اخناتون عاد خليفته وزوج ابنته توت عنخ آتون الى طيبة تحت ضغط كهنة آمون ، والغى عبادة آتون ، واستبدل اسم توت عنخ آمون باسم توت عنخ آتون •

وقد تعقب كهنة آمون اتباع دين اخناتون ، وقضوا عليهم ، فهجرت تل العمارنة أو اخيت آتون ، وعفا عليها الزمن •

وهكذا انتهت تلك الفترة القصيرة اللامعة فى تاريخ مصر ، وضاعت فى غمار التعصب والرجعية ارقى مرحلة فى التفكير الدينى واسماها الا وهى الوحدانية

ان البطالة كانوا يرون بنافذ بصيرتهم أنه اذا قدر للأحكام التى يصدرها القضاة على المخالفين للقانون أن ترفع بالرشوة ، أو بالحظوة أو المودة فلن يكون هناك سوى الفوضى والاضطراب فى المعاملات وفى النظم البشرية كافة •

ولا يوجد بين أيدينا لسوء الحظ الا نصوص قوانين كانت مطبقة فى مصر القديمة فى عهود تاريخها الطويل المتأخرة •

ويشير كلمنت (١) الى ثمانية كتب للقانون لم يعد لها وجود الآن •

ويتبين من منظر لاحدى محاكم العدل فى الأسرة الثامنة عشرة وجود أربع اخونه وضع على كل منها عشرة ملفات (٢) • ويبدو من ذلك أن القانون كان قد نسق ورتب أحسن ترتيب من قبل •

وتنسب القوانين الخاصة بالملكية الى الفرعون يوكوريس (٣)•

---

(١) كلمنت مؤرخ اسكندرى عاش فى أواخر القرن الثانى الميلادى •

(٢) قراطيس من البردى •

(٣) يوكوريس هو الاسم اليونانى للفرعون «باك — ان — رن — اف» الذى حكم حوالى سنة ٧٢٠ ق • م • وهو أحد ملوك الأسرة الرابعة والعشرين • وقد ذاعت شهرته بسبب القوانين التى سنها ، وفى أثناء حكمه غزا الاثيوبيون مصر واستولوا على الوجه القبلى ، وقد تصدى لهم يوكوريس ولكنهم هزموه ، وقبضوا عليه وحكموا عليه بالموت حرقا ، وبوفاته سقطت مصر كلها فى أيدى الاثيوبيين •

ومما جاء فيهما أن الدائن الذى لا يستطيع أن يبرز سندا مكتوباً تسقط كافة حقوقه في المطالبة بدينه ، وأن التسلف بفائدة بعقد مبرم بين الدائن والمدين لاينبغى أن تربو فيه الفائدة على جملة المبلغ المقترض ، مهما طالت مدته •

وأنه يجوز للدائن أن يستصدر حكماً بالحجز على المدين وفاء لدينه ، ولكن لايجوز بحال حبس المدين لعدم سداد ما عليه من دين • ولكن كانت عقوبة التأخير في سداد الدين في موعده شديدة ، فقد كان منزل المدين يرهن ضماناً لقرض قدره ست أوقيات من الفضة فاذا لم يرد القرض كاملاً بعد حلول الموعد المحدد بشهر على الأكثر كانت تفرض على المدين غرامة تساوى المبلغ كله أو المتبقى منه بعد سداد بعضه مرة ونصف المرة •

وفي عهد أخناتون كان يوجد قانون دولى للملكية ! وآية ذلك أن ملك ألاشيا (١) طالب مصر بأموال وممتلكات أحد رعاياه الذى جاء مصر ومات فيها ، لأسرته في ألاشيا • وقد اصدر الملك أمازيس (٢) قانوناً يحتم على كل شخص أن يقدم اقرارا في كل سنة مبينا كسب عمله ووسائله • واذا لم يقم باعداد هذا الاقرار

---

(١) الاشيا هى جزيرة قبرص • وهى تسمية اشورية لها •

(٢) أمازيس : الاسم اليونانى للفرعون احمس الثانى احمس قراعنة الاسرة السادسة والعشرين •

بأمانة عرض نفسه للحكم عليه بالاعدام • وكان ذلك القانون ينص على كافة التزامات الشخص ، ويفصلها بدقة •

وفي عهد الأسرة السادسة والعشرين وهي الأسرة التي ينتمي اليها الملك أمازيس كان الشخص اذا اثقلته الديون نتيجة لما انفقه في أثناء مرضه أو في غير ذلك من الأزمات التي يتعرض لها ، ـ كان عليه أن يبرم عقدا مع الدائن يصبح بمقتضاه هو وأولاده الموجودون آنذاك ، والذين سوف يولدون بعد ذلك ارقاء له يعملون تحت امرته حتى يوفون دينه ، على أنه لم يأت ذكر لزوجته •

وترجع أقدم وصية عرفت في تاريخ مصر القديمه الى عهد الأسرة الثانية عشرة (١) • ومن الواضح أنها كانت موضوعة تبعاً لنظام مستقر موطد ، يفرض تسجيل كل وصية تسجيلا رسميا •

وسوف نبحث موضوع الوصايا بالتفصيل في الفصل الخاص

---

(١) لم تعد وصية الاسرة الثانية عشرة هي أقدم وصية ، فقد عثر في الحفائر الحديثة على عدة وصايا ترجع لعصور أقدم نبينها فيما يلي :

(أ) وصيتان ترجعان الى عهد الأسرة الرابعة : ففي الوصية الأولى يوصي الوزير نيكاورع بأملاكه الى افراد أسرته . وفي الثانية يوصي تنتي بمال قد آل اليه من والدته الى زوجته واخيه .

(ب) وصيتان ترجعان الى عهد الأسرة الخامسة احداهما صادرة من تكمنخ وفيها يوصي بضيعاته الى زوجته واولاده ، والثانية صادرة من «وب ـ ام ـ نفرت» الى ابنه «ايبي» وهذه الاخيرة ذات اهمية بالغة لدقة تسجيلها ووضوحها ، وقد كشفها العلامة الاستاذ سليم حسن في الجيزة ونشرها في كتابه :

Excavations of Giza, Vol. II, p. 190.

« بالحياة العائلية » ويلي ذلك فترة طويلة لم نعثر فيها على أية وصية حتى العصر الاغريقي ، وفيه نجد وصايا تركها بعض كبار المحاربين الاغريق في عهد بطليموس الثالث : وكانت العادة المتبعه عند تحرير تلك الوصايا أن يعين الملك منفذا لها أو بمعنى آخر محكمة القضاء الملكية .. وكانت أوصاف الموصى تذكر بالتفصيل ؟ ففي احداها دون ما يأتي :

انه (أي الموصى) يتمتع بعقل سليم وفهم جيد ، وأنه يبلغ حوالى الثمانين من عمره ، وأنه قصير القامة ، له أنف أقنى وعينان براقتان ، وأنه أصلع الرأس ، وذو أذنين طويلتين ، كما كانت تذكر أوصاف أربعة ممن شهدوا تحرير الوصية واليك نص احدى الوصايا :

لقد أوصى (١) (فلان) بكل ما ملكت يداه الى « اكسيوزيا » ابنة « ديزولوس » وهي سيدة من اقليم تراقيا باليونان . وختم وصيته بقوله :

ولا أترك شيئاً لمخلوق آخر . ولم يذكر في الوصيه عما اذا كانت زوجته أو قريبة له .

---

(١) توجد وصية اخرى من عهد الأسرة الثانية والعشرين . وفيها يوصي الكاهن الاكبر «يوديشة» لابنة «خا ــ ان ــ وابتة» . ولابن ابنه من بعده بخمسمائة وستة وخمسين أرورا من الأراضي الزراعية وما عليها من أبقار وأنعام أخرى وآبار وأشجار .

وقد وصفت القوانين الخاصـــة بالأراضي الزراعية في عصر مبكر • وقد دعا الى ذلك تلك التقـاليد التي كان يتمسـك بهـا المزارعون البدائيون لضرورتهـا لهم • فكان رئيس القبيلة (ولعله يقصـد شـيخ القرية) هو مالك الأرض • وكان عليه أن يمنح الأرض لمن يعمل فيهـا ، على أن تعـود الى حوزته في حالة وفاة الشخص بدون ورثة ، ولا يوجد مايشـير الى اسـترجاع الأرض بطريق القهر أو الاجبار •

ويذكر متن (Meten) وكان موظفاً عظيم الشأن في الأسرة الثالثة ـ ثمانية أنواع لملكية الأرض الزراعية ، حصل عليها بوسائل مختلفة نذكرها فيما يلي :

١ ـ هبة ملكية ـ وكان للملك الحق في استردادها !

٢ ـ منحة من الأب الى ابنه •

٣ ـ التملك بمقتضى وثيقة رسمية ، ويبدو أن التملك في هذه الحالة كان وراثيـا وكانت الأرض قابلة للانتقـال من يد الى أخرى •

٤ ـ عطاء ملكي ، شأنها شأن رقم ١ •

٥ ـ تملك حق استغلال الأرض بشروط ملزمة •

٦ ـ منحة من الأم •

٧ ــ حجة وقف من الأم للأبناء •

٨ ــ منحة من الأب الى أبنائه •

وهذه كلها يمكن ارجاعها الى أربعه أنواع من التملك •

وكان من الضرورى كي يمتلك شخص أرضا بطريق الهبة أو الوراثة أو الشراء أن يتقدم لاثبات شخصيته في مكتب تسجيل الأراضى ، ثم يدفع رسوم نقل الملكية اليه ، وهذا الأجراء هو الدليل القانونى للتملك ، وبغيره لاتثبت ملكيته للأرض • على أن هبة ابريز (١) الى بتاح (٢) جميع الأراضى الساحلية المطلة على النيل عند منف تثير التساؤل ، الذى كثيرا ما ردده الناس فى الأزمان الخالية عن المعنى المقصــود من تلك الهبة ! اذ لا يعقل ، كما هو المعروف ، أن كل شخص كان يعيش على تلك الرقعة الواسعة من الأرض الممنوحة لبتاح قد أصبح رقيقاً تابعاً للأرض تنتقل ملكيته بانتقالها من مالك الى مالك آخر ! الأمر الذى يحملنا على الظن أن تلك الهبة لم تكن الا تنــازلا من الملك عن ايجار تلك الرقعة ، أو الضريبة عليها لسدنة الاله بتــاح ! وكانت كلتاهما من حق الملك !

---

(١) ابريز هو الاسم اليونانى للفرعون «حع ــ ايب ــ رع» (٥٨٨ ق٠م ــ ٥٦٩ ق٠م وهو أحد فراعنة الاسرة السادسة والعشرين •

(٢) بتاح اله منف ، وقد سبق الكلام عنه فى الفصل الاول •

وقد ذكر بما لا يدع مجالا للشك في نصوص الهبات أن السكان لن يبعدوا عن الأرض الموهوبة .. وعلى ذلك فان المستأجرين لها والمقيمين عليها لن يضاروا .

وتوجد عقود للايجار مدونة على ورق البردي يرجع تاريخها الى العهد الروماني ، ومنها يتبين أن هناك نوعين من الايجار :

الأول مقابل قيمة محددة .

الثاني بطريقة المشاركة في غلة الأرض .

ولقد كانت قيمة الايجار المحددة تتراوح بين بوشل (١) واحد وسبعة بشلات ونصف البوشل للفدان ، وتبلغ في المتوسط ٣٫٨ بوشل .

أما الايجار بطريق المشاركة فكان يتراوح بين نصف المحصول وأربعة أخماسه ، ويبلغ في المتوسط ثلثي المحصول .

وبما أن الفدان في انجلترا يغل في المتوسط ٣٠ بوشلا فلا يجوز أن نفرض أن الفدان في مصر مع جودة أرضها يقل عن هذا المقدار ، لذلك يكون متوسط الايجار المحدد لم يبلغ سوى ثمن ما يحصل عليه مالك الأرض بطريقة الايجار بالمشاركة .

---

(١) البوشل مكيال انجليزى يقدر بنحو ٣٦٫٣٥ من اللتر ، والأردب يساوى حوالى ٥ بوشل .

وفي بعض الجهات كان يوجد نظام المزارع الجماعية بين أهل القرية الواحدة ، وكان الايجار الذى كانوا يؤدونه بالمشاركة عن الأرض التي يستغلونها يكفي لتسديد كافة الضرائب والالتزامات الأخرى المربوطة عليها ، ســـواء أكانت ضرائب عامة أميرية أم التزامات خاصة بمالك الأرض ٠

وكانت نظم الجهاز الرسمي للبلاد تلتزم أصـولاً معلومة مرعية من الرسميات ومن أمثلة ذلك ما ورد في قصة سنوحي (١) من أن جوقة من الأميرات قامت بانشـــاد قصيدة في مدح الملك سنوسرت الأول ، وتمجيد شـــعوره الطيب لعفوه عن ســنوحي الهارب ٠

ولقد كانت للقصر تقاليد تراعى بدقة عندما يســمح لرجال الحاشية بدخول القصر للمثول بين يدى الملك ! ٠٠ وكان الحرص على التزام هذه التقاليد يزداد كثيرا عندما كان يؤذن لعامة الشعب

---

(١) سنوحي ، وصحتها سنوهي ، كان اميرا من أمراء الاسرة المالكة في عهد الملك امنمحات الاول (حوالى ٢٠٠٠ ق٠م) أول ملوك الاسرة الثانية عشرة ٠ وعندما توفى هذا الملك كان سنوحي يقود حملة ضد الليبيين ، فلما بلغه خبر وفاة الملك توقع الشر من الملك الجديد سنوسرت الاول ، لخلاف كان قد شجر بينهما في اثناء ولاية الملك الراحل ، ففر الى الشام حيث تزوج ابنة احد رؤساء القبائل هناك ، وعاش في تلك البلاد ، ثم عاوده الحنين الى وطنه العزيز مصر ، فارسل يستعطف الملك سنوسرت الاول فرد عليه يستدعيه الى مصر ، فحضر سنوحي ومثل بين يديه فعفا عنه ، وشرب صفحا عما بدر منه في حقه ، وأمضى سنوحي بقية عمره في مصر ٠

والأجانب بالدخول للمثول بين يديه .. وكان مما يفخر به كبير أمناء القصر الفرعوني قدرته الفائقة على ترتيب الأمراء كل وفق منزلته . على أن أخناتون العظيم ، وكان كما نعلم يحمل لقب « الذي يحيى في الصدق » قضى على كثير من تلك الرسميات ، فلم يكن على الناس ، على اختلاف طبقاتهم ، حرج عنده أن يسعوا اليه ، ويجتمعوا في ساحة قصره فيهللون ويرقصون ، فيطل عليهم — هو وزوجه وبناته — من شرفة القصر ، وينثر عليهم الزهور تحية لهم .

وظلت التقاليد مرعية حتى جاء الرومان !

وفي عهدهم أخذ الموظفون الرومانيون سلطات لم تكن لأمثالهم من قبل ، وابتدعوا لأنفسهم اختصاصات جديدة . ففي عام ٤٧ م أذاع حاكم مصر العام (كابيتو) قرارا شديد اللهجة يندد بذلك ! فقد بلغه أن الموظفين الرومان في ليبيا قد اغتصبوا أملاك الناس تحت ستار الضرورة الضاغطة والمنفعة العامة ، ولم يكن مثل هذا الاجراء مصرحاً به مهما كانت الظروف الداعية له ، ولذلك فقد أصدر أمره لجميع الموظفين على اختلاف درجاتهم بالامتناع عن أخذ شيء من الأهالي الا بتصريح خاص منه ، وأن ليس لهم الا حق المبيت في دورهم عندما يزورون قراهم لأعمال رسمية ! وأن الموظف الذي يفرض أي مبلغ من المال على أحد الأهالي مقابل خدمة عامة يؤديها له ، فانه (أي الحاكم العام) سيوقع عليه غرامة قدرها عشرة أمثال

ذلك المبلغ ، ويمنح المجنى عليه الذى يتقدم الينا بالبلاغ عن هذا الأمر الفاضح مكافأة تعادل أربعة أمثال المبلغ المذكور .

وكان المسجلون الملكيون يقومون بتسجيل كافة مصروفات المقاطعة وايراداتها ، وكل عجز فيهما يعاقب الموظف المتسبب فيه بأن يدفع ما يساويه ستين ضعفاً .

أما العقوبات الأخرى التى كانت توقع فى مصر القديمة على الأهلين لذنوب جنوها أو مخالفات ارتكبوها فقد كانت تتسم بالاعتدال ، اذا ما قرنت بالعقوبات التى كانت توقع على سكان الأقطار الأخرى . على أن عقوبة بعض الذنوب فى بعض العصور كانت نهاية فى الشدة والقسوة ، فقد حكم على زانية فى عهد الأسرة الخامسة بالحرق أمام بعض النسوة ، والقاء الرماد المتخلف من حرقها فى النيل ! غير أننا لم نعثر فى العصور التالية على مثال واحد من هذا النوع الصارم من العقاب حتى العصر الرومانى ، عندما كثرت عقوبة الحرق بسبب الاختلاف فى المذاهب المسيحية . وقد حفظت لنا من حسن الحظ قصة عزل أحد حكام المقاطعات فى عهد الدولة الوسطى : وكانت جريمته أنه تستر على بعض أعداء الملك باخفائهم فى المعبد . ويبدو أنهم كانوا عملاء أسرة منافسة للأسرة الحاكمة . وكانت العقوبة التى وقعت عليه حرمانه من الهبات الملكية التى وهبت له ، وحرق جميع الوثائق والمستندات الخاصة

بأملاكه .. وعزله من منصبه من غير أن يوقع عليه عقوبات بدنية .

وفي الأسرة الثامنة عشرة نرى امنمحتب بن حابي (١) يعلن أولئك الذين ينتهكون حرمة القانون ؟ وينزل بهم عقابا صارماً جزاء وفاقاً ؟ على أنه يبدو من قوله أنها عقوبات أدبية وليست بدنية .

وفي عهد الأسرة العشرين دبرت احدى زوجات (٢) أحد فراعنتها مؤامرة لاغتياله ولما كشفت قدم المشتركون فيها للمحاكمة ، وكان الحكم ارغامهم على الانتحار ، أما الذين ثبت

---

(١) حابي أحد الحكماء المفكرين ، عاش في أواخر الأسرة الثامنة عشرة .

(٢) لقد قامت بتدبير هذه المؤامرة . تي زوجة الفرعون العظيم رمسيس الثالث لاغتياله ليحلوا مكانه فيتولاه ابن لها منه بدلا من ابن ضرتها ولي العهد وصاحب الحق الشرعي في تولية العرش بعد موت أبيه . وقد اشتركت معها في هذه المؤامرة بعض كبار رجال البلاط الملكي وبعض ضباط الحرس وزوجاتهم ، ولما استعد المتآمرون لتنفيذ جريمتهم كشف أمرهم ، وقبض عليهم ، وعلى الرغم من أن المؤامرة موجهة لشخص الملك ، ولقتله ، فقد شاءت عدالته أن يترك الأمر للقضاء فأمر بتشكيل محكمة خاصة لمحاكمة المتهمين بما فيهم زوجته ، وشدد على المحققين والقضاة — أن يتبعوا العدل ، فلا يدينون شخصا بريئا ، ويبرئون شخصا مذنبا ، ويعد هذا مثالا رائعا لعدالة ذلك الفرعون العظيم ، على الرغم من أنه — كما ألمحنا — كان الهدف المنشود من هذه المؤامرة الغادرة .

عليهم أنهم كانوا يعلمون بها ولم يبلغوا عنها فقد حكم عليهم بجدع أنوفهم وقطع آذانهم (١) .

وقد امتاز حكم الاثيوبيين (٢) بروح الاعتدال ، فلقد قامت ثورة ضد بعنخي ، فلما أخمدها وسلم اليه المؤتمرون لم يحكم على أحدهم بالقتل (٣) .

ويروي هيرودوت أن شباكا لم (٤) يأمر بقتل أحد من المصريين لأية جريمة ارتكبها كائنة ما كانت ، وانما كان القضاة في أيامه

---

(١) يروى انه في أثناء التحقيق في هذه المؤامرة تمكنت بعض النسوة المتهمات من اغراء بعض رجال الشرطة المكلفين بحراستهن بالتوجه في صحبتهن الى منازل بعض القضاة المنوط بهم التحقيق حيث أغرينهم ببعض المغريات لكي يحكموا لصالح المتهمين ، ولكن انكشف أمرهن وقبض عليهن وعلى القضاة والحراس وحكم عليهم جميعاً بجدع انوفهم وقطع آذانهم جزاء وفاقا على ما ارتكبوه.

(٢) المقصود بالاثيوبيين هنا النوبيون، وقد سبق شرح ذلك في مناسبة سابقة.

(٣) لم تكن هذه ثورة بمعناها المعروف ،لأن بعنخي كان فاتحاً لم يتم له فتح مصر كلها ، وكانت مصر آنذاك أقساما ، وكان كل قسم منها يحكمه ملك صغير أو أمير ، وكان معظم أولئك الملوك أو الأمراء ليبيين أو سوريين ، وكان الصراع بينهم على أشده ، ولذلك سهل على بعنخي فتح مصر . وكان أشد أولئك الملوك المصقار بأسا الأمير تفنخت ، أمير صالحجر الذي ضم أقسام مصر السفلى تحت لوائه ، لم تزعم حركة المقاومة ضد بعنخي ، ولكنه هزم بعد نضال باسل ، فلم يسلم وآوى الى المستنقعات الشمالية ورفع راية العصيان غير أن انصراف أعوانه عنه وتخاذلهم اضطره آخر الأمر الى الخضوع لبعنخي ! .

(٤) شباكا هو خليفة بعنخي .

يحكمون على مرتكب جريمة القتل بالاشغال الشاقة عاملا في السدود .

ويقول ديودورس أن الفرعون بوكوريس استبدل بعقوبة الاعدام الأشغال الشاقة في حفر الترع مع وضع القيود الحديدية في أرجل المحكوم عليهم بذلك .

أما في أيام الرومان فقد كانت أقصى عقوبة أن يساق المجرمون زمراً للعمل في مناجم الذهب في الصحراء الشرقية ، اذ كان من المستحيل عليهم الهرب لندرة الماء فيها ! ومع ذلك فقد كان المحكوم عليهم توضع في أرجلهم الأغلال ، ويساقون سوق الأغنام بالضرب بالعصى والسياط ليعملوا في المناجم ليلاً ونهارا ، ولا يريحونهم حتى يخلصهم الموت من ذلك العذاب الأليم .

أما العقوبات التي كانت توقع على مخالفي دين الدولة أو مذهبها ، فقد كانت من جنس العقوبات التي كانت توقع على أمثالهم في أنحاء الامبراطورية الرومانية الأخرى !

ويبدو أن اجراءات المحاكمة في مختلف عصور التاريخ المصري لم تختلف كثيرا في عصر عنها في عصر آخر ! اذ ليس

لدينا معلومات دقيقة كافيــة تمكننــا من الموازنة بينها فى العصـــور المختلفة !

ولعل خير ما نفعله هو أن نستعرض فى ايجاز ما نعرفه عنها فى كل عصر •

١ ـ ففى الدولة القديمة كان هناك محكمتان : محكمة الشمال ذات الدوائر الست • ومحكمة الجنوب ذات الثلاثين عضوا (١) •

ولم يحدث الا فى حالة واحـــدة ، وجـــد فيها قاض يعمل فى المحكمتين معاً •

ومما يدل على أن هاتين المحكمتين كانتـــــا منفصلتين ، تلك الألقاب التى كان يحملهـــا موظفـــو كل منهما • وقد عرفت ألقـــاب تسعة رؤساء لمحاكم الشمال الست الفرعية ، وألقاب خمسة وعشرين من القضـــاة العظام فى محكمـــة الجنـــوب وذلك بالاضافة الى بعض ألقاب الشرف •

---

(١) يقول ديودورس ان هذه المحكمة كانت تتكون من ثلاثين عضوا يختارون من قضاة هليوبوليس ومنف وطيبة بمعدل عشرة قضاة من كل مدينة ، ويجتمع هؤلاء وينتخبون من بينهم رئيسا لهم ، وترسل المدينة التى ينتخب عضو من أعضائها رئيس للمحكمة عضوا آخر ليحل محله .

محكمه الشمال		محكمة الجنوب
اللقب		
وزير وقاضى قضاه	٨	٥
الأول بعد الملك (١)	٣	١٣
كاتم أسرار الملك	١	٨
قاضى « عزمر » (٢)	١	١٣
آن موتيك	١	١٠

وكان الوزير يرأس محكمة الدوائر الست بصفة تكاد تكون دائمة ، على حين كان نائب الملك رئيسا لمحكمة الجنوب !

وفى عهد الأسرة الثالثة وفى العهود التالية كان الوزير (٣) يجمع بين وظيفته كوزير ووظيفة قاضى القضاء « سبجتى » • وكان

(١) كان هذا اللقب يطلق على حاكم المقاطعة منذ عهد الملك سنفرو ، الأمر الذى يدل على أنه كان تحت نفوذ الملك المباشر •

(٢) «عزمر» معناها المشرف على حفر الترع • وكانت تطلق فى الأصل على حاكم المقاطعة دلالة على أن أهم عمل له هو الاشراف على الرى والصرف فى مقاطعته ، وفى عهد الأسرة الرابعة أضفى عليه لقب قاضى ، وأصبحت له سلطة قضائية على السكان الذين يحكمهم •

(٣) يلاحظ أن وظيفة الوزير بمعناها المعروف لم تعرف الا فى عهد الاسرة الرابعة كما سبق أن أشرنا ، اذ كان كل ملك قبل الاسرة الرابعة يختار أحد العظماء المقربين له كمستشار له ، يقوم بما كان يقوم به الوزير بعد ذلك ، مثال ذلك الحكيم والمهندس العظيم امحتب فى عهد الملك زوسر أحد ملوك الأسرة الثالثة .

ينتمي دائما الى احدى الأسر الغنية ذات الجاه والنفوذ ، ان لم يكن من الأسرة المالكة نفسها ، على أن يكون قد سبق له أن شغل أحد المناصب الهامة ، ومنصب رئيس الكهنة بخاصة • كان مقر عمله بهو « خا » العظيم ، وهو بهو ذ واجهة مكشوفة ، وعلى جانبيه صفان من الأعمدة • وكان يسمى « البهو الظليل » • وقد عثرنا في قبر « ر خمارع » (الأسرة الثامنة عشرة) على ما يزيدنا علماً ومعرفة من هذه الناحية • فقد كان بهو « الخا » هو المكان الذي تحفظ فيه السجلات الخاصة بملكية الأراضي الزراعية والعقارات ، لكي يرجع اليها عندما تتطلب احدى القضايا ذلك • وكانت جميع الوصايا تعد لها ملفات مرتبة هناك • وكذلك الشأن فيما يختص بسجلات الحدود وتقديرات الضرائب ، وكافة أنواع المستندات الرسمية الأخرى •

وكانت العادة أن تقدم المظالم والملتمسات التي تتطلب حكما قضائيا الى محكمة الوزير ومن ثم تحال الى القاضي المختص • ومن الطبيعي أن هذا القدر الكبير من الأوراق والمستندات لابد أن تتكاثر

---

(١) «خاء» كلمة هيروغليفية معناها بهو •

(٢) «رخمارع» وزير مشهور في عهد الاسرة الثامنة عشرة ، عاصر الملك العظيم تحتمس الثالث وقد كشفت مقبرته ضمن مقابر الاشراف في القرنة بالاقصر •

ولهذه المقبرة اهمية قصوى تفوق غيرها من مقابر الاشراف الاخرين لما احتوت عليه من النقوش والكتابات والرسوم التي تشرح بالتفصيل مهام الوزير في مصر الفرعونية •

وتتراكم سريعاً . ومن أجل ذلك فصلت مستندات الجنوب من مستندات الشمال .

ويبدو أن قضايا الأقاليم كانت تحال الى محاكمها الخاصة بها ، ماعدا القضايا الهامة فقد كانت محكمة حا مختصة بالحكم فيها .

وفي الدولة الحديثة كانت القضايا المحلية يعهد بها الى محكمة تتألف من هيئة من الموظفين المحليين ، وهم « رجال المدينه العظام » الذين كانوا يمثلون المحكمة العليا ، وعند نظر القضايا المتعلقة بملكية الأراضي الزراعية ، كان يرسل مندوب يمثل المحكمة العليا ليشترك مع هيئة المحكمة المحلية في الفصل فيها . أما المحكمه العليا ، أو كما كانت تسمى « البيت الكبير فقد كانت هيئة دائمة تتألف من كبار الموظفين ، وهي تشبه مجلس الوزراء في الوقت الحاضر . ولقد كان تأليف الهيئة القضائية في محكمة « تاو » يختلف تبعاً لنوع القضية ، كما تختلف هيئة المحلفين في بريطانيا في الوقت الحاضر تبعا لذلك . وكان كاتب المحكمة المحلية يشغل وظيفة ثابتة ، وكان عمله الاشراف على تنظيم الاجراءات التى تتبع في عرض القضايا ونظرها والحكم فيها !

ويبدو أن الدعاوى التى كانت ترفع الى تلك المحكمة لم تكن تقدم مكتوبة ، كما هو الحال الآن ، وانما كان القضاء يستمعون الى دعوى المدعي ، ورد المدعى عليه ! وعند اصدار الحكم في صالح أحد المتخاصمين ، كان الطرف المحكوم له يطالب خصمه بقيمة أتعاب

المحكمه (١) . وكان المتقاضون ، كما أشرنا ، يتولون الدفاع عن وجهه نظرهم ، ونقض التهم الموجهه اليهم أمام المحكمه . ولم نعثر في أيه قضية على وجود وكلاء أو محامين عن المدعين والمدعى عليهم قبل العهد الروماني والذين كان يطلق عليهم في ذلك العهد « القلهير أو النصير » .

ولقد كان لأعضاء هيئة المحكمة وظائف أخرى ، ولم يكونوا من رجال القانون المحترفين مهنة القضاء ، ذلك لأن المصريين المثقفين كانت لهم درايه كافيه بالقانون تمكنهم من تطبيقه ! وقد كان كاتب المحكمة يقوم بمهمة التوجيه فيما يتعلق ببنود القانون التي تنطبق على القضايا المختلفة التي تعرض عليهم ، وكان لمركزه من الأهمية ما لمركز سكرتير المحكمه في الوقت الحاضر .

وفي عهد الأسرة العشرين لم يكن آنذاك غضاضه عند المصريين في أن يتقلد الأجانب مناصب القضاء . ولقد كان في المحكمه التي نظرت احدى القضايا في ذلك العهد أربعة من القضاة الأجانب ضمن هيئتها التي كانت تتكون من أربعة عشر قاضيا . ويرجع ذلك الى كثرة الارقاء الاجانب في ذلك العهد ، والذين تحرر كثير منهم وقفز بعضهم الى مناصب ذات سلطان ، كما فعل المماليك بعد ذلك !

---

(١) يقصد رسوم القضية

وأوفى قضية وصلت الينا هي محاكمة لصوص المقابر (١) في عهد الأسرة العشرين ، ويغلب على الظن أنها كانت تهمة لفقها حاكم بر طيبة الشرقي لحاكم برها الغربي للكيد له لما كان بينهما من عداوة ، ولقد سارع الى تحقيقها الوزير ومعه الكاتب الملكي ، فبين لهما أن ما جاء بالبلاغ «مبالغ فيه» ، اذ وضح بعد فحص المقابر أنها كلها سليمة لم تمسسها يد عدا واحدة فقط (٢) !

---

(١) ترجع هذه المحاكمة الى عصر الفرعون رمسيس التاسع : حوالى ١١٠٠ ق.م) وهي تلقي ضوءا ساطعا على حالة الدولة المصرية في ذلك العهد ومايلقته من ضعف واضمحلال أدبا الى تراخي سلطتها على شئون الأمن والنظام، والى اهمال حراس المقابر في البر الغربي لطيبة مما أغرى اللصوص بسرقتها. وقد تم القبض على بعضهم ، وحوكموا وحكم عليهم بالاعدام .

(٢) كانت طيبة يحكمها آنذاك أميران تحت سلطة الوزير ، وكان أحدهما يحمل لقب أمير المدينة وكان يختص بالجزء الشرقي أي مدينة الأحياء ؛ ويحمل الآخر لقب أمير الغرب ، ورئيس شرطة مدينة الأموات ، وكان يختص بالجزء الغربي من المدينة .

وكان أمير المدينة يدعى «باسر» ، وأمير الغرب يدعى «بويرو» وكان بين الأميرين عداوة دفينة بسبب منافسة أحدهما للآخر ، وكان كل منهما يشجع مرءوسي خصمه على نقل أخبار الفوضى والاضطراب في ادارة رئيسهم ، ولقد انتهز باسر فرصة سرقة احدى مقابر البر الغربي فسارع الى تقديم بلاغ عنها للمحكمة العليا ، وكانت — كما أشرنا — تتكون من الوزير وموظفين كبيرين ؛ فأرسلت المحكمة لجنة تحقيق أي «الجبانة» للبحث والتحري ، فقامت هذه اللجنة بمهمتها خير قيام ، وفحصت محتويات عشر مقابر حامت الشبهات حول سرقتها ، فثبت لها أن مقبرة واحدة هي التي امتدت اليها أيدي اللصوص ...

ويبدو أن نتيجة الفحص لم تعجب باسر ، الذي أصر على أن يلاحظ صحيح رأن عدد المقابر التي امتدت اليها يد اللصوص عشرة لا واحدة ، وعدد

ولقد أدى غلبة النفوذ الديني على النفوذ السياسي، الذي تميزت به الأسرة الحادية والعشرين الى طريقة الاستخارة أي الاستشارة الالهية ، فكان كبير الكهنة يأتي بلوحتين ويكتب عليهما حكمين متضادين ، ويضعهما أمام تمثال الاله آمون ، ثم يدعوه أن يختار احدى اللوحتين ، فيشير الاله الى الحكم المختار ، وكان ذلك الاجراء يكرر مرتين . ولا نعرف على وجه اليقين عن كيفية هذه الاشارة .. ولقد ذهب ماسبيرو الى أن تمثال الاله آمون كانت له ذراعان قابلتان للحركة يقوم الكهنة بتحريك احداهما خفية تبعا لأهوائهم . وكانت هناك وسيلة أخرى لاستشارة الآلهة عند حدوث نزاع على ملكية مساحة من الأرض ، فقد كان الكهنة يحملون قارب الاله على اكتافهم ، وعندما يشعرون بثقل وزن القارب ، يكون ذلك اشارة من الاله الى اصدار حكمه ، وكان ذلك يحدث وفقا لأهواء الكهنة . وكانت تلك العقيدة سائدة في اسبرطة .

بابلاغ الامر للملك رامسيس على حين تقدم بوبرو ان يلتمس من الوزير النظر في عقاب باسر على بلاغه الكاذب ، فعقد الوزير جلسة حضرها أعضاء المحكمة العليا وفحصت تقرير اللجنة ، فاصدر حكمها بعدم صحة الاتهامات التي تقدم بها باسر ، كما حكمت بادانته .

وللأسف الشديد لم تثبت البرديه التي سجلت عليها هذه القصيه الطريفة وهي بردية «أبوت المشهورة» تطور هذا النزاع بين الأميرين ونهايته .. ولكن يبدو أن المحكمة العليا لم تثبت عدم صحة اتهامات باسر كلها ، لأنه وان كانت قد ثبت أن مقبرة ملكية واحدة فقط قد سرقت ، غير أنه قد ثبت لها فعلا أن عددا من مقابر الامراء والمقابر الأخرى قد سرقت فعلا مما يدل على أن بلاغ باسر كان قاصرا على سرقة عشر مقابر ملكية ! .

ولقد لجأ الكهنة الى طريقة الوحى أى استشارة الآلهة لتوطيد مركزهم ، حتى أن الوصايا ونقل الملكية كانت تصدر بناء عن وحى الهى ، وتعد أحكاما سماوية لاتقبل النقض أو الابرام •

ولم يكن الحاكم العام لمصر فى العصر الرومانى يتمتع بسلطات الوزير القضائية ، لأن تلك السلطات كانت تمنح الى الوكيل القضائى (١) (Dikaidates) ، الذى كان يصحب الحاكم العام فى تنقلاته التفتيشية على المحاكم ، ويقوم بعمل القاضى فى القضايا الكبرى ، التى كان القضاة المحليون يقومون باعدادها له • وكان يصدر مرسوم امبرطورية بتعينه ، ويتم اختياره عادة من بين الفرسان الرومانيين • وبهذه الوسيلة توزعت سلطة الوزير القديمة •

وكان فى الاسكندرية فى العصر الاغريقى مندوب قضائى للحاكم العام (Archidikastes) وكانت سلطته تمتد الى جهات أخرى غير الاسكندرية ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالقضايا التى تحفظ سجلاتها فى الادارة العامة للسجلات التى كان مركزها بالاسكندرية (٢) •

---

(١) كان الديكاديتس هو الوكيل المباشر للحاكم العام ، فيما يختص بالمسائل القضائية وكانت السلطة القضائية العليا فى مصر من اختصاصه ؛ ولما كان لايشترط فى الحاكم العام أن يكون ملما بالقانون ؛ كان لزاما عليه أن يستعين بالديكايديتس فى المسائل القضائية •

(٢) فى تلك الادارة كانت تحفظ الوثائق القانونية لكافة المقاطعات •

وقد نشأت هذه الوظيفة في عهد البطالمة ••• ويبدو أن اختيار المتقاضين تحويل قضاياهم اليه من جهات أخرى بالبلاد انما يرجع الى أنه كان المختص بالنظر في قضايا الاغريق أينما وجدوا ، كما كان الشأن في المحاكم القنصلية التي كانت تنظر في قضايا الأجانب في مصر قبل الغاء الامتيازات الأجنبية •

أما في الأقليم فقد كان حكام المقاطعات مختصين بالنظر في القضايا البسيطة واصدار الحكم فيها • وكان لرؤساء البوليس الحربي (Centurion) سلطات مماثله ، فوق ما كان لهم من اصدار الأمر بالسجن المؤقت على الخارجين على القانون •

وكانت اذا وقعت حالات سطو واغتصاب للمال أو اساءة استعمال الموظفين للسلطة ، تقدم لممثل القيصر للتظر فيها ، فاذا ثبتت صحتها بعد فحصها ، اتخذ الاجراءات الرادعة لاعادة الأمور الى نصابها •

ويعد المؤرخ ديودورس خير من كتب عن القانون الجنائي المصري ، وسجل نصوصه • ومن هذه النصوص الحكم بالاعدام على شاهد الزور ، ومنها الحكم بالجلد بالسياط والحرمان من الطعام ثلاثة أيام سويا على من يهمل في مديد المساعدة لانسان تعرضت حياته لخطر الموت ، وعلى من أهمل في الارشاد عن لصوص رآهم يسرقون ؟ ومنها أن من اتهم شخصا زورا ، وقعت عليه العقوبة التي يحكم بها عادة على ذلك المتهم البرىء لجريمة لم يرتكبها ، ومنها

الحكم بالاعدام على من قتل نفساً ، سواء أكانت نفس حر أو عبد . ومنها أن الآباء والأمهات الذين يقتلون أبناءهم أو بناتهم يحكم عليهم بأن يعرضون أمام ملأ من الناس وقد علقت برقابهم جثث أبنائهم أو بناتهم ، ثلاث مرات (١) . أما قتل الوالدين أحدهما أو كليهما فكان عقابه التمثيل بجسم الابن القاتل (٢) ثم حرقه حياً بعد وضعه على الأشواك . وكانت النساء الحوامل يؤجل تنفيذ الحكم فيهن الى ما بعد الوضع (٣) . ومنها أن من ينقل أخبارا الى الأعداء يستفيدون منها يقطع لسانه . ومنها أن من يطفف الميزان أو الكيل ، أو يزيف الأختام أو النقود ، أو يغش الذين يعاملهم ، أو يغير في

---

(١) يفسر ديودورس حكمة المصريين في تلك العقوبة بقوله : « لم ير المصريون» انه من العدل أن يقتلوا الذين منوا بالحياة على أولادهم ، بل كانوا يرون أن العدل أن يصرفوهم عن مثل هذه الجرائم بتوقيع عقوبة تعصر قلوبهم عصرا . وتبعث في نفوسهم الالم والعذاب الذين لايفارقانهما اذا ازدلفوا (؟) ربهم ، ويحملانهم على التوبة والندم على ما اقترفت أيديهم . انظر وهيبه كامل ديودورس الصقلي في مصر ص ٧ .

(٢) ومن أمثلة التمثيل انه كانت تقطع من اجسامهم قطع صغيرة لاتعدو حجم الاصبع .

(٣) يعلق ديودورس على هذه العقوبة بقوله «لقد رأى المصريون انه من الظلم ان يشارك الجنين البرىء امه المذنبة في جريرتها ، وأن يقتص من اثنين لوزر لم يرتكبه الا واحد منهما . وأهم الاعتبارات كلها أنه من غير المعقول أن يقضى بالموت على الجنين وهو لاينتمى الى الأم وحدها ، وانما يشاركها فيه الأب الذي لم يرتكب جرما .

وقد نقل الاغريق هذا القانون : وهيبه كامل ديودورس الصقلي في مصر ص ٥٧،٥٦ .

نصوص السجلات العامة بمحو أو زيادة ، كان عقابه قطع كلتا يديه (١) •

ومن تلك النصوص أن الاغتصاب عقوبته قطع عضو التناسل ؛ أما عقوبة الزنا من غير اكراه الزانيـة فكانت ألف جلدة للزانى ، وجدع أنف الزانية •

ولقد أدى الارتقاء المطـــرد لنظم الزواج على مر السنين فى مصر الى سمو المثـل العليـا للأخلاق ، وبالتالى الى حرص الفتيان المصريين الذين يبلغون سن الزواج على الاقبـال على الزواج ممن يتوفر فيهن سمو الأخلاق وحسن السلوك من الفتيات وترتب على ذلك بقاء عدد كبير من الفتيات ممن كان سلوكهن دون المستوى المطلوب عانسات •

وبينا نجد أن مصر قد بلغت ذلك الرقى منذ آلاف السنين ، فان أوروبا لم تعرف الزواج المنظم الا منذ ألف سنة على التقريب •

وفيما عدا ذلك فقد كان هناك بعض المسائل التى لاتخضع عادة لأحكام القانون أو الاجبار الأدبى ، ولكنها كانت مع ذلك على جانب كبير من الأهمية لأنها تبين عن الاتجاهات العقلية للمصرى القديم •

وفيما يلى نورد لك أمثلة على ذلك :

---

(١) وجهة نظر المصريين فى ذلك ، كما اثبته ديودورس ان العقاب ينزل بالعضو الذى استخدمه المجرم فى ارتكابه جريمته جرحا لايندمل الى يوم مماته، فيكون فى رؤيته عظة للآخرين ، يصرفهم عن اقتراف امثال هذه الجرائم ، «المصدر السابق ص «٧٨» •

ففى الأسرة الخامسة كانت حب الناس واكرامهم والترحيب بالغريب الطارق من الأمور المرغوب فيها لدى المصريين القدماء حتى لناكرى الجميل !

وفى ذلك يقول أحد حكمائهم :

اذا كنت كريما مع أحد الناس ، وصنعت معروفا له ، كأن أملته حقا من حقوقه ، فمن الخير أن تتناسى هذه المكرمه ، ولا تذكره بها ما لم يذكرها لك هو .

ولقد كان النبلاء والحكام يباهون بنشر لواء الأمن والطمأنينة ، والعدل والاحسان بين الناس فى كافه انحاء الاقاليم التى يحكمونها فى سنوات القحط وسنى الرخاء على السواء :

ولنستمع الى أحدهم وهو يقول :

« لم يوجد فى عهدى فقراء ، ولم يحدث أن جاع أحد فى أيام ولايتى . . »

وفى أثناء المعركة البحرية العظيمة (١) التى خاضت الأسرة العشرون غمارها دفاعا عن مصر ضد الغزو الأجنبى ، نرى المصريين

---

(١) وقعت هذه المعركة فى البحر المتوسط شمال غرب مصر بين الملك رمسيس الثالث ، ثانى ملوك الاسرة العشرين وبين حلف قوى مكون من الليبيين وسكان جزائر صقلية وسردنيا وكريت وغيرهم وكان اولئك الغزاة قد عزموا على مهاجمة شمال غرب الدلتا بحرا وبرا ، وحشدوا لذلك عددا عظيما من السفن (ودارت معركة بحرية هائلة بينهم وبين مصر ، هزم فيها الغزاة وحطم الاسطول المصرى معظم سفن اساطيلهم المجتمعة ، وبلغت ضحاياهم ١٢٫٥٠٠ بين قتيل وغريق ، وكما أسر منهم ألف أسير ، وقد سجل رمسيس الثالث أخبار هذه المعركة على جدران معبده بمدينة هابو .

فى المركة المنقوشة على حيطان معبد هابو (١) وهم يقذون الا ٔع
من احدى سفن الغزو التى بدأت تغوص فى الماء •

وفى الاسرة الخامسة والعشرين نرى بعنخى الفاتح النوبى
وقد استاء أشد الاستياء من الأهمال الذى تسبب عنه هلاك بعض الخ
جوعا فى طيبـة • وكان يرجو الخاميات المصرية فى المدن بالتس
كلما أوغل فى البلاد حقنا للدماء • ومن أقواله المأثورة انه يود
يرى أهل منف فى أمان مطمئنين سالمين ، وأن لا يتسبب عن الحر
التى يخوضها بكاء الأطفال الأبرياء ••• ومما يروى عنه أنه لم يق
أحد من المصريين الا فى ساحات القتال •

ويقول ديودورس : ان المصريين هم أكثر شـــعوب الع
تقديرا للمعروف ، الذى يسدى اليهم ••••

ولقد احتل الشعور بمحاسبة النفس حيزا فى عقل المصر
وتفكيره فى عهد الدولة الحديثة ، وفى أواخر عصرها بخاصة ، ول
ذلك راجعا الى ظهور عبادة آتون (٢) ، التى تحث الناس على السلو
المثالى ، فنرى المصرى فى ذلك العصر الزاهر يتوسـل الى الـ
آلا يعذبه على ذنوبه الكثيرة ••••• حتى يصبح جديرا بســك
دار النعيم •

---

(١) هابو هى التسمية القبطية للمنطقة التى يوجد بها معبد الملك رمسيس الثالث فى البر الغربى للاقصر • ومازال هيكل المعبد باقيا الى اليوم فى حا
حسنة نسبيا •

(٢) آتون هو الاله الذى عبده اخناتون • ونشر عبادته ومعنـــاه قرص
الشمس •

الفصل الرابع

الحياة الخاصة

الظروف المناخية
فى مصر وأثرها فى شكل المساكن

ان مناخ مصر قد جعل المأوى فى ربوعها أقل أهمية عند سكان مصر عنه عند كثير من سكان الأقطار الأخرى ، والأقطار الباردة بخاصة ! ولهذا نرى أن بعض البدو من سكان مصر لا يزالون يأوون الى الخيام ، وأن بعض سكان قراها يأوون فى بعض أشهر السنة الى عرائش من البوص لتقيهم وطأة الحر وعصف الرياح فى أثنائها ، وأنه حتى فى المنازل التى يبنونها باللبن أو الحجارة فان البهو المكشوف مسرح طبيعى لحياتهم المنزلية .

ولقد كان الانسان البدائى فى الأزمنة الغابرة يقنع أينما حل فى بقاع الأرض المختلفة بوسائل من الوقاية أقل كفاية منها فى الوقت الحاضر ، سواء أكان ذلك فى الملبس أم فى المأوى ، ولذلك راض نفسه على أن يفترش الأرض ، كما يفعل سكان أقطار أوروبا

الشرقية (شرقى أوروبا) الى اليوم ! ولقد كان عندما يجلس على مقعد عال ويدلى قدميه ، يندفع الدم اليهما ويزداد ضغطه فيهما ، يجد نفسه مدفوعا الى رفعهما ووضعهما على مقعد آخر .

وكان المصريون القدماء يفترشون الأرض فى أثناء تناولهم الطعام ، ويرفعون احدى ركبتيهم الى أعلى ! ولم يعرف عنهم أنهم كانوا عندما يجلسون يسندون ظهورهم الى متكأ ، كما كان يفعل الاغريق والرومان عند تناولهم الطعام !

ولا ريب أن الأوضاع المختلفة التى كان المصريون القدماء يتخذونها فى جلوسهم ترجع الى عصر ما قبل التاريخ ! ويمكن اجمالها فيما يلى :

(١) لقد كانوا يضمون الركبتين عند جلوسهم على الأرض مع توجيه القدمين الى جهة واحدة ، نستبين ذلك من الرسوم البدائية التى ترجع الى العصر الحجرى القديم . وقد استمر النساء دون الرجال يتبعن ذلك الوضع الى عهد الأسرة الثانية عشرة .

(٢) وقد كانوا يفترشون الأرض مع خفض احدى الركبتين ، ورفع الأخرى !

وهذا ما نشاهده فى صورة الالهة ايزيس وهى تحمل ابنها

حورس ، التي ترجع من غير ريب لعصر ما قبل التاريخ !

(٣) وكان الوضع السائد بين الكتبة هو جلوسهم مع جعل الساقين متقاطعتين ووضع القدمين تحت الركبتين (١) •

(٤) أما الصناع فقد كانوا يجلسون راكعين بينا تكون القدمان ممدودتين الى الخلف ، كذلك كان يفعل الضيوف •

(٥) وعند تقديم القرابين كانوا يركعون مع ارتكاز القدمين على الأصابع في وضع رأسي •

(٦) ويبدو أن جلوس القرفصاء مع اتجاه الركبتين الى أعلى قد بدأ في عهد الأسرة الثانية عشرة ، وهو وضع يستلزم أن يكون الفخذ أطول من قصبة الرجل ، وهذا الأسلوب في الجلوس شائع بين المصريين في الوقت الحاضر (٢) •

(٧) وفي حالات نادرة تتطلبها طبيعة بعض الأعمال كانوا يفترشون الأرض مع جعل الركبتين الى أعلى بينا تكون الساقان ممدودتين الى الأمام • وعندما كانوا يريدون التعبير عن الخشوع أو الخضوع ، فقد كانوا يضمون اليدين متقاطعتين على الكتفين •

وكان المتبع عند الدفن في عصور ما قبل التاريخ وضع الجثة

---

(١) وهي التي تسمى الآن الجلوس القرفصاء

(٢) انه شائع بين سكان القرى غير المتعلمين ، وقد اختفى بين المتعلمين !

بحيث تتخذ شكل القرفصاء ، مع سحب الركبتين نوعاً ما الى أعلى ، وهو الوضع الطبيعي الذي نتبعه في نومنا في الوقت الحاضر . أما دفن الجثة مع جعلها ممدودة ، فقد بدأ اتباعه في عهد الأسرة الثالثة ، ولا يزال هو الوضع الذي يتبعه المصريون اليوم في أثناء نومهم .

وكان الرجال والنساء ، اذا ما دعوا الى الولائم يتناولون الطعام معاً وهم جلوس على الحصر ، ذلك على الرغم من أن منازلهم كانت تحتوي على أجنحة للرجال وأخرى للنساء !

ولقد كانت الدور الكبيرة في عهد الاسرة السابعة عشرة تشتمل على ممرين ، يمتدان من الباب الخارجي الى الداخل . وكان أحدهما يؤدي الى الأبهاء وحجرات سيد القصر والى المطابخ ، أما الآخر فكان يؤدي الى الجناح الخاص بالسيدات !

وسوف نصف تخطيط المنازل ورسومها وابنيتها في الفصل الأخير من هذا الكتاب تحت عنوان المباني !

أما الأثاث كما يبدو من النماذج الخاصة بالأسرات التاسعة والعاشرة والحادية عشرة ، فكان يتكون من أريكة طويلة ، ومقاعد في الطابق العلوي من المنزل ، ليجلس عليها أهله للتمتع بالنسيم البارد المنعش ، وعلى حامل تصف عليه جرار الماء وأكوابه ، ورحاة لطحن الغلال كانت توضع على قاعدة في أسفل السلم ، وفي حجرة النوم مقعد يستخدم للراحة والاستجمام ، يرتكز على غصن ذي شعب ،

مثبت في احدى حوائط الحجرة (١) .

المدافىء : وكانت مدافىء المنازل المستعمله في عهد الأسرة الأولى من الفخار ، وكانت حافاتها مرتفعة لمنع الرماد من التبعثر ، وكان لبعضها حافة مصنوعة على هيئة أفعى ملتوية حول نار موقدة ، كما تفعل الثعابين التي تأوى الى المنازل ، وكان المصريون لا ينالونها بأذى لاعتقادهم أنها تقوم بحراسة المنازل من الفيران التي كانوا يعتقدون انها تحمل عدوى الطاعون ! (٢) .

وفي عهد الأسرة الثانية عشرة كان المصريون يضعون موقدا كبيرا من الفخار في وسط البهو لتدفئته !

تمسك المصريين بالنظافة

ولقد كان المصريون يتمسكون بالنظافة تمسكا شديدا ، وكانت ملابسهم ، وملابس الكهنة بوجه خاص تصنع من الكتان (التيل) لأن الملابس الصوفية كانت في ملتهم واعتقادهم مرتعا خصيباً محببا للهوام والحشرات ، وكانوا يحرصون على غسل ملابسهم في فترات قصيرة وبعناية خاصة .

---

(١) هيرودوت الجزء الثاني ص ٣٥ .

(٢) كان المصريون يعتقدون أن ثعبان المنزل هو الاله اجاثوديمون الذي يحرص على طرد الفيران من المنزل منعا من انتشار الطاعون الذي كانت تحمل عدواه .

كانوا يغتسلون بالماء البارد أربع مرات كل يوم مرتين في النهار ومرتين في الليل ، كما كانوا يحلقون رءوسهم وأذقانهم ، لا بل وأجسامهم مرة كل ثلاثة أيام ! وكان مما يثير سخطهم وسخريتهم أن يروا الشعور المرسلة الكثة في صور الرعاة أو بعض الأجانب ، وكانوا يصورون الرجل الريفي وقد طال شعر رأسه ، كما صوروا شعور بعض الثوار وقد طالت حتى تدلت على أكتافهم .

ولقد كان غسل الملابس من الأعمال المنزلية التي استحقت في نظر المصريين القدماء تصويرها بالتفصيل على جدران المقابر ، ويتضح من هيئة الحلل الرسمية أن النشا كان يستخدم دائما في تثبيت طياتها .

ولقد كان المصرى شديد العناية بآداب المائدة (١) . فقد ورد في سفر التكوين من التوراة أنه كان لكل من كبار الموظفين المصريين ، وعامة الشعب المصرى والمهاجرين السوريين طريقتهم الخاصة في تناول الطعام ! .

---

(١) يتبين ذلك من نصائح الحكيم بتاح حتب لابنه اذ يقول له : اذا كنت من بين الجالسين على مائدة من هو أكبر منك مقاما ، فخذ ما يقدم لك ، ولا تأكل الا مما يوضع أمامك ، ولا تطيل النظر الى ما وضع — من طعام أمام غيرك ، لأن ذلك مما تشمئز منه النفوس !

وانظر بمحياك الى أسفل الى أن يحييك المضيف .

انظر الادب المصرى القديم جزء (١) ص ١٧٩ ، تأليف الاستاذ الكبير سليم حسن .

ويقول هيرودوت : ان المصريين القدماء لم يكونوا يستعملون السكين ، أو السفود أو أى وعاء خاص باغريقى ، أو يتناولون لحما قطعته سكين أحدهم ، ويرجع ذلك الى عقيدة المصرى بأن معدن الحديد نجس ، وكانوا يؤمنون بأن عظام الاله ست الشرير مكونة منه (١) . وكانوا لذلك يصنعون مداهم من البرونز .

وكان المصريون يجلســـون فى أثناء تناولهم الطعـام على

---

(١) لانعلم علم اليقين سبب ربط المصريين بين الاله ست والحديد ، ولعل سبب ذلك انهم كانوا يعتبرون الحديد معدنا (أسيويا) ، اذ انه أول من استخدمه فى صنع آلات الحرب هم لحيثيون الد أعداء المصريين ، وكانوا كما نعلم من سكان غربى آسيا كما أن الهكسوس الذين غزوا مصر ، وعاثوا فيها فسادا قد (جاءوا) من غربى آسيا أيضا فوق انهم عبدوا الاله ست دون غيره من آلهة المصريين الأخيار ، ولهذا كله ربط المصريون بين كراهيتهم للهكسوس الأسيويى الأصل وبين المعدن الذى كان يستخرج من بعض بقاع آسـيا الغربية وبين الاله ست الذى عبدوه !

هذا هو السبب البادى ، أما السبب الحقيقى فى عدم ذيوع اسـتعمال الآلات الحديدية رغم انتشار استعمالها فى غربى آسيا ، فهو ان تكاليف نقله من مناجمه التى كشفها المصريون منذ عصور أسرهم الاولى ، كانت باهظـــة لبعدها عن الدلتا ووادى النيل ، على حين أن النحاس الذى نجح المصريون فى تحويله الى برونز ، كانت مناجمه قريبة !

على أن الحديد ، كما سـبق أن ذكرنا ، قد وجد منذ العصور الأولى ، ولانجزم بنجاح المصريين فى صنع الآلات قبل عهد الأسرة الثانية عشرة ، اذ وجد فى مقبرة الملك توت عنخ آمون خنجر من الحديد ! ثم أخذت الآلات الحديدية يعثر عليها فى قبور من خلفوه من الفراعنة ، ثم كثر استخدامها فى عهد الأسرة الخامسة والعشرين ! وقد عثر فى بلدة تقراطيس على أفران لصهر الحديد ، ترجع لعصر الاسرة السادسة والعشرين .

الحصر(١) ، وكانوا يستخدمون السكين اذا اقتضى الأمر ذلك ! ولم تكن الشوك معروفة لهم آنذاك ! أما الملاعق فقد استعملوها في عصر ما قبل التاريخ (أي قبل عصر الأسرة الأولى) ولكن أحجامها كانت صغيرة ، ومصنوعة من العاج ! وقد وجدت ملاعق صغيرة الحجم مصنوعة من البرونز كانوا يستخدمونها للدهون العطرية في عصر الأسرة الثانية عشرة ! .

كما كانوا يستعملون ملاعق مصنوعة من البرونز أيضا على هيأ المجرفة (الكريك) في عصر الأسرة التاسعة عشرة ، وقد ادخل الاغريق المغرفة التي كانت ولا تزال تستخدم في نقل السوائل من آنية الى أخرى !.

ولقد كان المصريون يحتسون بعض السوائل بقطع البوص (الغاب) أو الانابيب المرنة كأمعاء الحيوانات ؟ .

وان استعمال المصريين لأكواب النحاس ، والتي ذكرها هيرودت في تناولهم الشراب لمن الأمور المألوفة اليوم في شوارع القاهرة

---

(١) يقول العالم ارمان ان الحصير استخدم للجلوس عليه قبل عصر الدولة القديمة ، ولكن منذ اوائل هذه الدولة استبدلت المائدة القليلة الارتفاع والتي يتكون جزؤها السلوى من حجر مستدير بها ، فاستخدمها النبلاء والاغنياء بادىء ذي بدء ، ثم استخدمها بعد ذلك الناس جميعا ، واستبدل بها الأمراء والأثرياء مائدة طويلة (مرتفعة) . انظر مصر والحياة المصرية في العصور القديمة : تأليف دراتكه : ترجمة الاستاذين عبد المنعم ابو بكر ومحرم كمال : ص ٢٠٢ .

وغيرها من المدن المصرية (١) .

ولقد استعمل المصريون قرب الماء منذ عصر ما قبل التاريخ ، وقد وجدت بعض السدادات المصنوعة من العاج أو الحجر لسد فوهاتها .

ولقد بدأ ظهور المدى النحاسية التي كانت تستعمل لسلخ جلود الحيوانات خلال الحضارة الثانية من حضارات ما قبل التاريخ ! .

وانك لتشاهد شكل قربة الماء ، وقد ربطت من طرفيها بحبل من جلد تحمل به ، في الرسومات التي ترجع لعصر الدولة القديمة، وهي شبيهة بالقربة التي يستعملها السقايون في الوقت الحاضر .

---

(١) كان المصريون يمرحون كثيرا في الحفلات ، وكانوا يكثرون من شرب الخمور التي كانت تفقدهم اتزانهم فيزبطون ويصخبون ! وكانت بعض نسائهم يشاركنهم في ذلك في كثير من الاحيان ! وهناك في احدى مقابر طيبة صورة على أحد جدرانها تمثل سيدة أفرطت في شرب الخمر فبدأت تترنح فسارعت اليها احدى خادماتها لتقدم لها كأسا به سائل ، كان معروفا لديهم اذ ذاك من خصائصه المساعدة على القيء ، لتفرغ ما في جوفها !

ولكن الى جانب ذلك كان عقلاء تلك العصور وحكماؤها ، وحفظتها على الأخلاق الكريمة لا يوافقون على تلك الحياة العابثة الماجنة ، فيقول الحكيم آني في نصائحه الى ابنه خونسو حتب :

لاتفرط في شرب الجعة ، لأن لشاربها فلتات لسان ، يستقبح صدورها منه ، متى يفيق ويعود اليه رشده ، وهو دائما منبوذ محتقر من الناس حتى من أمثاله الذين يشاركونه في تعاطيها !

ومن نصائحه أيضا «لاتدخل بيت السكير ، ولو كان دخولك يعود عليك بالخير !

وقد وجدت في أقدم السجلات التي دونها المصريون القدماء، ما يشير الى شربهم للجعة والخمر .... ولقد كانت الخمر تقدم في الحفلات والولائم ، ولم يك ثمة لوم أو تثريب على شاربيها ، والسكارى منهم بخاصة حتى عهد الأسرة التاسعة عشرة! ففي عهد الاسرة السابعة عشرة ، كان الخدم يقدمون لضيوف أسيادهم كئوس الخمر ليشربوها حتى الثمالة لتدخل عليهم السرور ويقضوا وقتا سعيدا ! وفي ذلك تقول سيدة من أهل ذلك العصر للساقي « اعطني ثمانية عشرة كأسا من الخمر لأنني أحبها حبا جما ! ويظهر أن تباهيها بحب الخمر لم يكن آنذاك مدعاة لتوجيه النقد أو اللوم اليها أكثر من الذهاب لمشاهدة حلبة ملاكمة أو مصارعة في وقتنا هذا ! .

وفي عصري الفرس والبطالمة أدى انهيار أسس الحياة القومية المصرية الأصيلة بتأثير عاداتهما وتقاليدهما وسلوكهما التي كانت تختلف جد الاختلاف عن عادات وتقاليد وسلوك المصريين الى التردي في حمأة الترف والاستهتار والانغماس في تعاطي الخمور وغيرها من المسكرات ! .

وسائل المحافظة على الممتلكات

لقد كانت الأختام تستخدم منذ ما قبل الأسرة الأولى في ختم الوثائق التي تثبت تملك الناس للعقارات والممتلكات الأخرى على

اختلاف أنواعها ، محافظة عليها من ادعاء المدعين ! .

ولقد استقينا علمنا بعصــور الأسرات المصرية الأولى من بصمات الأختام الرسمية على الأواني والجرار الملكية .

ولقد استمر استعمال تلك الاختـام الى عصر الأسرة السادسه والعشرين ! فكانت الصناديق والحقائب والرسائل ، وكذلك الجرار الكبيرة والأبواب تربط بالحبال ، ويوضع قدر من الصلصال على العقدة ، ثم تختم بالخاتم . وكانت تلك الأختام على هيئة اسطوانات تمرر على الصلصال ؟ وكان ذلك في عصر الدولة القديمة ! وما جاء جاء عصر الأسرة الثانية عشرة حتى كانت تلك الأختام الاسطوانية قد استبدل بها أخرى مستوية ! .

ويبدو أن ذلك حدث في عهد الاسرة الثامنـة وكان أقدمهـا أختام الملك تلولو (١) .

ولقد استعملت الأقفال لأول مرة في العصر الروماني ! وكان القفل آنذاك يتكون من مزلاج تثبته عندما يراد قفلَ الباب سقاطات اسطوانية صغيرة من الخشب ، ويرفعها مفتاح اذا أريد فتحه ! .

---

(١) هو الفرعون نفركارع تلولو ، حكم في الدلتا في عهد الأسرة الثامنة اي في فترة الاضمحلال والتسيب والفوضى ، التي أعقبت سقوط الدولة القديمة، ويدل اسمه على أنه من أصل سامي ولذلك لا يستبعد ان يكون من احد الغزاة الاقوياء الذين غزوا الدلتا من الشرق .

وقد أصبح القفل في أواخر العصر الروماني على هيئة مزلاج ذي ثقوب تثبت فيه أسنان من الخشب تسقط في تلك الثقوب ، وكان المفتاح يستعمل لرفع هذه الأسنان من الثقوب ، ويؤدي في الوقت نفسه عمل المقبض للمزلاج ! وهذا ما يشاهد في ريف مصر في الوقت الحاضر .

بعض العادات والتقاليد

من التقاليد التي كانت متبعة في العصور الأخيرة أنه كان اذا أخطأ رجل أو امرأة خطأ بسيطا أمرت المرأة أن تركع على ركبتيها ، ثم تضرب على كتفيها بعصا قصيرة ! أما الرجل فكان يطرح أرضا منكبا على وجهه بعد أن توثق يداه ورجلاه من خلاف وينهال عليه ضربا وجيعا ! .

ومن العادات المرعية أن الرجل اذا مثل أمام أحد العظماء ينحني وتلمس يداه ركبتيه ! وكان ذلك هو الشأن في أيام هيرودوت الذي روى أن تلك الطريقة كانت هي الاسلوب السائد لتحية العامة للعظماء ! .

أما اذا مثل أحد أفراد العامة أو أحد صغار الموظفين أمام الملك فكان يخر على الأرض ساجدا وتلمس جبهته الأرض ، كما يفعل المسلمون في سجودهم في أثناء الصلاة ! أما كبار الموظفين فكانوا يكتفون ظهورهم ، وبخاصة في عصر الاسرة الثامنة عشرة .

وكان اذا جاء ضيف منزل رجل لزيارته ، وكان متغيبا ، سارعت ابنته الرشيدة لاستقباله وهى باشه ، طلقة المحيا ، مبدية الود والسرور بمقدمه .

أما سلوك المصريين عامه ، وفى عهد الأسرة الثانيه خاصه ، فاننا نستشمه من أقوال آنتف ! فاستمع قوله :

انى ممن يحترمون الناس ، ويذللون لهم الصعاب التى تعترضهم ، ويكتنهون ما فى قلوب الناس ، انى حازم ولبق اذا ما عزمت على أن أحول دون حدوث ما يصيب الناس بالضرر ، أو أسوى أمرا عسيرا ، انى طيب القلب ، ولست سريع الغضب والانفعال ، ولست ممن يمسكون بتلابيب الناس ويطرحونهم أرضاً ، مهما كانت الأسباب الداعية الى ذلك ، انى ممن يواسون الحزانى ، بأن ألقى فى مسامعهم بألفاظ عذبة تنسيهم أحزانهم . !

ويقول آنى وهو من أشهر حكماء الأسرة التاسعة عشرة :

اذا أردت أن تصلح بين المتخاصمين ، فأحسن انتقاء الألفاظ التى تلقيها على مسامعهم ، فان الخطاب الجيد يميل قلوب الناس اليه فيتقبلونه قبولا حسنا ويعملون به ، واذا طهر الصديق قلبه من الشرور ، حسنت أعماله ، وانتفع بها أصدقاؤه ، وأصبح بذلك بمأمن من تقدمهم اياها ، فحذار من فقد صداقة الخلان .

ولقد كان المجلس المحلى للسراة مدرسة لآداب السلوك ! وفى

ذلك يقول الحكيم : اذا كنت رجلا ناجحا وعضوا فى المجلس فلحصر ذهنك فيما يبشر بالنجاح وان صمتك أجدى عليك من القاء الأقوال جذافا من غير تبصر !»

ولقد كان من التقاليد المتبعة تقديم القرابين وصلوات الشكر قبل اقامة الولائم • ولقد ذكر يوسف اليهودى (١) المؤرخ أنه عندما استقبله بطليموس الثانى (فيلا دلفوس) أبعد المنادين المقدسين (Heralds) وأولئك الذين يقومون بذبح الضحايا ، والذين كانوا يتلون صلاة الشكر ، ولكنه استدعى القس اليزار (١) وطلب منه أن يتلو صلاة الشكر ، فوقف بينهم ودعا فى صلاته للملك ورعيته بالهناءة والسعادة •

وكان من التقاليد المرعية آنذاك أنه اذا دعى بعض سراة المصريين الى وليمة جاءوا منزل الداعى فى عربات يحف بها الخدم ذات اليمين وذات الشمال ، وذلك اذا كانت منازلهم تبعد عن بيت الداعى بعض البعد ، أما اذا كانت قريبة منه ، جاءوا مشيا على

---

(١) كان يعيش يوسف اليهودى فى الاسكندرية فى أوائل القرن الأول الميلادى ، وقد ألف كتابا للرد على مطاعن العالم السكندرى ابيون ضد اليهود ، وقد نقل عن المؤرخ المصرى مانيتون جزءا من كتابه الذى أفرده للتحدث عن الهكسوس ، وكان هدف يوسف من ذلك أن يثبت أن يهود مصر من نسل ملوك الهكسوس الذين غزوا مصر وتربعوا على عرشها حقبة طويلة من الزمن ، وقد تلاعب بالالفاظ كشأن أفراد قومه لتحقيق غرضه ، ولقد خدم يوسف تاريخ مصر من غير قصد ولا رغبة منه ، لأنه نقل لنا جزءا من كتاب مانيتون القيم الذى فقدناه !

الأقدام ! وكان خدم الداعي يقفـــون في حديقـة منزله مصطفين لاستقبالهم ، وليقدموا لهم الشراب والفاكهة من أوان مرصوصـــه أمام باب المنزل ! ثم يرشدونهم الى مكان الوليمة ! .

فاذا ما جاءوه قدم لهم الخدم أواني مملوءة بالماء لغسل أيديهم ! وكانت أوان الماء الذي كان الضيوف يغسلون به أيديهم في الولائم الملكية من الفضة الخالصة ! وكانت تقدم للضيوف بعناية حتى لا ينسكب منها قطرة ماء على الطنافس ، فاذا ما اتخذ الضيوف مجالسهم ، طافت عليهم غادات حسناوات ليضعن أكاليل الزهـور حـول أعنـاقهم ،

= (١) هو الكاهن الاكبر لمعبد اليهود في أورشليم آنذاك !

ويشير المؤلف الى ماذكره يوسف اليهودي عن الترجمة السبعينية للتوراة ومؤداها أن الملك بطليموس الثاني أراد أن يترجم التوراة الى اللغة اليونانيـة خدمة ليهود الاسكندرية الذين كانوا يؤلفون جالية كبيرة كانت تسكن حي دلتا (ومكانه حي الشاطبي الحالي) فأرسل الى اليزار كبير الكهنة بأورشليم ، رسالة يطلب فيها سبعين عالما ويقول يوســف أن هؤلاء عكفوا على ترجمة التوراة ، منعزلين بعضهم عن بعض ، ولما أتموها بعد سبعين يوما ، قورنت تراجمهم بعضها ببعض فوجدت انها تطابق بعضها بعضا ! ويذهب دكتور ابراهيم نصحي الى أن « الشواهد التاريخية تدل على أن هذه القصة مخترعة لأن ترجمة التوراة امتدت طوال القرون الثلاثة السابقة لميلاد المسيح » (انظر تاريخ مصر في عهد البطالمة ج ١ ص ٢٧٠) .

أما بيفان فيذكر أن التوراة لم تتم ترجمتها كلها ، كما ورد في رواية يوسف اليهودي ، ولكن ماترجـــم منها كان كتب القـــوانين الخمســة فقط (انظر (Bevan : The Ptolemaic Dynasty, p. 112). ولعل الســبب في ذلك يرجـع نسيان يهود الاسكندرية آنذاك لغتهم العبرية وتفاهمهم باللغة اليونانية الامر الذي دعاهم الى طلب ترجمة القوانين الخمسة ، لانهم كانوا يحاكمون وفقـا لقانون موسى .

ويضعن الدهون في هيئة أقماع مخروطيـة الشـكل على رءوسهم العارية أى على شعورهم المصففة ، التي كانت تمتص الدهـون وكأنها قطع من الاسـفنج سكب عليها بعض الماء ! كمـا كن يضعن في يد كل ضيف زهرة من زهـور اللوتس ! ثم تدار بعـد ذلك كئوس الشراب عليهم ! .

وكانت الراقصـات الهيفاوات وعازفات الموسيقى والمغنيات يشرحن برقصهن وموسيقاهن وأغانيهن صدورهم ، ويضفين على الحاضرين جميعا جوا من المرح والسرور ! فاذا ما انتهت الوليمة ، عرض المضيف على ضيوفه وهم سكارى نموذجا لمومياء في تابوت طوله ذراع أو أكثر قليلا .

وكان بلوتارك (١) يرى أنه كان يقصد بذلك حث الضيوف على التمتع بمباهج الحياة الدنيا قبل أن يصيروا ان آجلا أو عاجلا كهذه المومياء ! .

على أن هذا العمل كان يمثل ناحية من نواحي التفكير المنظم الذي اتصف به العمل المصري منذ القدم ، كمـا يتبين ذلك من الأغنية التي كانت تغنى في أحفالهم !.

---

(١) بلوتارك مؤرخ يوناني عاش في أوائل القرن الثاني الميلادي ، جاء مصر واقام فيها وكتب كتابا عن العقائد والتقاليد والعادات المصرية القديمة . واهم ما جاء في كتابه ما ذكره عن قصة ايزيس وأوزيريس .

صنع نصب عينيك التمتع بالموسيقى والغناء
واطرح جانبا أسباب الأسى والألم
ولا تذكر الا المرح والسرور
حتى يحين يوم الرحيل
الى المكان (١) الذى يخيم عليه الصمت !

وهناك لون آخر من ذلك المزيج من الفرح والحزن والمرح والأسى ، يتمثل فى أغنية مانيروس (٢) ، وهو الابن الوحيد لأول ملك من ملوك مصر القديمة ، وقد خطفته المنون وهو غض الاهاب! ولقد خلد المصريون ذكراه فى هذه المرثية الحزينة التى أطلق عليها بعد ذلك : لحن أدونيس لفناء الكون ! .

هذا وتمثل الرسـوم المـوجودة على بعض الآثار المصرية الضيوف وهم جلوس وليس أمامهـم موائد (٣) ، بينا يقدم لهـم الخدم صحاف الطعام الواحدة تلو الأخرى ، ويذكر اثنايوس أنه لم

---

(١) يقصد القبر !

(٢) هذا هو تفسير هيرودوت لهذا النشيد ، ويضيف على ذلك انه كان ينشد فى فينيقية وقبرص وغيرها من الاقطار المجاوره لمصر ، وانه يشبه النشيد الذى كان ينشده الاغريق باسم لينوس ! ويعلق الاستاذ وهيبه كامل على ذلك بقوله : ان كلمة مانيروس يبدو أنها حورت من العبارة المصرية « ما — ان — هرا » ومعناها جئنا للنية . (أنظر كتاب هيرودوت فى مصر فقرة ٧٩) .

(٣) يلاحظ ما سبق أن قلناه عن أرمان بهذا الخصوص راجع حاشية سنة ١٩٣ (ص ٥) .

تكن توضع للضيوف موائد على الاطلاق ، وانما كانت تقدم لهم صحاف الطعام ، وهو تقليد كان يتبعه سكان أقطار البحر المتوسط ، وأنه لا يزال متبعا فى أسبانيا (١) حتى اليوم .

ولقد كان العشاء عند المصريين أفخر من العشاء عند الفرس !

ولقد كان فى المدن المصرية فى العصر الرومانى حدائق عامة تقام فيها الولائم ، ويؤمها الرجال والنساء والأطفال للمرح والترفيه عن النفس ! وخير مثال لها حدائق اليوسس (Eleusis) (٢) وحدائق كانوبس (Canobus) (٣) بضواحى الاسكندرية ! وفيها كان روادها ينغمسون فى حياة بوهمية اباحيه صاخبة ، فكنت ترى جموعا من الرجال والنساء آناء الليل وأطراف النهار ، يستقلون الزوارق ، وقد أطلقوا لأنفسهم العنان فى الغناء والرقص ، مع

---

(١) استرابون : الكتاب الثالث .

(٢) مكانها الآن المنطقة التي تشغلها أحياء الابراهيمية وأسبورتنج والحضرة وحديقة النزهة ، وكان قسمها الشمالى يعرف باليوسيس الحمامات .

(٣) وهى ضاحية أبو قير الحالية ، التى كانت مزدهرة فى العصرين الاغريقى والرومانى ، وسميت بذلك لأن فرع النيل المسمى الكانوبى كان يصب فى البحر على مقربة منها ! وكان بها معبد الاله سيرابيس ذاعت شهرته فى هذين العصرين وكان يقصده المرضى طلبا للشفاء ! وقد سكنها بعض القديسين فى العهد المسيحى ومنهم القديس الأنبا كير الذى اشتقت من اسمه اسم الضاحية أبو قير . هذا وقد أخذت المدينة تضمحل عندما انسد الفرع الكانوبى ، وتحول الى فرع رشيد !

التحرر التام من كافة حدود السلوك القويم والتقاليد المرعية (١) ! •

ولقد كانت تقام في الجبانات ولائم جنائزية ، ومازلنا الى اليوم نرى بعض الأسر تزور مقابر أمواتها احياء لذكراهم ، وتقضى بعض الوقت في غرف خاصة ملحقة بها ! •

تعداد السكان

لقد حفظت لنا الآثار المصريه عددا كبيرا من القوائم الخاصه بتعداد بعض الأسرات في عصر الأسرة الثانية عشرة ! ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر بيان بأسماء أفراد أسرة هيبا ابن الجندى تحوتى بالفرقة الثانية من الفرق النظامية المعسكرة بمدينة « وعسرت » الشمالية (٢) • ومن بين أولئك الأفراد زوجته شبنست ابنه سات سيدو ، وابنه سنفرو ، ووالدته حار أختى (Harakhni) وأخواته كات سنوت ولكتن وايزيس ورودت وسات سنفرو ! •

ولقد عثر على قائمة بأفراد أسرة سنفرو بن هيبا يرجع تاريخها الى السنة الثالثة من حكم الملك سخم كارع ، ذكر فيها اسم أمه ، واسم جدته ، واسماء عماته ! •

---

(١) كان أهل الاسكندرية يستعلون القوارب بعد تزيينها بمختلف الزينات، ويتجهون بها شرقا نحو مدينة كانوب مسالكين قناة كانت تصل بينها وبين الاسكندرية ، وسط مظاهر الفرح والبهجة والسرور وكان كثير من الموبقات ترتكب في تلك القوارب حتى ذاعت شهرة هذه الملاهي الماجنة ، حتى أطلق على جميع أنواع الملاهي الماجنة آنذاك اسم ملاهي كانوب الفاجرة .

(٢) مكانها بلدة صان الحجر الحالية جنوب بحيرة المنزلة .

وقد أدى أفراد تلك الأسرة يمين الولاء والطاعة للملك في حضرة الوزير وأحد العظماء العشرة للوجه القبلي وكان يدعى متومحات وثلاثة آخرين ، ثم سجلت أسماؤهم في سجل خاص ! وكانت أفراد كل أسرة تسجل مرة أخرى في العام التالي لوفاة ربها ، باعتبار أن ابنه أصبح ربها وعائلها ! وبعد مرور عامين على وفاة العائل الأول كان أفرادها يؤدون يمين الولاء أمام الوزير نائبا عن الملك ! وبحضور أحد أعضاء مجلس الثلاثين ، وثلاثة من المسجلين الرسميين كشهود ! .

وهذا يبين مدى الدقة التي وصل اليها نظام التسجيل فيمصر القديمة ، حتى في حالة عدم وجود ثروة أو ممتلكات لعائل الأسرة المتوفي !

وكان التسجيل قد شمل جميع أفراد الأسرة بما فيهم الأطفال وهم في مهودهم ! .

ولقد كان أساس الأسرة المصرية يرتكز على نظام الأمومه فقد كان الزوج سواء أكان موظفا أو تاجرا أو زارعا ، يتبوأ مركزا ثانويا فيها ، وكانت الزوجة تتبوأ مركز الرياسة في تدبير شئونها ، كما كان البيت أثاثه ورياشـــه ملكا لها ، واذا ماتت ورثهـا بناتها لا أبنـاؤها ! ولهذا كان زواج الأقارب محبيـــا ! ولا يزال حتى وقتنا هذا زواج بنات الأعمام بابناء أعمامهم مفضلا على زواجهم من الغرباء ! ولعل علة هذا حرص الأسر على ألا تتوزع ممتلكاتهـا بين

الغرباء ! فتنفصم عراها ! وفي ذلك يقول ديودورس المؤرخ المشهور: لقد كان القانون في مصر خلافا لتقاليد الشـعوب الأخرى كافة يجيز ان يتزوج الاخوة من أخواتهم(١)! وقد ورد في قصـة ستنا (Setna) ما يأتي : ليس لى الا هذين الطفلين فمن الصواب أن يتزوج أحدهما الآخر • ولقد قال روماني : انك في أثينا تستطيع أن تتزوج أختك من أمك أو أبيك ، ولكن في الاسكندرية تستطيع أن تتزوج من شقيقتك ! وينبغي لنـا أن نذكر فيما يختص بعـادة زواج الأخ من أختـه عند قدماء المصريين أن تلك العـادة لم تكن مقصـورة عليهم بل كانت سـائدة في أقطـار كثيرة من فارس الى بريطانيـا ! على أن موانع الزواج من الأقارب التي نظمها العـرف ثم القانون لم تنشأ الا في العصـور التاريخية المتأخرة • وتعتبر نظم الزواج من أحدث نظم الحياة التي خضعت لسلطان القانون ، ولقد أدى نظام الأمومة القوى المتين في مصر القديمة الى أن تأول الثروة العقارية كما قدمنـا الى النسـاء دون الرجال ! وكان ذلك من الحوافز القوية التي أغـرت الأخـوة بالزواج من أخواتهـم لـكي

---

(١) قد يبدو من الغرابة بمكان زواج الملك سنفرو ورمسيس الثاني من ابنتيهما ، ولكن كمـا يقول المؤلف : ان هاتين الحالتين كانتـا الوحيدتين لهـذا النوع من الزواج في التاريخ المصرى القديم كله ، وبذلك يكون ذلك استثناء لا قاعدة وعلى ذلك لاينبغي أن يقال ان المصريين القـدماء كانوا يتزوجون بناتهم !

ولا نعلم حتى الآن علم اليقين السبب الذى حـدا بهما الى هـذا الزواج !

يحتفظون بالميراث ، اذ كان الزواج من الأخت يؤدى الى الجمع بين ممتلكات الأم وميراث الأب ، أما فيما يتعلق بزواج الأب من ابنته فليس لدينا أمثلة لذلك في حياة عامة الناس ، ولكن لدينا مثلين مؤكدين في حالتي ملكين من عظماء الملوك ألاوهما سنفرو ورمسيس الثاني فقد تزوج كل منهما ابنته ! .

وقد تكون وراثة العرش مقصورة على فرع الأمهات في عصر ما قبل التاريخ ! ولكن في عصر الأسرة الأولى كانت الوراثة محصورة في الأبناء . أما في عصر الأسرة الثانية فقد اعترف بحق النساء في تولى الحكم نتيجة لسيطرة اتباع الاله ست على سياسة الدولة (١) ، وبذلك استرد البنات حقهن في حصر وراثة العرش عليهن دون الأبناء . ولم يتول سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة العظام الا لأنه تزوج بابنة آخر ملك من ملوك الأسرة الثالثة (٢) . ولكن لم تلبث أن أصبحت وراثة العرش قاصرة على الأبناء ، وفي عصور الاسرات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة بخاصة ! ولكنها عادت فصارت حقا للنساء ، في عصور

---

(١) يرى بعض المؤرخين ان اتباع الاله ست الشرير كانوا يحتقرون هذا المبدأ تشبها بالههم ست الذى تزوج اخته نفتيس ! ومع ذلك فلم يكن غريبا أن يتزوج ست من أخته فقد تزوج الاله أوزيرس الخير من أخته ايزيس كما جاء جاء في قصة ايزيس وأوزيريس وست المشهورة .

(٢) لقد تزوج سنفرو من حتب حرس ابنة سلفه الملك حو وأعقب منها الملك خوفو العظيم .

(٣) يرى البعض أن النساء ظللن يتمتعن بذلك الحق في عهد الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين .

الأسرات الثمنه عشرة والتاسعه والعشرين والواحد والعشرين (١) وما كان تولى ملوكها العرش مرهونا بالزواج من وريثاته الشرعيات .

وقد ابتدعت الأسرة الخامسه والعشرين قانونا يقضى بمشاركه الأخوات اخوتهن فى وراثة العرش حتى ولو كن كاهنات ! ولقد كان يتبع هذا النظام نظريا فى عهد الأسرة السادسه والعشرين ! فقد كان الملوك يتزوجون زواجا صوريا من وارثات العرش ، قبل توليه ! وقد كان الملك يقيم فى مقر الملك فى الشمال بينما تقيم الملكة شريكته فى الملك فى طيبة متربعة فى منصب كاهنة عظمى ! ولم يكن آنذاك مانع قانونى يحول دون الملك وزواجه من أخرى ! وكثيرا ما كانت أولئك الملكات الكاهنات تتبنين فتيات اذا لم تكن لهن بنات ! .

ويرى بعض المؤرخين أن قمبيز ملك الفرس عندما طلب القربى من ملك مصر امازيس (٢) بالزواج من أحد بناته كان يهدف الى أن يصير لأبنائه منها الحق فى تولى عرش مصر . ولما فتح قمبيز مصر كان عزاء المصريين أنه يمت الى ملوكهم بصلة النسب (٣) .

---

(١) يرى البعض أن النساء ظللن يتمتعن بذلك الحق فى الاسرتين الثانيه والعشرين والثالثة والعشرين أيضا .

(٢) هو الملك أحمس الثانى من ملوك الأسرة السادسة والعشرين ! وقد كان أحد كبار الموظفين فى بلاط سلفه الملك ابريس فتآمر عليه ونجحت المؤامرة . فنحاه وخلفه على عرش مصر :

(٣) يقول هيرودوت أن قمبيز أراد أن يتقرب من الملك امازيس (هكذا ينطق الاغريق لفظ أحمس المصرى) فأرسل اليه يطلب يد ابنته ، فأرسل اليه الأميرة نيتيتس ابنة الملك المخلوع ابريس بدلا من ابنته ، وأن قمبيز كشف خدعته ، فحلف قمبيز أن يعاقبه عقابا صارما .

ولما تولى البطالمة حـــكم مصر اتبع ملوكهم نظـام الزواج من أخواتهم ، فتزوج بطليموس فيلادلفوس أخته أرسينوى على الرغم من استنكار مواطنيه المقدونيين ذلك ! واستمر اتباعهم لذلك التقليد طوال عهد حكمهم لمصر ، فكان العرش والحال هذه كممتلكات الأسرة الأخرى يتوارثه عمليا أو نظريا فـرد من أفـراد فرع الأم ! وكان يتزوج الاخوة أخواتهـــم الشقيقات أو غـير الشقيقات الوارثات الشرعيات للعرش ، ليصبحوا ملوكا ممثلين الاله رع أو الاله أمون على الأرض ! فلقد كان معنى اسم الملك توت عنخ أمون ، الصورة الحية لأمـون ! ولما ادعى الكهنة المصريون أن الوحى نزل عليهـم وانبـأهم بأن الاسـكندر هو ابن الاله آمـون صـــدقهم المصريون فتوطدت دعائم سلطان ذلك القائد المقدونى المظفر على عرش مصر .

وكل ما سبق ذكره يتعلق بالناحيه السياسيه المبحتة الخاصـة بوراثة العرش ! ولا علاقه له بمن يتخذهم الملوك زوجات لهم من نساء مصر ، أو من بنات الأمراء أو الملوك الأجانب اللاتى يتزوجوهن زواجا سياسيا . ومن أشهرهن الفجر ابنة ملك الحيثيين التى أضفى عليها لقب « الزوجة الملكية العظمى » سيدة الأرضين مات نفرورع ، (Moat-nefro-Ra) ابنة عاهل خيتا (١) العظيم .

---

(١) خيتا هى التسمية المصرية القديمة للحيثيين .

ولقد صورت حياة الحريم على آثار تل العمارنة ، فترى فى الصورة الفتيات الحسناوات يرقص بعضهن ، ويعزف على الآلات الموسيقية بعضهن ، وتصفف بعضهن شعورهن ، وتتناول بعضهن الآخر الطعام! كما ترى بعض غرف المنازل وقد صفت فيها المقاعد وزينت بالمرايا ! ووضعت فى جوانبها الصناديق !

ولقد كان تعدد الزوجات متبعا بين ملوك مصر كما كان متبعا بين معظم ملوك الأقطار الأخرى !

ولقد برهنت الحوادث ومجريات الأمور فى عصور كثيرة على أهمية زواج الملوك المصريين بأميرات أجنبيات كرابطة من أقوى الروابط وأفضلها ، التى من شأنها أن تدعم التحالف السياسى بين مصر والأقطار الأخرى .

وقل أن نرى أطفالا من زوجتين أو أكثر لأسر الطبقات العالية التى تركت آثار مسجلة فى عدد من التماثيل ، غير أن أكبر مجموعة من تلك التماثيل الأثرية ، تمثل زوجة رب الأسرة الأولى ، وكانت عاقرا ، وبجانبها خمس زوجات أخريات لهن كلهن أطفال ، وكان عددهم اثنى عشر ، خمسة بنين وسبع بنات . ويبدو أن الزوجة الأولى تزوجها رب الأسرة على الرغم من أنها لم تكن آنذاك فى مقتبل العمر لأسباب اجتماعية ، اذ أنها كانت احدى المزينات الملكيات ، على أن تعدد الزوجات لم يقف عقبة فى مصير الأبناء ،

فقد كانوا يعتبرون جميعا أبناء شرعيين ، مهما كانت منزلة الأم التي أنجبتهم ! على أن الكهنة أو القساوسة كانوا يتزوجون بواحدة ! وكذلك كان الشأن بالنسبة لعامة الشعب !

ولقد كانت حقوق الورثة الشرعيين تحاط بعناية كبيرة فقد كانت تحددها وتبينها وثائق ومستندات رسمية ! ولقد عثر الباحثون على وصية لأحد أبناء خفرع أحد ملوك الأسرة الرابعة وباني الهرم الثاني ، يوصي فيها لابنته بضيعتين ، ولما توفيت وهو على قيد الحياة ، أوصى بها لزوجته ، أما ممتلكاته الأخرى في أربع عشرة قرية من قرى الريف ، فقد أوصى بها لزوجته وأبنائه موضحا فيها نصيب كل منهم ! •

ولدينا بعض الوصايا والوثائق في حال جيدة ترجع الى عصر الأسرة الثانية عشرة ، منها وثيقة يرجع تاريخها الى السنة التاسعة والعشرين من حكم الملك أمنمحات الثالث تتضمن شراء آحي سنب ابن شبست امرأتين اسيويتين من قبيلة العامو وطفليهما ، وقد وجدت مسجلة في مقبرة الوزير خيتي •

وبعد ذلك بخمسة عشرة عاما أي في السنة الرابعة والأربعين من حكم ذلك الملك نفسه ، نجد وثيقة تملك ، أو وصية ، أوصى فيها آحي سنب والشهير بعنخ رن بجميع ضياعه وممتلكاته الأخرى من منازل وعقارات أخرى وما ملكت يداه لأخيه ورفقاء حياته المخلصين •

ويبد وأن آحي سنب صاحب الوصية قد توفي بعد كتابه وصيته بوقت قصير ، ويتبين ذلك من تسجيلها بعد مضى أربعة أشـهر في مصلحة السجلات ، ومن تسجيل أخيه واح وصية يوصي فيها بجميع ما أوصى له به أخــوه لزوجتــه شــــفتوتيتا (Sheftu-Teta) وذلك بعد مضى خمسة أيام فقط من تاريخ تسجيل وصية آحي سنب ! ومما ذكره واح في وصيته لزوجته انها حرة في أن تهب ذلك الميراث حال حياتها أو توصى به بعد موتها لمن تشاء من أبنائها الذين انحدروا من صلبي ! ومنها اني أوصي لها بالاربع الاماء الاسيويات من قبيلة العامو اللاتي ورثتهن من أخي « عنخ رن » وهما الرقيقتان وابنتاهما اللاتي سبق ذكرهن ، ولابد أن تكون الابنتان قد بلغتا آنذاك السابعة عشرة) .

ثم يوصي بأن يدفن في مقبرته الخاصة ، ومعه زوجته دون سواها ! .

وقد عين صـديقا له يدعى جيبو وصيا على ابنه ، ويأتي بعد ذلك أسماء الشهود الثلاثة على ما جاء بهذه الوصية ! .

وهذا يلقي بعض الضوء على نظام الرق في مصر القديمة(١)

---

(١) لقد انتشر نظام الرق في مصر في عصري الدولتين الوسطى والحديثة ، لانهما كانا عصري الفتوحات المصرية العظيمة التي شملت ربوعا كثيرة من الشرقين الادنى والاوسط وقد عادت الجيوش المصرية الظافرة بعد استيلائها على اقطار كثيرة بعدد كبير من الاسرى ــ رجالا ونساء واطفالا ــ فكانوا يباعون ويؤجرون ، شأنهم شأن السلع والبضاعات . وكان الملك الغازي يتركهم لمن اسرهم تارة ، وتارة يوزعهم جميعا على الجنود الغازين جميعا .

ذلك أنه كان لكل من هاتين المرأتين الرفيقتين من العامو طفلة واحدة وقت شرائها ، وبعد مضى خمسة عشر عاما ظل عددهن فى الوصية الثانية أربعا ولم يذكر معهن أطفال آخرون ! وهذا دليل قاطع على أنهما لم يتزوجا ، ولم يتسرى بهما أحد .

وان أقدم وثيقة لعقد الزواج المصرى عثر عليها الأثريون يرجع تاريخه الى سنة ٥٩٠ق٠م وبما أن نصه يتفق تماما مع نص عقد آخر عثر عليه ويرجع تاريخه الى سنة ٥٥٠ق٠م، فانا نرجح انهما كانا نموذجا ظل متبعا حقبة طويلة . وفى هذا العقد نص على أن « ا » قد حضر الى منزل « ب » ليطلب يد ابنته (جـ) ، على أن يقــــدم (ب) ٦ أوقيات من الفضة وخمسين مكيا لا من الحنطة كدوطة لابنته «جـ» ، وأن يتعهد (٣) بأنه اذا هجر زوجته (جـ) كارها أياها ، أو بسبب رغبته فى الزواج بأخرى،يقوم برد الدوطة ، ويستثنى من ذلك هجره أياها لارتكابها جريمة الزنا ! وبأن يورث من تنجبه له من الأطفال نصيبا يذكر مما تركه له والداه .

ولقد كانت تلك « الدوطة » تقدر بحوالى عشرين جنيهـا مصريا (١) .

ولقد قدرت دوطة أخرى بنحو ثلاثين جنيها ! .

---

(١) مقدرة بما يساويه الجنيه المصرى وقت تاليف الكتاب اى فى سنة ١٩٢٣م

وقد تسلمت احدى البنات عند زواجها ، من أبيها دوطـــه قدرت بكأت واحـــد أى بحوالى جنيه واحـــد ! وقد تعهدت بدفع نصف مقدار الدوطة فوق الدوطة نفسها لزوجها اذا هجرته !.

ولقد كانت صـــيغة الطلاق المصرى كالآتى : لقد هجرتك كزوجـة لى ، وانتى أفارقك وليس لى مطلب على الاطلاق ! كمـا أبلغك أنه يحل لك أن تتخذى لنفسك زوجا آخر متى شئت ، وفى عقد زواج ليهودى من اليهود الذين كانوا يسـكنون الفنتين (١) يرجع تاريخه الى ٤٤٧ ق . م ما يأتى .

أشور يتزوج مفتاحيا ابنة محسـيا . ويعطى محسيا الزوج خمسة شاقل (٢) ، ويعلق على ذلك بقوله له « لقد تقبلت هذه الهبة واطمأن قلبك الى ذلك ، ويقدم محسيا لابنته الملابس وأدوات الزينة، كما يقدم للزوج هدايا محددة أثمانها فى العقد ، فاذا مات آشــور من غير أن ينجب من مفتاحيا فسوف يؤول اليها كل أملاكه ! والأمر بالعكس ! .

---

(١) هى جزيرة واقعة أمام مدينة أسوان ، وقد سماها الاغريق بهذا الاسم وهو تحريف للاسم المصرى القديم آبو أى جزيرة الفيل ، وقد يكون السبب فى ذلك كثرة سن الفيل بها فى عهدهم ! وكان يقطنها جالية يهودية كبيرة فى العصر الفارسى .

(٢) الشاقل عملة بابلية تساوى نصف أوقية من الفضة تتراوح قيمتها بين ريالين ونصف الريال وخمسة ريالات وكانت هذه العملة منتشرة فى فلسطين والشام ! ويبدو أن سكان قبيلة اليهود وقد جاءوها مطرودين من بلادهم بعد أن دمرها ملوك بابل وآشور ، قد احتفظوا بالتعامل بتلك العملة البابلية .

وإذا مثلت الزوجة أمام القضاء وقالت : انى أطلق أشور زوجي فإن عليها آنذاك أن ترد له الشاقلات الخمسة ، كما تدفع له كلمـا أعطاه لها من نقود وتعيد له ما قدمه من هدايا ! وعندئذ تكون حرة طليقة تذهب الى حيث تشاء ! والأمر بالعكس .

أما اذا طرد أشور مفتاحيا من بيته من غير أن يطلقها حق عليه أن يدفـع لهـا مبلغـا وقـدره عشرون كبهـز (Kebhes)

ويقر آشور في العقد أنه لا يحق له أن يصرح بأن له زوجة أخرى غير محسيا ولا بنين غير بنيه منها ! واذا ما صرحت بذلك فانه يجب على أن أدفع لها خمسة عشر ضعف ما لها :

ثم يلي ذلك توقيع أربعة شهود :

كما وجد عقد زواج آخر يرجع تاريخه الى عصر البطالمة ، تشابه شروطه شروط العقد السابق ! ففيه قدم الزوج الى الزوجة مهرا مقداره خمسة جنيهات (١) ، وتعهد أن يعطيها راتبا شهريا مقداره عشرة شلنات ثمنا لأدوات زينتها ، ومثله لنفقاتها الشخصـيـة ! وفيه يقول للزوجة : ان ابنك البكر مني سوف يرث كل ما أملك من عقار في الحاضر والمستقبل وانى أقر واعترف أنك زوجتي ، فاذا أهملتك أو اتخذت لنفسي زوجة أخرى غيرك فسأدفع لك ما يساوي

---

(١) مقدار القيمة بالجنيه المصري وقت صدور هذا الكتاب سنة ١٩٢٣ .

مائة من الجنيهات (١) ، كما أقر أن عقود التملك الخاصة بنصف ممتلكاتى التى ورثتها عن أبى ، وكذلك عقود الممتلكات التى ورثتها من أمى سوف تؤول اليك ..

ولم يرد فى العقد شىء خاص بالطلاق ! ولكن جاء ذكر غرامة يدفعها الزوج فى حالة فسخ عقد الزواج ! وفى عقد آخر كان المهر سبعة جنيهات وغرامة هجر الزوجة ثلاثين جنيها (٢) وقد عثر على وثيقة زواج يرجع تاريخها الى العصر القبطى وكانت لابن أحد القساوسة ، جاء فيها :

بما أن مشيئة الله قد اقتضت أن يرتبط أحدنا بالآخر برباط الزواج المقدس الصحيح وفقا لتقاليد الرجل الحر والمرأة الفاضلة، فانى أعطيك مهرا مقداره ستة عشر شلنا (٣) ذهبا ، لكى تجىء الى بيتى كامرأة حرة ، على أنى أقدرك كأنك قطعة منى ، فلا أقلل من شأنك ولا أهملك ، ولا أهجرك الا اذا اضطرنى سبب شرعى هام(٤) فاذا حدث ذلك فسأقوم بدفع سبعين شلنا لقاء ذلك ! وبالعكس .

وهذه المبالغ مقدرة قيمتها بالعملة الحالية تساوى ثمانية جنيهات للمهر ، وثلاثين جنيها للطلاق .

وكما نجد عقدا يرجع تاريخه الى القرن الثانى عشر ، ينص

(١ ، ٢ ، ٣) بالعملة المصرية فى سنة صدور الكتاب وهى سنة ١٩٣٣ .
(٤) لعله يشير الى وصيفة الزوج .

على أن المهر مائة سوليدى أى خمسمائه جنيه ، على أن يدفع خمسها فورا ، ويدفع الباقى فى خلال خمس سنوات •

وهناك عقد يرجع تاريخه الى سنة ١٢٨٠ م ، وشروطه مطابقة لشروط العقد السابق !

من هذا نرى أن المصريين كانوا يعتقدون فى جميع عصور تاريخهم المختلفة حتى العهد المسيحى ! أن وثيقة الزواج لم تكن الا عقداً كغيره من عقود الصفقات التجارية الأخرى خسارة فادحة للطرف الذى يقوم بفسخه !

وكثيرا ما كان ينص فى العقد على اعادة قيمة ما دفع من المهر والهدايا فقط من غير جزاء على فاسخه ! ولكن ما جاء القرن الرابع للميلاد حتى كثر النص فى العقود على غرامات كبيرة لمن يقوم بفسخها ! ولعل ذلك التغير يرجع الى التأثير الاغريقى !

وليس فى كل عصور التاريخ المصرى حتى فى العصر المسيحى، أثر ما لزواج دائم أبدا ، لاتنفصم عراه ، كما أنه لم تستدل على ما يشير الى اقامة أحفال دينية خاصة بالزواج ، أو الى وجود نوع من الطقوس خاصة به ! وربما كان هناك أحدهما أو كلاهما ، ولكن لم يسجل عنهما شيء مطلقا لا فى عصور مصر الفرعونية ولا فى عصر البطالمة الذين كانوا يعنون عناية كبيرة بالحفلات المختلفة !

ويقول ديودورس :

لقد كانت عقود الزواج فى مصر تنص على منح الزوجه السلطة على زوجها ، وكان الازواج آنذاك يتعهدون باطاعة زوجاتهم في كل ما يؤمرون به » •

على أننا لم نعثر على أى أثر يدل على ذلك فى العقود التى نعرفها ، ويحتمل أن يكون منشأها مبالغة لاحدى الزوجات الوارثات بادعائها حق القيام بادارة ممتلكاتها بدون معارضة أحد من أقارب زوجها •

وعلى الآثار المصرية نرى الزوجة المصرية على قدم المساواة مع زوجها ! وقد كانت الزوجة في اعتقاد المصريين ضرورية لزوجها فى الحياة الآخره ! وقد كان يوضع فى قبور الرجال تماثيل أو رسوم لزوجاتهم ، واذا عز ذلك كان يستبدل بها نماذج من الفخار عليها صورة الزوجة ! •

ولقد منح القانون للمرأة المصرية حرية التعامل اذا كانت تعرف القراءة والكتابة ••• واليك مثل لذلك أوريلياثيسوس (Aurelia Thaisous) وشهرتها لوليانا ، ابنة أحد كتبة الأسواق المتقاعدين ، تذكر فى طلب لها لجهة من جهات الاختصاص أنها قادرة على الكتابة بسهولة تامة ، ولهذا فان من حقها أن تتصرف فى شئونها بنفسها • وبعد مضى أربعة أعوام ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٧ ق•م تجدها قد قامت بشراء منزلين وقطعة من الأرض •

ولما كان الزوج مسئولا عن الوفاء بديون زوجته ، فقد كان السبيل آنذاك الى التخلص من الأفلاس أن يقوم بطلاق زوجته ، بعد أخذه لما دفعه لهـا من مهـر ، ثم تعلـن افلاسـها فيما يختص بممتلكاتها (١) ، ثم يعود فيتزوجها ثانية ، على أن يحرر وثيقة ، قبل اتمام عقد الزواج الثانى تخوله حق الحجز على ممتلكاتها بحيث اذا حدث طلاق جدى بينهما فيما بعد لا يفقد الزوج حقه فى المطالبة بقيمة الصداق الذى دفعه للزوجة . على أن الحقوق الشرعية لذريتهما كانت تلقى كل رعاية خلال تلك التطورات .

وكان فرع الأم يوضـع موضـع الأعتبار الأهم فيما يختص بالنسب ! فقد كان اسم الأم يذكر دائما ، أما اسم الأب فكثيرا ما يغفل ذكره ! وكان الابناء اذا انتسبوا يذكرون اسماء أسلاف أمهاتهم، لا أسلاف آبائهم ! ولم يكن الأب الا حامل لقب ، أما الام فكانت واسطة عقد الاسرة ! ويستثنى من ذلك شاغل بعض الوظائف التى يرثها الأبناء بحكم القانون عن آبائهم أبا عن جد ! فانهم كانوا ينسبون الى الآباء لا الأمهات وكانت الممتلكات العقارية يرثهـا الابنـاء عن الأمهات سيدات البيت !

---

(١) فى ذلك العهد كانت تركة الاب تنتقل بعد موته الى أولاده وأولاد أولاده، ولم يكن هناك قانون يمنع توريث الحفيد اذا مات أبوه ، كما كانت التركة تؤول اذا لم يكن للمورث أولاد ولا أحفاد الى الاخوة والاخوات كما كانت انصبة الأولاد فى الميراث متساوية ، ولم يكن هناك تمييز بين الذكور والاناث !.

ولقد كانت مكانة الخـال ووالد الأم تسـمو مكانة العم ووالد الأب •

ولقد رأينا في الفصل الأول أن توارث مختلف الصناعات والحرف لم يتقيد قط بنظـام الطبقات ، بيد أن العـرف كان يقف أمام كل شخص حائلا اذا أراد الخروج عن نطاق مهنة والده •••

ولقد كانت الوظائف الدينية بخاصة يرثها الأبناء عن الآباء بسبب ما تتطلبه اقامة الطقوس والشعائر الدينية من تدريب دقيق فضلا عن أنها كانت دائما موضع التبجيل والاحترام ومصدر هبات ومنح لمتقلديها ! ولقد كان أهم استثناء لهذه القاعدة تنصيب الملك أحد أبنائه في منصب من المناصب الدينية الرفيعة كمنصب الكاهن الأكبر لمنف أوهليوبوليس ! •• ويحدثنـا أحـد الكهنة في عصر الأسرة التاسعة عشرة بقوله :

لقد تعطف الملك وقرر بعدما تبين له أن أبنائي قد انحدروا من صلبي أن يعينهم كهنة يعملون تحت رعايته السامية • انني الكاهن الأكبر للاله آمون ، فأصبح ابني كاهنا ثانيا لي فوق وظيفته كمدير مساعد للقصر الملكي ! وسوف يمنح حفيدي منه ألقاب الكاهن الرابع لآمون والأب المقدس ، والقس •

ولقد شاهد هيرودوت في منف مجموعة من التماثيل الخشبية

يبلغ عددها ٣٤٥ تمثالا ! وقد أخبره مرشده أنها لكبار كهنه الاله بتاح ، الذين توارثوا هذه الوظيفة ابنا عن أب ! .

وقد كان منصب الكاهن الأكبر لبتاح فى العصر الرومانى مقصورا على الابن الأكبر وكان الابناء الآخرون يعدون خارجين على القانون ان هم أحدهم بتولى ذلك المركز .

ولما كانت وراثة العقارات الثابتة تنحدر عن طريق الأم ، كان من الطبيعى أن يقع واجب كفالة الوالدين احدهما أو كليهما على عاتق بناتهما دون أبنائهما ! .

ولقد كان هذا الأمر من الأمور التى أثارت دهشة الاغريق الذين كانوا يزورن مصر .

ولقد سبق ذكر قصة ابن الملك خفرع (١) وما ورثه من ممتلكات عقارية وهناك حالة لاحقة لذلك التاريخ تختص بكاهن يسمى « نكعنخ » (٢) الذى كان له الحق فى أن يوصى بما يشاء من أملاكه! لقد أراد نكعنخ هذا أن يوصى بضيعتين يملكهما لأولاده من بعده

---

(١) كان كاهنا للالهة حاتحور فى عهد الاسرة الخامسة ، وقد اشتهر بتلك الوصية التى سجلها على احد جدران مقبرته ! وقد ذكر فيها ان ملكيته لهذه الاراضى ترجع الى عهد الملك منقرع ! وانه عين كاهنا فى عهد الملك اوسركاف .

(٢) ورث عن جده وكان يدعى ختوكا احدى هذه الضياع ! وتقدر مساحتها بنحو ٤٠ فدان أما القسيمة الاخرى وكانت مساحتها نحو ٤٠ فدانا أيضا وهبت له كمرتب من الدولة مقابل قيامه بأعباء وظيفة كاهن للالهة حاتحور .

على أن يقسمان بينهم بالتساوى ، كما أوصى أن يقوم كل منهـــم بوظيفة كاهن التى يشغلها لمدة شهر بالتناوب (١) ! والى جانب ذلك وضع شروطا للتصرف فى أملاكه الخاصة (٢) .

وفى عصر الأسرة الثانية عشرة كان العرف يفرق بين الضياع التى يرثها الأشراف عن آبائهم التى كان يحق لهم أن يوصوا بها لأبنائهم ، وبين الضياع الحكومية التى كانت يمنحها لهم الملك طول حياتهم جزاء لهم على اخلاصهم وولائهم له ! .

وكثيرا ما كان الأب المورث ينص فى وصـيته عـدم تصرف الورثة فيما تركه لهم من ممتلكات بالبيع أو التجزئه كمـا لو كانت موقوفه ! وكان يذكر فى بعض عقـود التوريث « انهـا مـوروثة لشخص واحد ، ولا تورث الا لشخص واحد » وكان أحيانا يعين الشخص الثانى بأن ينص على أنه « الحفيد ، أو الحفيدة » ! .

---

(١) وضع تكمنيخ فى وصيته التزامات وظيفته بوصفه كاهنا أعظم للالهـة حاتحور فى يد جماعة من أسرته تحت اشراف ابنه الاكبر ، وبذلك أصبح جميع أولاده يستفيدون من وظيفته ، على أن يقوم بالعمل بأعباء وظيفة الكاهن الأعظم للالهة حاتحور ، كما وزع بينهم القيام بالشعائر الدينية التى يوهب ثوابها لجده خنوكا الذى ورث عنه الضيعة الأولى .

(٢) كان نكمنخ يملك عشرين فدانا ، وضعها على أن يصرف ريعها على اقامة شعائر دينية يوهب ثوابها له بعد وفاته ، ووكل مهمة القيام بها لاربعة من أولاده لم يذكروا فى الوصيتين السابقتين ، ويبدو أنهم من أم غير أم ابنائه الذين ذكروا فى الوصيتين .

وكان من أهم واجبات الابناء تقديم القرابين الى أرواح آبائهم وأجدادهم كما هو الشأن الآن فى الصين والهند • وكان الابن الأكبر يلقب بعائل أمه (ايون ــ موت ــ اف) وكان يلبس جلد النمر عندما يقوم بتقديم القرابين الجنائزية لروح والده ! •

وفى ذلك يقول الأمير زاو الثانى (١) :

لقد احتفلت بدفن والدي الأمير زاو في موكب ضخم فق كل مواكب الأحفال التي أقيمت لأقرانه من أمراء الجنوب ! فلقد توسلت في ذلة وخضوع السائل الى صاحب الجلالة مليكي نفر كارع ، عاهل الوجهين القبلي والبحرى أن يأمر بصرف تابوت وأقمشة ، وقدر من العطور من الخزانة الملكية من أجل والدي زاو المتوفى زد على ذلك أني هيأت كل شيء بحيث يجمعني وأبى زاو مقبرة واحدة حرصا مني علي البقاء دائما الى جواره • ولم يمنعني من بناء مقبرتين احداهما له والأخرى لي ، نقص في مواردى المالية ، وانما دفعني الى بناء مقبرة واحدة رغبتي في التمتع برؤيته كل يوم •

ولقد منح زاو الثاني كل ما طلبه من مليكه في سهولة ويسر ، ولعل السبب في ذلك أن أباه زاو الأول كان أخا لزوجتي الملك بيبى الأول •

ولقد كان حقا على الأبناء عند تشييع جنازة آبائهم أن يطرحوا

---

(١) عاش ذلك الامير فى عهد الملك بيبى الثانى •

الثيران أرضا ثم يقوموا بنحرها ، وانك لتشاهد صور هؤلاء الابناء وهم يفعلون ذلك ! واسماؤهم منقوشة على جدران مقابر آبائهم ! وكانوا يقومون عدا ذلك بصيد الطيور وتقديمها قرابين لهم ! وهذا ما فعله الملك رمسيس الثانى لأبيه الملك سيتى الأول ! كما هو مصور على جدران معبد أبيدوس .

وكان المصريون القدماء ينظرون الى تعليم الابناء كأنه واجب تمليه عليهم محبتهم لهم ! .

ولقد قال أحد حكماء الأسرة الخامسة :

اذا كنت رجلا ناجحا فى عملك ، ووهب لك الاله ولدا من فضله وكرمه ، فاذا سلك هذا الولد سراطا مستقيما واقتفى فى الحياة أثرك ، وسهر على رعاية مصالحك .. فعليك أن تمنحه كل ما تستطيع من بر وعطف ورعاية ، ولابدع فانه ولدك الذى سوف يخلفك فى حمل شعلة روحك المقدسة ، وهى روح الآباء والأجداد التى حملتها قبله ، ولا تدع قلبك ينصرف عن محبته مهما كانت الأسباب التى قد تدعوك الى ذلك .

ولقد كان الأطفال يلفون فى لفافات من الأقمشة منذ نعومة أظفارهم وتحملهم الأخوات الكبريات أو الأمهات وراء ظهورهم تارة وعلى صدرهم تارة أخرى ، وكان من أحب وسائل التسلية الى نفوسهم عندما يشبون عن الطوق صنع لعب من الصلصال على

هيئات مختلفه ، وهم يمرحون ويلعبون على جوانب الترع والقنوات القريبة من قراهم الريفية ، كما يفعل اليوم أبناء بعض القبـــائل الافريقية ! وكانوا يحملون أحسن ما يصنعونه من اللعب الى بيوتهم للتسلية بها في أثناء وجودهم فيها .

واذا اتيحت لك فرصـة وشاهدت صـور بعض منازل قدماء المصريين على جدران معابدهم ، لرأيت في داخل بعضها صور لعب أطفال على هيأة تماسيح وخنازير وأغنام ورجال وقوارب وتوابيت وموميات .

وان صنع نماذج للاشخاص أو للأشياء لم يحرمه الاسـلام تحريما قاطعا ، فقد شاهدت منظراً لصبي يجر كتلة من الصلصال ثبت عليها أربعة عصي ، نشرت فوقها قطعة من القماش ، وهو يفسر ما تعنيه تلك اللعبة لأختـــه ، قائلا : هـذا هو هودج العروس . وكان يوجد غيرما يصنعه الأطفال من لعب لأنفسهم أنواع أخرى من اللعب يصنعها الكبار لهم من الخشب من بينها دمى تتحرك ، بيد أن تلك اللعب لم تكن تثير اهتمام الأطفال كتلك التي يصنعونها بأيديهم !

وكان الأطفال المصريون يلعبون بالدوارة (١) وبكرات الجلد

---

(١) يقصد ما يسميه العامة بالنحلة .

المحشـوة ، وبكرات من الخشب ، وأخـرى من الجوارب القديمة المحشوة •

ولقد كانت تلك اللعب يستخدمها الأطفال المصريون في ألعابهم الى عهد قريب •

وكان الطفل في مصر الفرعونيه يبدأ حياته المدرسية في سن مبكرة ، كما هو الحال في مصر الآن ! ولا يمكن أن يكون لهذا النوع من الحياة المدرسية آنذاك أثر فعال في نشأة التلميذ لأنهـا لم تكن تؤهله الى استيعاب موضوعات دراسية عميقة ، اذ كان هذا النوع من التعليم مجـرد مران رتيب للذاكرة ، كما هو الآن ، دون محاولة لفهم المعاني وادراكها • ولقد كانت بعض المدارس تلحق بدواوين الحـكومة المختلفة لاعـداد طائفة من الموظفين للنهـوض بالأعمال الحكومية •

ولقد كان يوكل الى الكهنة القيام بتدريس الموضوعات التى تتطلب بحثا عميقا كالكتابة الهيروغليفية والحساب والهندسة والفلسفة وعلم الأخلاق •

وأقدم كتاب من الكتب التى كانت مقررة دراستها في حوزتنا الآن هو الجزء الخاص بالتبرؤ من الخطايا والذنوب من كتاب الموتى المشـهور ، وهو يتألف من فصول ، يشـمل كل فصـل منها على خمسة بنود • وهى طريقة ابتدعها المصريون القدماء لتساعد الذاكرة

على الحفظ عن طريق العدد بالأصابع ، ويبدو أنه يرجع تاريخ تأليفه الى عصر ما قبل الأسرات ، وآية ذلك أنه خال من ذكر أى شيء يتعلق بواجبات الأفراد في الأسرة .

ولقد كانت ألواح الفخار أداة استعملها التلميذ المصرى للمرانة على الكتابة ، وما لبث أن استعمل لهذا الغرض تلك الألواح الفخارية بعد طليها بطبقة رقيقة من الجص لمنع تسرب الحبر الى مسامها . كما ساعد طلاؤها على سهولة مسح الكتابة لاستعمالها مرة أخرى !.

والواقع أن جزءا كبيرا من انتاج المصريين القدماء الأدبى حفظته لنا تلك الألواح الفخارية التى عثر عليها فى بعض مقابرهم .

ولقد ورد في قصة وقعت أحداثها فى عصر الأسرة الخامسة أن أية امرأة من نساء الطبقة الراقية تستطيع قراءة الهيراطيقية (١) الخاصة بذلك العصر ، غير أن الكتابة بها لا يتقنها الا « كاتب قدير وعالم جليل » .

ولهذا كان يدرب من كان يريد الكتابة تدريبا دقيقا مضنيا لاحتوائها على مئات الرموز ! وآية ذلك أنه قد عثر علماء الآثار المصرية على كتابات ملأى بالأغلاط وغير واضحة المعنى ! الأمر الذى يدل على أنها صادرة من أشخاص غير محترفين للكتابة ! .

---

(١) تتألف حروف هذه اللغة من حروف اللغة الهيروغلوفية بعد اختصارها وحذف بعضها ليسهل على الكاتب استيعابها ، وكانت سائدة بين الكهنة ولذلك أطلق عليها الاغريق هذا الاسم ومعناه الخط الكهنوتي .

ولقد كان في استطاعة العداد (١) المصرى في عصور مصر الأولى أن يحصى السفن القادمة والراحلة وحمولاتها ، ويدون أسماء ما تحمل من بضائع وغيرها ! •

ولقد عثرنا على بعض الرسائل التى يرجع تاريخها الى العصر الرومانى قام بتحريرها الفلاحون تحتوى على أخطاء كثيرة ، كما عثرنا على كتابات فى الموضوعات المختلفة غير الرسمية تحتوى أيضا على أخطاء كثيرة على الرغم من صدورها من شخصيات كبيرة ! •

ومن الغريب أن ابنة كاتب لأحد الأسواق زعمت انهاتستطيع الكتابة فى سهولة ويسر ، ذلك على الرغم من أن ابيها وغيره من الكتاب المحترفين لم يكونوا معصومين من الأخطاء فى عمليات الاحصاء التى كانوا مكلفين بها ، كما كانوا يخطئون أحيانا فى العمليات الحسابية من جمع وطرح ! •

ولقد كان أطفال الطبقات الراقية يذهبون الى مدرسة الحضانة التى كانت ملحقة بالقصر الملكى ، حيث كانوا يختلطون فيها بأبناء سيدات القصر وبالرهائن من أبناء أمراء سوريا ! •

وكان يشرف على تربيتهم هيئة كبيرة العدد من الوصيفات والاتباع ، وقد خصص للكبار من هؤلاء الأطفال معلمون كان يطلق

---

(١) الذى يقوم بعملية التعداد بجميع أنواعه من احصاء للسكان ، واحصاء حمولة السفن القادمة والراحلة : والمحاصيل المختلفة •

عليهم ، الآباء المربون ، الذين كان لهم حق الاشراف على تعليمهم وتنشئتهم . وقد سجلت لأولئك المعلمين في مقابرهم رسسوم وقد جلس على ركبتي كل منهم أحد الأمراء الصغار ! ولقد كانوا يمتازون بالقدرة العلمية الممتازة ، ولم يكونوا دائما من ذوى الحسب الرفيع !.

ولقد كان سموت ذا مكانة رفيعة في الدوائر الرسمية ، كما أشرف على تربية الأميرة نفرورع (١) ، وريثة العرش ، على الرغم من عدم ورود ذكر لابيه وأجداده في السجلات الرسمية ! .

ولقد كانت تنشئة الابناء في القصر الملكي موضع فخر واعتزاز من جانب النبلاء ، وقد كانوا يشيرون اليها عند تدوين تاريخ حياتهم ! فيقولون انهم كانوا ممن أشرفوا على تربية أبناء الملك .

ولقد جرى العرف في عصر الأسرة التاسعة عشرة على أن جميع الأطفال الذين يولدون في يوم ميلاد ولى العهد لهم الحق في تنشئتهم معه في القصر الملكي ! وقد يكون علة هذا أنهم يشاطرونه نفس الطالع ، فيحق لهم أن يشاطروه نفس المصير ! .

وقد عثرنا على أحصاء لهؤلاء الأطفال يبلغون فيه ١٧٠٠ طفل ، ويبدو أن هذا الرقم صحيح ! فاذا علمنا أن نسبة المواليد كانت تبلغ في مصر القديمة ٦٠ في الألف كما هو الآن ، وأن ربع هذا العدد

---

(١) ابنة الملكة حاتشبسوت .

(٢) أى في تاريخ صدور الكتاب ! .

يموت قبل بلوغ سن الالتحاق بالمدارس ، فانه يحتم أن يكون عدد سكان مصر آنذاك ١٤ مليونا ٠ وهذا يؤكد دقة المصادر التى كان يعتمد عليها المؤرخ المشهور ديودورس ٠

وان السبيل الذى كان يسلكه أى موظف مصرى منذ ولادته حتى يوافيه أجله يتمثل خير تمثيل فى تاريخ حياة باكن خنسو (Bakenkhonsu) فقد ولد قبل عام ١٣٢٠ ق م وبعد أن سلخ أربع سنوات من عمره فى دور الطفولة ، وأثنى عشر سنة فى دور الصبا تقلد منصب أحد كهنة آمون فى سن السادس عشرة ، واستمر متربعا فيه حتى سن العشرين ، ثم تقلد بعد ذلك منصب الأب المقدس لآمون ، لمدة اثنى عشرة سنة ، ثم منصب الكاهن الثالث لآمون من الثانية والثلاثين الى السابعة والاربعين ، ثم منصب الكاهن الثانى لآمون من السابعة والأربعين الى التاسعة والخمسين ، ثم منصب الكاهن الأكبر لآمون من التاسعة والخمسين الى السادسة والثمانين ، وكان تقلده هذا المنصب الأخير فى عهد رمسيس الثانى ، ولقد ظل يشغل ذلك المنصب الى عهد رمسيس الثالث ، الذى تولى عرش مصر فى (١) سنة ١٢٠٢ ق ٠ م ٠ وعلى ذلك يكون هذا الموظف قد عاش ١١٨ سنة على الأقل أى من سنة ١٣٢٠ ق ٠ م الى سنة ١٢٠٢ ق ٠ م ٠

---

(١) لأنه ولد قبل عام ١٣٢٠ ق.م ، وقد يكون مولده قبل ذلك ببضع سنين ، كما أنه حضر عهد رمسيس الثالث وقد يكون قد عاش فى ذلك العهد بضع سنين أخرى ٠

هذا ولم يتدهور التعليم فى مصر فى العهد الفارسى ، اذ أنه يؤثر أن دارا ملك الفرس أمر باعداد كافة الأدوات والآلات والأجهزة اللازمة لتدريب الشبان المصريين على شئون الطب والجراحة •

أما فى العهد الاغريقى فقد كان نظام التعليم يقضى بتنقل طالبى العلم المصريين من مختلف المدن لزيارة مشاهير العلماء لتلقى العلم على أيديهم ، ولكنه لم يلبث أن انهار بسبب الحروب والاضطرابات التى حدثت بين الدول التى قامت عقب موت الاسكندر وانقسام امبراطوريته •

ولقد عانت مدينة الاسكندرية التى كانت عاصمة مصر آنذاك بسبب كثرة المذابح وأوامر النفى والتشريد التى حدثت فى عهد بطليموس البطين حوالى سنة ١٤٠ق•م وقد ترتب على ذلك انفراط عقد مدرسة الفكر العظيمة التى كانت قد ازدهرت فى مدينة الاسكندرية ، فلاذ أساتذتها وعلماؤها بالفرار الى مدن اليونان وجزرها ! وهنالك أسسوا نهضة علمية جديدة فى مناطق كان يسودها التخلف الفكرى فى عهد حكم الرومان لها ! •

ان استعمال سكان أقطار البحر المتوسط للملابس أول مرة

---

(٢) هو بطليموس التاسع ، ولقد اطلق عليه الاسكندريون لقب البطين من باب التهكم والسخرية لشراهته •

اتقاءً للبرد القارس والحر اللافح لم يعم الا فى العصور الكلاسيكية ، أى فى عهدى دولتى الاغريق والرومان ! أى أنهم لم يرتدوها فى عصور ما قبل التاريخ ! .

أما فى مصر فقد بدأ استعمال الملابس فى عصور ما قبل التاريخ . وقد بدأ الرجل المصرى بالتحاف جلود الماعز ، ثم لم يلبث أن شد على وسطه حزاما (٣) . أما المرأة المصرية فقد كان أول رداء لبسته ثوبا ذا أهداب ، ومن الغريب أن ذلك الثوب ذى الأهداب لايزال يستعمله بعض نســاء بلاد النوبة حتى الآن ! ثم أخــذ المصريون يرتدون ملابس مصنوعة من أقمشــة منسوجة من ألياف الكتان ! .

ولقد كانت المرأة المصرية فى عصر ما قبل التاريخ وفى أواخر ذلك العصر بخاصة ترتدى أحيانا ازارا مصنوعا من خيوط الكتان البيضاء ، وكان ضيقا حتى ليكاد يلتصق بجسمها ، ومتدليا الى ركبتيها .

أما فى عهد الأسرة الأولى فقد كان المصريون يرتدون العباءات لوقايتهم من البرد ! وكانت تلك العباءات مبطنة أحيانا ! ولقد كان الملك والأمراء والنبلاء يلبسون تحت العباءات صدرات وقمصان قصــيرة زيادة فى الوقاية من البرد ! أما العمال فقد كانوا يـكتفون بقطعة

---

(٣) لقد كان يربط بهذا الحزام من الأمام مايشبه الجعبة أو الكيس لستر العورة ، كما تدل رسوم الرجال على لوحة نارمر المشهورة .

من القماش تلف حول الأرداف ويربط طرفاها فوق البطن ! وقد ظل ذلك شأن عمال الزراعة حتى عهد الأسرة الثانية عشرة !.

وفي عهد الأسرة الرابعة ابتكر صنع الثنيات (١) في أثواب الطبقة الراقية آ لتساعدهم على التحرك في سهولة ويسر ! ثم تطور شكل الرداء منذ ذلك العصر حتى عصر الأسرة التاسعة عشرة ، حتى أصبح يثبت بحمالة ترتكز على الكتفين أو يمتد من الخلف فوق الظهر ، ثم يثبت الى الصدر بحمالتين ترتكز على الكتفين . وقد استعملت الحمالات المتقاطعة في بعض الملابس التي كان يرتديها المصريون في عصر الأسرة الثانية عشرة وما بعدها ! بيد أن تصوير ذلك الزي المبتدع على جدران المقابر وعلى الآثار القديمة الأخرى لم يساير ذلك التطور الكبير الذي حدث في حياكة الملابس وتفصيلها . وما جاء عصر الأسرة الخامسة حتى بدأت النسوة يرتدين فساتين ضيقة جدا ، وطويلة بحيث تصل الى الكعبين ، ولها أكمام ضيقة ولها فتحتان عند العنق ، واحدة من الأمام والأخرى من الخلف، تسهلان لهن ارتداءه ، وكان لكل من هاتين الفتحتين شريط يستعمل في ضم حرفيها عند الحاجة !.

ولقد كان المصريون منذ العصور الأولى وبخاصة الذين كانوا

---

(١) يخالف ارمان ذلك اذ يقول في كتابه مصر والحياة المصرية ص ٢١٦ ان التجديد الذي ادخل على الرداء في الأسرة الرابعة هو زيادة طوله واتساعه ! أما الثنيات فلم تصنع الا في أواخر عصر الاسرة الثامنة عشرة .

يزاولون حرفا يتعرضون في أدائها لرطوبة الماء وبرد الهواء ، كانوا يلفون أجسامهم برداء يقيهم منهما ! بيد أن هذا الرداء كان قصيرا الى درجة أن أطرافه السفلى لا تصل الى الأرداف ، وكان لذلك يقصد به وقاية الجسم من البرد لا ستره •

ولقد أدخلت في العصور التالية زيادات وتغييرات في الملابس جريا وراء ستر الأجسام وحب المظهر ! ولقد كان الزى الرسمى للموظفين يختلف جد الاختلاف عن ملابسهم العادية • وكان الوزراء يرتدون دثارا سميكا طويلا ، يتدلى الى الكعبين •

وكان من عادة المصريين منذ عصور ما قبل التاريخ أن يحلقوا شعر رءوسهم ويضعون شعورا مستعارة عند تعرضهم لحرارة الشمس •

ومهما يكن منشأ هذه العادة ، فقد استمر اتباعهم لها في أثناء عصور تاريخهم الطويل • ولعل سبب ذلك حرصهم على نظافة رءوسهم ! •

وكانت النساء المصريات يقصرن شعور رءوسهن ويضعن فوقها شعرا مستعارا (١) • ولقد كانت الفتيات والسيدات المصريات وفى عهدى الاسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة بخاصة ، يصففن شعور رءوسهن ويصنعن منها ثلاث جدائل اثنتان يتدليان من الأمام ، وواحدة تتدلى من الخلف ، وفى حالات نادرة كان يحلق شعر الرأس الأمامى للخادمات ولا يترك منه الا خصلة واحدة على قمة الرأس ! •

الفصل الخامس

موارد البلاد المختلفة وتجارتها الخارجية

موارد البلاد المختلفة وتجارتها الخارجية

نكتب فى هذا الفصل عن الموارد الطبيعية للغذاء والكساء فى مصر الفرعونية ، أى عن منتجات أرضها ووسائل توزيعها فنقول :

لقد كانت فصول السنة فى مصر القديمة أساسا لتنظيم أعمال سكانها ، ولا تقتصر أثر هذه الظاهرة الطبيعية على شئون الزراعة فحسب ولكنها كانت تشمل المظاهر المختلفة للنشاط البشرى • ويرجع ذلك الى أنه كان يوجد آنذاك فترة جفاف شديد وجدب يشمل البلاد من أقصاها الى أقصاها ، تتبعها فترة يفيض فيها ماء النيل ، يعقبها نماء ومحصول وفير • ولقد عرف المصرى القديم من تجاربه الطويلة المواعيد الآتية :

وهى أن مياه النيل تنخفض الى أدنى مستوى لها فى شهر يونيه،

ثم تأخذ في الارتفاع في مستهل شهر يوليه ، وتستمر في الزيادة خلال هذا الشهر ، ثم تبلغ مداها في الثالث والعشرين من شهر أغسطس فيحتفل المصريون بوفاء النيل ، ويقومون بفتح الترع والقنوات لري أراضيهم ، وقد يستمر مستوى الفيضان عاليا الى أواخر شهر أكتوبر ، ثم يأخذ مستوى مياه النيل في الانخفاض حتى لا يبقى على سطح الأراضي الزراعية قطرة ماء .

ويترك ماء الفيضان وراءه بعد انسلاحه عن الأرض طبقة من الغرين المخصب عليها ، وعندما تأخذ تلك الأراضي في الجفاف وتتحمل ثقل الانسان ، يخرج كل فلاح الى أرضه ، ويبذر فيها الحب ، ويغطيه بآلة ابتدعها يطلق عليها أهل الصعيد الآن اسم اللوح ، ولا يمضي أكثر من اسبوعين حتى يأخذ النبت الصغير في الظهور ، وتبدو الأرض مخضرة الجنبات ، وكانت هذه الظاهرة تعتبر تباشير الفصل الأول من فصول السنة ، وهو فصل النماء أو الانبات(١) .

---

(١) كان المصري يقسم السنة الزراعية ثلاثة أقسام متساوية ، تقابل ثلاث مراحل مختلفة في زراعة الارض ، فالفصل الأول اسمه ، وكان يبتدئ من أواسط أكتوبر الى أول فبراير ، وفيه كانت تبذر الحبوب في الارض بعد انسلاح ماء الفيضان عنها وكان يسمى (برت) أي الخروج أي ظهور الارض من تحت ماء الفيضان ، والفصل الثاني من أول فبراير الى يونيه وهو فصل الحصاد وكان يسميه المصريون (شمو) أي انسلاح الماء عن الارض ، والفصل الثالث فصل الفيضان وكان يسمى (آخت) من منتصف يونيو الى منتصف أكتوبر . وكان كل فصل اربعة شهور ، وكل شهر ثلاثون يوما ، وتتم السنة باضافة أيام النسيء الخمسة ، ولم يكن المصريون يسمون الشهور بأسماء خاصة بل كانوا يطلقون عليها عددها مضافا الى فصلها ، فيقولون الشهر

وفى أثنائه يخرج الزراع من قراهم بمواشيهم ، ويقيمون فى حقولهم

= الأول من فصل الحصاد ، والشهر الثالث من فصل الفيضان وهكذا ، ولم تسم بأسمائها المعروفة لنا الآن الا فى القرن السادس ، وهى أسماء معبودات مصرية قديمة : فتوت اسم المعبود تحوت ، وهو طائر أبو منجل الذي كان يظهر آنذاك فى الحقول ويقضى على الديدان وآفات المزروعات الاخرى ، وقد جعله المصريون رمزا للعلم لما كان يوحى به مظهره فى أثناء بحثه عن الديدان بالتأمل والتفكير ، وبابه نسبة الى «ابى» اي طيبة ، وهاتور نسبة الى الالهة هاتور أو حاتحور وكيهك نسبة الى أحد الأعياد المصرية ، وطوبة بمعنى الحنطة ، وامشير أو مخير أي عفريت الزوابع ، وبرمهات نسبة الى الملك أمنحتب الذي ألهه المصريون بعد وفاته ، وبرموذة نسبة الى الهة الحصاد ، وبشنس نسبة الى الاله خنسو ، وبؤونه وأصلها « بى الت » اي عيد وادي الملوك الحجرى ، ومازال هذا الشهر يسمى الى اليوم بؤونه الحجر وأبيب عيد الاله « أبيبى » ومسرى ، وأصلها مس ـ رع أي ولادة الشمس .

أما أيام النسىء الخمسة فكان المصريون يسمونها الخمسة الايام التى فوق السنة .

هذا ومازال الفلاح المصرى الى اليوم يستخدم هذه الشهور فى تقويمه الزراعى ويقرن اسم كل شهر منها بما يتفق معه فى حالة المناخ أو الزراعة أو نوع المحصول كما يلى :

(١) توت هات الانتوت (كثرة البلح) .
(٢) بابه زرعه يغلب النهابة (لوفرة المحصول) .
(٣) هاتور أبو الدهب المنثور (القمح) .
(٤) كيهك صباحك مساك (دلالة على قصر النهار) .
(٥) طوبة أبو البرد والرطوبة اللى يخلى العجوز كركوبة .
(٦) امشير يقول للريح سير (دلالة على شدة العواصف) .
(٧) برمهات روح الغيط وهات (فيه ينضج المحصول) .
(٨) برمودة دق بالعامودة (موسم الدرس) .
(٩) بشنس يكنس الغيط كنس (الحصاد) .
(١٠) بؤونه الحجر (شدة الحر) .
(١١) أبيب طباخ العنب والزبيب .
(١٢) مسرى تجري فيها كل ترعة عسرة (بداية الفيضان) .

أكواخا من عيدان البوص ، وبخاصة في حقول البرسيم ، وكانوا يربطون ما شيتهم في أثناء النهار بحبال متصلة باوتاد لتأكل من نبات البرسيم من غير أن تطأه بأقدامها فتهلكه .

ولقد كان سراة المصريين في عصر الأسرة الأولى ينقلون بيوتهم الخشبية من حافة الهضبة ويقيمونها في الوادي وسهل الدلتا ! وكانت الغلات الزراعية من قمح وفول وشعير وحلبة وترمس تنضج في ذلك العهد ، كما هو الشأن اليوم في غضون شهر أبريل ثم تحصد ، وعندئذ تصبح الأرض قفراء جرداء لانبات فيها ولا ماء ، ذات تربة طينية سوداء صلبة تتخللها شقوق عميقة ! وعند ذلك كان الزراع لا يجدون عملا يقومون به الا رعاية مواشيهم ! ولقد دفع ذلك الفراغ بعضهم الى القيام بزراعة مساحات محدودة من الأرض العالية التي تحف بالترع والقنوات ، ويرفعون الماء لسقياها بالشواديف . وفي الوقت الذي تبلغ فيه درجة الحرارة في مصر أقصاها ، وينخفض ماء النيل الى أقصى حد له ، يبدأ ماؤه في الزيادة فتبدأ تباشير حياة جديدة ، ولا يزال الماء يعلو حتى يصل الى مستوى الأرض الجافة ذات الشقوق العميقة ، فيغمرها ! وعندئذ يبدأ فصل الفيضان ! وتبدو القرى المصرية كما يقول هيرودوت كأنها جزائر بحرايجة ! وكان المصريون أنذاك لا يجدون عملا مجديا يقومون به ، فيخلدون للكسل . ولقد فكر بعض الفراعنة من ذوي العقول الراجحة ، فقدروا ما يصيب العطل رعاياهم من تعود على القعود والكسل ،

فكلفوهم باقامة تلك المنشآت العظيمة مثل الأهرام والمعابد ، التى تعد بحق من المفاخر الخالدة لتلك البلاد (١) .

وان منهاج العمل فى مصر القديمة مسجل تسجيلا دقيقا فى أوراق من البردى يرجع تاريخها الى العصر الرومانى ، ومنها نعلم أن العمل خلال شهرى سبتمبر واكتوبر كان قاصرا على حراسة الجسور التى كانت تقسم الأراضى الزراعية الى حياض ، لوقايتها من الانهيار بفعل مياه الفيضان ، وبسقى المساحات القليلة من الأراضى الصالحة للزراعة التى لا يصلها ماء الفيضان لارتفاعها وقد سبق الاشارة اليها ! .

وكانت تبذر الحبوب فى شهر نوفمبر كما ذكرنا ، وفى أثناء فترة نمو المزروعات المختلفة ، كانت تشذب أشجار الكروم والنخيل وفى شهرى أبريل ومايو ، كانت تحصد المحاصيل ثم تجمع وتدرس

---

(١) لايرى معظم المؤرخين مايراه بعضهم فى بناء الهرم الاكبر العرق المتصبب من جباه المظلومين ، ولا السياط ترتفع فى ايدى الزبانية القساة لم تهوى على ظهور العاملين الناصبين ، ولكنهم يرون فيه حكمة الراعى المسئول عن رعيته ، البصير بأمورها .. وخلاصة رأيهم أن خوفو .. رأى الفلاحين لا يشتغلون فى الأرض الا أياما معدودات فى أثناء بذر الحب وحرث الأرض وفى ايام الحصاد وجمع المحصول ، ويقعدون فيما بين ذلك فى دورهم لا يجدون يعملون شيئا مجديا ، رأى الملك الحكيم ذلك الفراغ الطويل فاشفق عليهم ان يتعودوا الكسل ، ويتأصل فيهم الخمول ، فامر حكام الاقاليم ان يختاروا من سكانها من يصلحون للاضطلاع باعباء اقامة ذلك البناء الضخم المشمخر ، على أن يؤجروا على عملهم ، ويقدم لهم الغذاء (مصر الخالدة للمؤلف الاول ص ص ٤٢ — ٤٧) .

ثم تحمل الغلال المستخلصة الى المخازن المعدة لها !.

ولقد كانت مناسيب مياه الفيضان تختلف في جهات الوادى المختلفة ! وفي ذلك يقول بلوتارك « كانت مياه الفيضان عند مفاوز جزيرة الفنتين تصل الى ٢٨ ذراعا (٤٨ قدما) على حين أنها كانت أمام منف تصل الى ١٤ ذراعا فقط (٢٤ قدما) كما كانت تصل قبل مصب أحد فروع النيل في البحر المتوسط بقليل نحو ٦ أذرع فقط (١٠ أقدام) .

كما يقول المؤرخ بلينى « ان الفيضان اذا بلغ عند منف ١٢ ذراعا فقط حدث جدب مروع ، أما اذا بلغ ١٣ ذراعا أمنت البلاد شر الجدب ، واذا بلغ ١٤ ذراعا ، كان الفيضان متوسطا واذا بلغ ١٥ ذراعا كفى متطلبات الزراعة ، فاذا ما بلغ ١٦ ذراعة كان بهجة للنفوس .

وقد حدث أعلى فيضان في التاريخ في عهد الامبراطور كلوديوس (١) ، اذ بلغ ١٨ ذراعا . أما أقل فيضان سجله التاريخ فقد حدث في عام ٤٨ق.م اذ بلغ ٥ أذرع فقط ! وقد ذكر استرابون أن مياه فيضان النيل انخفضت انخفاضا شديدا عام ٤٠ق.م ، ولكنه لم يذكر مقدارها ! .

ولتقدير ارتفاع مياه فيضان النيل أقيمت مقاييس في أماكن

---

(١) حوالى عام ٢٦٩ م .

عدة ، أشهرها في جزيرة الفنتين وطيبه وممف . ويرجح بعض المؤرخين أن هذه المقاييس أقيمت في أوائل عصر الاسرة الاولى ، كما يدل على ذلك تسجيلات ارتفاعات مياه الفيضان في حوليات الملوك (١) وهذه الارتفاعات مسجلة بدقة تصل الى ١/١٦ من البوصة، ولابد أنها كانت ترصد في أماكن فيها المياه ساكنة لا يهيجها تيار ، ويبدو أن فيضان النيل في ذلك الزمن الغابر كان أقل تذبذبا بدليل أنه لم يتجاوز الفرق بين النهايات الصغرى والنهايات الكبرى في مدى ٤٩ سنة سبعة أذرع على حين وصل ذلك الفرق في العصر الروماني ثلاثة عشر ذراعا ، كما لم يبلغ متوسط الاختلاف عن المعدل السنوى أكثر من ذراع واحد وكف واحد أى قدمين اثنتين . ولعل سبب ذلك كان يرجع الى أن النيل كان في ذلك العصر ينصرف اليه مياه الأمطار التى كانت تسقط في مساحات أوسع من المساحات التى تنصرف مياهها اليه الآن بما فيها البحيرات الاستوائية ، كما أن وسائل الرى الصناعى أنذاك كانت بسيطة ، ولعل أبسطها كان الشادوف (٢)وطمبور ارشيميدس،أما الساقية التى لا يزال الفلاحون

---

(١) وجدت هذه التسجيلات منقوشة على الاثر المعروف بحجر بلرمو .

(٢) يرى بعض العلماء أن المصريين عرفوا الشادوف في عصور ماقبل عصر الأسرة الاولى ، ولقد نقل كويبل

(Quibell and Green : Herakonpolis 1902, p. II, pl. 74-75).

رسما للشادوف كان منحوتا على جدران مقبرة هيراكنبوليس بالقرب من ادفو ، ترجع الى ذلك العصر الغابر .

فى مصر يستخدمونها بكثرة فى رى أراضيهم فانها لم تستخدم قبل العصر الرومانى .

وفيما يلى أهم أنواع المحاصيل فى مصر القديمة وطرق زراعة كل منها

الحنطة (القمح) لقد كان حبها يبذر كما هو الحال فى الوقت الحاضر وتغطى بواسطة ما يسميه الفلاحون « اللوح » اذا كانت التربة لاتزال لينه ، أما اذا كانت جافة وصلبة تتحمل وطء الثيران استخدموا المحراث أو العزاقة فى تغطيته (١) .

وعندما تنضج الحنطة كان الفلاحون يستخدمون المنجل فى حصدها ، ويجمعون سوقها ، ويدرسونها (٢) ثم يستخلصون حبوب القمح ، ويعبئونها فى أكياس ، يحملونها الى بيوتهم أو الى الاسواق لبيعها وكانت سيقان الحنطة بعد درسها غذاء للماشية ! .

ولقد كانت العادة فى العصر الفرعونى أن يترك الزراع نصف محصولهم من القمح فى سنابله ، ثم يربطونه حزما ، ثم يحفظ فى مخازن خاصة .

وكانت مخازن الحنطة نوعين :

---

(١) لاتزال يستعملها الزراع حتى وقتنا هذا وهى شبيهة بالفاس .

(٢) كانوا فى العصور الغابرة يستخدمون الثيران والحمير فى وطء السنابل لتخليص الحب منها ثم لم يلبثوا ان ابتدعوا النورج المستعملة الآن فى ذلك !

١ ـ حظائر مخروطية الشكل مبنية بالطوب ، وكانت تستخدم لخزن السنابل •

٢ ـ حجرات سقوفها على هيئة قباب ، وكانت تستخدم لخزن الحبوب •

ولقد كانت تلك المخازن تغطى أرضها بطبقة سميكة من فتات الحجر الجيرى منعا من تسرب الفئران اليها •

وأهم الحبوب التى كانت تزرع فى مصر الفرعونية القمح والشعير والذرة(١) •

---

(١) لاريب أن المؤلف يقصد الذرة الرفيعة التي يسميها الفلاحون العويجة Millet التي كانت معروفة في العالم القديم • لأن الذرة الشامية corn المنتشرة الآن فى أرجاء العالم المختلفة لم تعرف الا بعد كشف أمريكا ، اذ لم تكن تنمو الا فيها ومنها نقلت الى اقطار العالم المختلفة ، كما أن الذرة الرفيعة نقلت الى مصر من أواسط افريقية ، وكانت أكثر ماتزرع فى أراضي الحياض بالوجه القبلي • وهي نوعان :

(أ) صيفية وتسمى القيظى ، وتبدأ زراعتها من منتصف مارس •

(ب) نيلية ويمتد بدأ زراعتها من يوليه الى أغسطس تبعا لموعد التصريح بطلق الشراقى ولاتزال مسألة زراعة الذرة العويجة في مصر موضع جدال بين العلماء فبعضهم يجزم بأن المصريين القدماء مارسوا زراعتها ومنهم ماسبيرو اذ يقول أن المصريين القدماء زرعوها وكانوا يطلقون عليها اسم ديراتي او دوراتي ويستشهد على ذلك ببردية يرجع تاريخها الى عهد الاسرة التاسعة عشرة (Maspero : Histoire de Peuples, Vol. I, p. 66) ويؤيد رأيه هذا ويلكنسون Wilkenson : Manners and Customs, Vol. II, p. 27. ويزعم فريق آخر منهم أن الذرة كانت تزرع فى مصر القديمة وكان المصريون القدماء يسمونها «ات» أو «يوت» (أنظر قواعد اللغة المصرية القبطية لجورج صبحى ص ٩٣) =

وفي عهود الأسراب الأولى كان القمح يجفف بوضعه في أون كبير،ثم تدلى في حفر عميقة ، بحيث ترتكز على قضبان من الفخار، وتوقد حولها النار . وكان الغرض من تجفيفه حفظه من السوس .

الكروم : لقد كانت كروم العنب تزرع في مصر في العصور القديمة ، ولقد ظهرت معاصر العنب على الآثار التي ترجع الى منتصف عهد الأسرة الأولى ، على أن احدى الأساطير المصرية القديمة تدل على أن أوزيرس كان أول من ابتدع زارعة كروم العنب ، وأنه أول من صنع منه النّبيذ ، الأمر الذي يدل على أن زراعة الكروم عرفت في مصر القديمة قبل عهد الأسرة الاولى بآلاف السنين وكانت الكروم في عصر الدولة القديمة تعتمد على عرائش ! أما في عصر الدولة الحديثة فقد كانت تزرع في وسط حدائق قصور الأمراء والعظماء على هيئة خمائل يستظلون بها في أشهر الصيف من وهج الشمس ! ولقد أوحى ذلك بطراز من طرز البناء حاكاه المهندس الذي اضطلع ببناء بهو الأعمدة العظيم في تل العمارة ، والذي بالغ في المحاكاه فطلى سقفه بالجص وزينه برسم شجرة من أشجار العنب!.

= ولا يذكر ارمان في كتابه عن مصر . والحياة المصرية في العصور القديمة ــ ترجمة دكتور عبد المنعم ابو بكر والاستاذ محرم كمال ، شيئا عن زراعة الذرة في مصر. ويزعم ان كلمة يوت التي يؤكد بعض العلماء انها الاسم المصري للذرة ، كانت تطلق على نوع من الشوفان (انظر ص ٥٠٣ من كتابه المذكور) ويؤيده المؤرخ الالماني شفيتورث ولكنه يذهب الى أن كلمه يوت كانت تطلق في مصر القديمة على نوع من الشعير ، على حين يقول دكتور سليم حسن ان زراعة الذرة في عصر الدولة القديمة لم يقم عليها دليل قاطع (مصر القديمة ج٢ ص ٨٠) .

وكان العنب يجمع فى سلال ويحمل الى المعاصر لاستخراج النبيذ منه ! وكان النبيذ المستخرج من العنب أنواعا ، كان يطلق عليها أسماء مختلفة ، منها نبيذ بوتو ، ونبيذ اسنا ونبيذ مخفف ، ونبيذ أبيض • ولقد كان لنبيذ الدلتا فى عصر الاغريق شهرة واسعة ، ونبيذ مريوط بخاصة ! وكانت كروم العنب آنذاك تزرع بكثرة فى الفيوم وفى الواحات •

وكانت الخضروات تستزرع فى معظم جهات مصر المختلفة ، وأهمها الفول والعدس والبازلاء ، وعندما كانت مياه الفيضان تأخذ فى الانحسار عن الأراضى التى كانت تحف بالوادى ، يسارع أصحابها الى زرعها بالبصل والكرات والثوم والخيار والقثاء بأنواعها المختلفة ! كما كان نبات القلقاس ينمو فى المناقع والمستنقعات ! وكانت ثماره عندما تنضج تجمع وتنقع فى الماء عندما كان يراد طهيها ! ويبدو أن العلة فى نقعها الرغبة فى التخلص من بعض عناصرها التى كانوا يعتقدون أنها ضارة بالانسان ! وكانت تزرع بعض النباتات لاستخراج الزيت منها ، وأهمها القرطم والسمسم والخس والسلجم(١) والكتان فوق استخراج الزيت من بذوره كانوا يصنعون منه المنسوجات الكتانية التى يتخذون منها ملابسهم المختلفة • ولقد كان يزرع فى العهد الرومانى أربعة أصناف من الكتان ! فكان الصنف الأول يزرع

---

(١) السلجم نبات من فصيلة الكرنب •

في تانيس (١) والثاني في بلوزيوم (٢) والثالث في بوتو والرابع في دندره (٣) .

أما القطن فقد كانت مساحة الأرض التي كان يزرع فيها في العهد الروماني قليلة جدا ، ولم يكثر زرعه واستخدام محصوله في صنع المنسوجات القطنية الا في العصر الاسلامي ! .

أما أشجار الفاكهة فيبدو أن أول ما زرع منها في مصر كان نخيل الدوم والجميز والخروب ، أما نخيل البلح فقد استورد حبه من العراق ، ثم زرع في بعض جهات مصر وفي بلاد الصعيد بخاصة! ولم يكن واسع الانتشار ! أما أشجار الرمان فقد كانت مساحاتها قليلة في بادىء أمر زراعتها في مصر (٤) وأكثر بقاع مصر زراعة للتين

---

(١) تانيس هي مدينة صالحجر الحالية ، وكانت العاصمة الثانية في عهد الاسرة التاسعة عشرة ، والعاصمة الاولى لمصر في عهد الاسرة الحادية والعشرين ، وهي غير مدينة تنيس التي اشتهرت في العصر الاسلامي بمنسوجاتها والتي لاتزال اطلالها باقية في احدى الجزر الواقعة في شرقي بحيرة المنزلة !

(٢) بلوزيوم هي مدينة الفرما التي اشتهرت في اثناء الفتح العربي لمصر ، وتقع على بعد ٣٠ كيلومتر شرقي بور سعيد ، وكان فرع النيل البلوزي يصب عندها ، وبه سميت وكان سبب ازدهارها ، فلما انسد اصابها الاضمحلال !

(٣) دندرة بلدة صغيرة الآن وكانت لها شهرة عظيمة فيما مضى لوجود معبد الالهة حتحور بها ، وتقع في الضفة الشرقية للنيل في مواجهة مدينة قنا .

(٤) ادخلت زراعة الرمان في مصر في عهد الاسرة الثانيه عشرة ، اذ ورد رسم شجرته ضمن مجموعة الاشجارالتي أحضرها الفاتح العظيم تحتمس الثالث معه من بلاد الشام ، ورسمت في عهده على جدران معبد الكرنك .

وفي عهد رمسيس الرابع كثرت زراعتها ، فاصبحت فاكهة محلية شائعة ، ويجدر بنا ان نشير الى آن المصريين القدماء كان يسمون الرمان «رمن» الامر الذي يؤكد ان اصل كلمة رمان مصري قديم !

كانت ولاتزال هي الواقعة غربي مدينة الاسكندرية ! ويبدو أنه لم يكن واسع الانتشـار في مصر في عصور تاريخها القديم ، ولعل السبب في ذلك أن زراعته لم تكن تلائمها مياه الفيضان الغزيرة أنذاك .

وقد ظهرت أشجار النبق في مصر منذ عصورها الأولى .

ولقد كان أهم ما كان ينمو في مصر من الأشجار المنتجة للخشب عدا أشجار الجميز الطرفاء والعبل والسنط والبرساء !.

ولقد كانت الأخشاب المستوردة من الخارج تستخدم في صنع الأثاث ، وأهمها التي كانت تتخذ من أشجار الصنوبر والأرز التي كانت يؤتى بها من الشـام والأبنوس الذى كان يستورد من بـلاد النوبة ! .

ولقد كان المصريون يزرعون الأشجار بكثرة حول المعابد ، كما كان الشأن حول الدير البحرى (١) وهرم اللاهون ! .

ولقد كانت الثيران في مصر القديمة نوعين : الزيبو الافريقى وله قرون طويلة ، والنوع الثاني ذو قرون قصيرة .. ولم يكن النوع الأفريقى ذو القرون الطويلة قوى البنية متينا ، ولذلك فقد تعرض لأوبئة كثيرة فانقرض سنة ١٨٦٣م .

---

(١) يقع معبد الدير البحرى في البر الغربي للنيل ازاء الاقصر ، حيث توجد معابد الملكة حتشبسوت والملك منتوحتب (من ملوك الأسرة ١١) وكانت أشجار البخور تحيط بمعبد الملكة حتشبسوت التي أحضرتها البعثة التي ارسلتها الى بلاد الصومال من هذه البلاد .

وكانت هناك سلالة من الأغنام ذات قرون أفقية ملتوية ! وكانت أكثر انتشارا في عصر الدولة الوسطى ، ولكنها لم تلبث أن انقرضت .. وكانت في مصر أيضا سلالة أخرى من الأغنام ذات قرون مقوسة، وهو النوع الذى نشاهده في تمثال جوبتر آمون(١) . ولا تزال هذه السلالة موجودة في مصر المعاصرة . أما المعزى فقد كانت منتشرة في عصور مصر القديمة المختلفة ! .

ولقد كان الخنزير موجوداً في مصر في عصورها المختلفة ، ولكن المصريون كانوا يعزفون عن اقتنائه فكانت تقوم بتربيته احـــدى القبائل المنبوذة في حفف الصحراء ، ولعل سبب عزوفهم عن اقتنائه انهم كانوا يعدونه مكرسا للاله ست الشرير . أما الحمار فعلى الرغم من أن المصريين كانوا يعتقدون أن الاله ســت يتقمصـــه (٢) فكان

(١) اتخذ المصريون من الكبش ذى القرون المقوسة رمزا للاله آمون ، وهذا هو السبب في تزيين مداخل معابد الاله آمون بتماثيل على هيئة كباش كما هو الحال في معبدي الأقصر والكرنك !

(٢) يبدو أن نظرة المصريين للحمار كحيوان اقترن بعبادة الاله ست لم تنشأ الا في في عصر الدولة الحديثة بعد غزو الهكسوس لمصر ، فقد اتخذ ملوك الهكسوس من الاله ست الها حاميا لهم .. وكان الحمار هو الحيوان الذي كان يعتقد أنذاك ان الاله ست يتقمصه فقدسوه وكان بعض ملوكهم يلقبون أنفسهم « بماتين » أى الحمار الشجاع وكانت مقابر الحمير في عهدهم مقدسة ، وكانت فخامة مبانيها يفوق فخامة مباني قبورهم تكريما للحمار واجلالا لمقامه ! .ولعل الســبب في كراهية المصريين للحمار كان تقمص الاله ست له في اعتقادهم ، وتقديس الهكســوس أمثالهم له !

لذلك مكروها ، فان حاجتهم اليه لحمل أثقالهم حالت دون نبــذه والتقليل من شأنه . ويبدو أنه جيء من ليبيا اذ كان موجودا فيها قبل عصر الأسرة الأولى ! وما لبث أن عم استخدامه فى بقــاع مصر المختلفة ، وبخاصـــة لحمل الزاد والماء اللازمين للبعــثات التى كانت تجوب الصحارى المصرية بحثا عن المعادن ! .

أما الجمل فقد كان عدة البدو الذين كانوا يقيمون فى الجهات التى تحف بمصر ، ولقد عم استخدامه في حمل المحاصيل والبضائع وزاد المسافرين وبخاصة في عهد الأسرة الأولى والأسرة التاسعة عشرة والأسرة الخامسة والعشرين (١) ! وكذلك فى العهد الرومانى ، وكان يستخدم آنذاك فى حمل جرار الماء الضخمة ، أما فى العهد الاسلامى فقد أصبح الوسيلة الرئيسية لحمل السلع والبضائع المختلفة والثقيلة منها بخاصة (٢) .

ولم يكن للخيل وجود فى مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة ، وقد استخدمت آنذاك فى جر العربات الحربية ، ويبدو أنها كانت ضئيلة الجسم غير صالحة للركوب عندما جيء بها أول مرة ، ولكن

---

(١) أقدم تمثال للجمل هو تمثال صغير من الفخار يرجع تاريخه الى عصور ما قبل الأسرات (عصر نقادة) لم يعثر على تمثال صغير له يرجع الى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، غير أن أقدم ذكر للجمل ورد فى بردية انستاسى التى ترجع الى عهد الأسرة التاسعة عشرة .

(٢) يزعم المؤلف أن الجمال قد أتت على ما كان ينمو فى الصحارى المصرية من نباتات وأشجار .

سرعان ما ظهرت فى مصر وليبيا سلالة منها قوية البنية ، متينة ، ذات صفات ممتازة وذلك عندما عنى بها وأحسن تغذيتها فى المراعى الخصيبة الغنية بنباتاتها . ويبدو أن موطن الخيل الأول كان فى أواسط أسيا ، وقد جاء بها منها الآريون الذين غزوا بلاد الهند وبابل (١) ، ولعلهم كانوا السبب فى هجرة الهكسوس من بلادهم وحملهم على دخول مصر .

ولم يستخدم المصريون الخيول فى جر المحرات ، فقد كانت تلك المهمة يؤديها الثيران فى العصور القديمة ، ولا تزال تؤديها حتى اليوم (٢) .

كانت فى مصر القديمة ولا تزال حتى اليوم ، سلالات كثيرة من الكلاب ، مما يدل على أنه جىء بها من بيئات جغرافية مختلفة اختلافا بينا فى طرق المعيشة ! وكان النوع ذو الحجم الكبير يستخدم فى الصيد والقنص ، كما كان النوع المتوسط الحجم منبوذا يعيش على فضــلات الطعام أما الســلالات الصغيرة فكانت يحتفظ بها فى المنازل ليأتنس بها أصحابها ويدللوها ! .

ولم تكن القطط (٣) موجودة فى مصر قبل عهد الأسرة الثانية

---

(١) وكان يطلق عليهم المؤرخون الكاسيين 'Kassites'

(٢) يقول المؤلف : أن هذه المهمة يقوم بها اليوم الجاموس والجمال والحمير فى حالات نادرة .

(٣) كان يوجد فى ذلك العصر القديم نوعان من القطط : القط النمر ــ أى الشبيه بالنمر فى هيئته ــ والقط الفهد .

عشرة ، فقد عثر على صورة لقط نحيل طويل العنق على آثار يرجع تاريخها الى عهد تلك الأسرة ، ولم يلبث القط أن قدسه سكان سينا اعتقادا منهم أن الالهة حاتحور تتقمصه ، وذلك فى عهد الأسرة الثامنة عشرة .

ولقد كان من نتائج طول فترة الفيضان الذى كان يغطى الحقول شهرين وبعض الشهر أن اضطر المصريون الى خزن الطعام اللازم لمواشيهم وطيورهم الأليفة ، فكانوا يقدمون لها الطعام بأيديهم ، حتى التماسيح كانوا يقدمون لها الطعام أيضا بأيديهم باعتبارها من الحيوانات المقدسة (١) .

ولقد كان التفريخ الصناعى للبيض من مبتدعات المصريين ، وكان غير معروف فى الأقطار الأخرى ، ولقد كان المصريون يعدون للفراخ حظائر مصنوعة من الفخار ذات أبواب لوقايتها من غائلة البرد ومن الثعالب ليلا !

ولقد كان السمك الذى يصيده الصيادون المحترفون من النيل

---

(١) يروى أسترابون كيف كان الكهنة المصريون فى الفيوم يقدمون الطعام للتماسيح المقدسة .. وكان أحدها يربى وحده فى بحيرة ، وكان يألف الكهنة ويأتى اليهم ، وكان الناس يذهبون الى تلك البحيرة لمشاهدته وليقدموا له اللحم والنبيذ ، وقد ذهب معنا مضيفنا الى البحيرة حاملا معه كعكة ولحما مشويا وابريقا مملوءا بالنبيذ المحلى بالعسل ، فوجدناه مستلقيا على حافة البحيرة . ولما جاءه الكهنة فتح أحدهم فاه ، ودس آخر فيه الكعكة وسكب فيه النبيذ ، (وهيب كامل : أسترابون فى مصر فقرة ٢٨ .

ومن البحرين الابيض والأحمر يسهم بقدر كبير فى طعام المصريين القدماء ، والطبقات الفقيرة منهم بخاصـــة ، وأقدم منظر للسمك على الآثار المصرية الباقية ، ويرجع تاريخه الى أواخر عهد الأسرة الثالثة ، ترى فيه رجلا يشق جسم سمكة من الخلف ، بعد أن قطع رأسها وذيلها ورمى بهما . وفى أحد الأحفال فى يوم العيد الكبير فى عهد الأسرة العشرين (١) قدم فيه ست آلاف سـمكة لنحو عشرة آلاف شخص ، غير الذين كانوا يغذون كل يوم من أيام العيد الأخرى ، عدتهم ألف شخص ! وان تقديم ذلك العدد الكبير من السمك فى أيام عدة يؤكد لنا أن السمك الذى كان يقدم يحفظ فى أحواض كبيرة من الماء بعد صيده ! ولقد كان وزن السمك الذى يؤكل يوم ذلك العيد يساوى ما كان يؤكل فى أثنائه من لحوم الحيوان والطيور . ومن الغريب أن أكل السمك كان محرما على رجال الدين لسبب لا نعلمه . ولقد كان النوبيون يعتقدون أيضا بعدم طهارة السمك ، ويحرمون أكله ، ولذلك منع أمراء الدلتـا فى عهد بعنخي من دخول قصره للمثول بين يديه لا لشىء الا أنهم يأكلون السمك ! ولم يسمح الا بدخول أحدهم بعد أن تأكد بعنخي أنه لا يأكل السمك ! .

---

(١) لقد كثرت الاحفال فى عهد الملك رمسيس الثالث أحد ملوك الأسرة العشرين ! فالى جانب الاحتفالات الكثيرة بانتصاراته الكثيرة على أعدائه والتى كان يستمر الاحتفال بكل منها عشرين يوما ، كما كان عيد تتويجه عشرين يوما على حين كان عيد تتويج أسلافه يوما واحدا كما كان عيد الاله آمون فى عهده يستمر نحو سبعة وعشرين يوما ، ونتيجة لهذه الأعياد أصبحت أيام العطلات الرسمية فى عهد ذلك الملك تكاد تساوى أيام العمل .

ولقد كانت صناعة الجلود من أولى الصناعات التي ابتدعهـا المصريون وبرعوا فيها ! ولقد كانت جلود الماعز تستخدم أحيانا في تكفين الموتى بدلا من المنسوجات ! ولقد كانت تلك عادة أهل الوبر (البدو) في فلسطين الى عهد الأسرة الثانية عشرة ! •

ولقد كان أهم الأسباب التي دعت سنوحى الى العودة الى مصر (١) خوفه من أنه اذا مات في منفاه لف جثمانه قبل دفنه في جلد الماعز الذي كان يكفن به آنذاك الفلسطينيون انذاك ! •

ولقد كان صنع قرب الماء والقرائر من الجلود من الصناعات الهامة ، ولقد تمكن المصريون من اعداد الجلد اعدادا يسهل طيه ولفه ثم حفظه بحيث لا يشغل حيزا كبيرا •

ولقد كان المصريون في عصور ما قبل التاريخ يستعملون مدى من النحاس في سلخ الجلود ، وكانت قصيرة وعريضـة مستديرة الطرف ، حتى لا يتعرض الجلد للتمزيق عندما كان يسلخ بها •

وان قرب الماء التي كانت تظهـر في الكتابة الهيروغلوفية في الأسرة الخامسة ، تشبه القرب التي ظل المصريون يستعملونها في حمل الماء حتى عهد قريب •

---

(١) كان سنوحى قد فر من مصر خوفا من الملك سنوسرت الأول الى فلسطين ، وبعد أن قضى بضع سنين فيها عاوده الشوق والحنين الى وطنه العزيز ، فأرسل يستعطف الملك ، فعفى عنه الملك ورد عليه مرحبا لعودته الى مصر ، ومبينا مزايا تلك العودة ، ومن بينها أنه عندما يموت سيدفن في مقبرة بعد أن يوضع جثمانه في تابوت لا في جلد معزى ، كما كانت عادة بدو فلسطين آنذاك •

. ولقد كان المصريون يدبغون الجلود ويصنعون منها نعالا خفيفة، وأغطية للمقاعد ، كما كانوا يستعملونها كمادة من المواد التى تستخدم فى صناعة العربات الحربية والدروع ، وفى أغراض أخرى عديدة . وكانوا يصنعون منها حبالا بأن تقطع الى أشرطة رفيعة جدا ، ثم تجدل فتصبح حبالا متينة . على أن أجمل تلك الصناعة كانت الجلود المخرمة التى تشبه الشباك ، وقد كان بعضها ذا أشكال منتظمة جميلة! ولذلك كانت تغطى بها المقاعد والأرائك ! ولقد كانت الفواصل بين ثقوبها دقيقة الى أبعد حدود التصور ! ولقد كانت تلك الجلودالمخرمة تلبس فوق الملابس التيلية لوقايتها وزيادة دفئها ! .

ولقد كانت المصنوعات الجلدية التى تستعملها الطبقات العاملة الكادحة أشد صلابة وأكثر متانة من التى يلبسها الاثرياء والمترفون ، ولقد كان جزؤها الأوسط يترك بدون ثقوب ليطول عمرها .

* * *

وتعتبر صناعة السلال أقدم من صناعة الفخار ، اذ أن الرسوم التى وجدت على مخلفات الفخار من عصور ما قبل التاريخ كان بعضها على هيئة سلال ! وهذا يدل على أن صناعة الفخار قد يكون منشأها طلاء احدى السلال بطبقة من الصلصال لوقايتها من الماء أو النار ! ولم يلبثوا أن استبدلوا أوانى الفخار بالسلال ! ولقد كانت السلال فى مبدأ نشأتها فى منتصف العصر الأول لما قبل التاريخ تصنع ولها أغطية مخروطة الشكل ترتكز على حوافها البارزة ! ولقد كان الفخار فى

أول نشأته يصنع على غرارها ! ولقد ظل هذا الطراز متبعا حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة ولا يزال متبعا حتى الآن في بلاد النوبة •

وفي عهد الأسرة الأولى كانت تصنع السلال كبيرة مرنة ، ثم استبدل بها سلال صلبة لحفظ المحاصيل الزراعية ! وظلت كذلك حتى العهد الروماني ، وكانت تستعمل آنذاك لحفظ الفاكهة أو نقلها ، وكانت السلال تصنع من سعف النخيل ، وهي لا تكاد تختلف عن تلك التي يستعملها الفلاحون المصريون في الوقت الحاضر •

وكانت بعض الأوعيـة والأواني تصـنع من لحاء نبات البردى الداكن لحفظ المأكولات المختلفة ! ولقد كانت جوانبها تقوى بعيدان « البوص » أو النباب •

وكان يصنع من تلك المواد نفسها مقاعد كبيرة مزودة بقوائم من خشب لتصبح ثابتة متينة •

ولقد ابتدع المصريون القدماء صنع الحصر منذ أوائل عصر ما قبل التاريخ ، وكانوا يفرشون بها أرض غرف بيوتهم ولم يلبثوا أن صنعوا نوعا منها مزخرفا ، وكانوا يفرشون به السرر في عهد الأسرة الأولى • ثم لم يلبثوا أن زينوا بهذا النوع المزخرف الحيطان الداخلية ! ولقد كانت صناعة الحصر بنوعيها تشبه الى حـد كـبير صناعتها في العصر الحاضر •

ولقد ابتدع المصريون صنع المكانس والمراوح والفراجين ، واستخدموها منذ العصـور الأولى وكانت تصـنع المكانس والمراوح

من الغاب بعد شقه . وكانوا يستخدمون المراوح للتهوية ولاذكاء النار عند طهو الطعام في عهد الأسرة السادسة ! أما الفراجين فقد صنعوها من سيقان الغاب واستعملوها في الرسم !.

ولقد كانوا يصنعون من نبات البردى غرفا صغيرة خفيفة على ظهور السفن ! وكانت زخارف « الحكر » التي كانوا يزينون بها جدران تلك الغرف على هيئة الأطراف العلوية لنبات البردى ، وكانوا يزينون بالحكر أيضا الحواشي الجانبية للحصر التي تزدان بها جدران الغرف في المنازل ، كما استعملت رسوم الحكر أيضا في تزيين الأجزاء العليا من غرف المقابر ، ولقد كان ورق البردى الذي كانوا يستعملونه في الكتابة يصنع بوضع طبقات من سيقان البردى الداخلية، بعد نزع قشورها الخارجية ، بعضها فوق بعض ، وبينهما سائل غروى ثم تضغط ، ثم تجفف (١) . ولقد كان ورق البردق أنواعاً كان معروفا منها ثمانية في العهد الروماني .

---

(١) يعد الحكر — وهي كلمه هيروغليفيه معناها الزينة او التحليه — الوحدة الزخرفية الغالبة في الفن الزخرفي في مصر القديمة ، ويرجع أصلها الى عصور ما قبل التاريخ حين كان المصريون يسكنون الاكواخ ويقيمون سقوفها على أعمدة من سيقان البردى ، وكانت أطرافها العليا غير متسقة ، ويربطونها بخيوط فتبدو حسنة المنظر ! وعندما استبدلوا المصريون الأحجار بنبات البردى في بناء بيوتهم ، نقلوا العناصر الزخرفية النباتية اليها (اى الى الأحجار) وزينوها بها ، كما رسموا زخارف الحكر على سقوف البيوت .

(٢) هذه الطريقة في صناعة المصريين لورق البردى ذكرها المؤرخ بلني ، ولكن ثبت بعد قيام بعض العلماء بتجربتها أنها غير صحيحة ، فقاموا باجراء تجاربه محورة فنجح العالم باسكوم جن (Batiscomb Gunn) في صنعه !

ولقد كان المصريون القدماء يلجأون الى النار أو الى فأس بدائى خاص لتجويف الكتل الخشبية فى عصور ما قبل التاريخ ! ولقد ظلت هذه الطريقة مستعملة فى بعض العصور التاريخية ! ولقد عثر على توابيت مصنوعة بهذه الطريقة يرجع تاريخها الى عهـــدى الأسرتين الخامســة والثانية عشرة ! وقد اتبعت هذه الطريقة نفسها فى العصر الرومانى لصنع الزوارق !*

وكانت صناعة الخشب تقوم فى أول الأمر على استعمال مطـارق صغيرة عرضها نصف بوصة وأزاميل حادة الطرفين ! ومنذ بداية عصر الأسرة الأولى ظهرت آلات أكبر حجما ، بعد أن أصـبح استخدام النحاس فى صنعها أكثر ذيوعا ، ثم بدأت صـــناعة نشر الخشب فى الظهور تدريجيا ، بالاستعانة بسكاكين كبيرة وعريضة ،

---

* والطريقة التى اتبعها هى أنه قطع نبات البردى وهــو أخضر ، ثم ازال لحاءه الخارجى ، ثم قطع اللب قطعا (شرائح) ووضع على لوحة من الخشب ، ثم وضع عليه عددا من هذه الشرائح جنبا الى جنب • وبحيث تكون موازية لبعضها بعضا ومتماسة ، ثم وضع فوقها شرائح أخرى بحيث تكون زوايا قائمة مع الشرائح التى تحتها ، ثم غطاها بنسيج رفيع ودق عليها بمطرقة من الخشب دقا متواصلا لمدة ساعتين ، ثم وضع ما نتج بعد الدق فى مكبس ، لبضع ساعات وعندما أخرجها من المكبس وجد أن الشرائح قد التأمت وكونت ورقا رقيقا متجانسا صالحا للكتابة ثم صقله بعض الشىء مما جعله أكثر ملاسة •

هذا وكان البردى يستخدم فى اغراض أخرى ، فكانت تصنع من سيقانه الحصر والســلال والمنابيل ، وكان البردى ينبت بريا فى مناقع الدلتا ، ولكنه اختفى منها الآن ، وينمو الآن بكثرة فى السودان ، ويتراوح طول ساقه بين سبعة وعشرة أقدام ، ذلك عدا الجذور والازهار •

ولقد أدى ذلك الى استعمال المناشير ذات الأسنان المنتظمة ابتداء من عهد الأسرة الرابعة •

ولقد كان المصريون القدماء يزرعون الأشجار المنتجة للخشب ، ويتعهدونها مدة تتراوح بين عشر سنين وعشرين سنة ، ثم يقطعونها ويقسمونها الى مكعبات يصنع منها بعض الأثاث كالمقاعد ذات الأرجل(١) والسرر (٢) •

ولقد وجدت مقاصير في داخل مقابر الملوك مصنوعة من ألواح من الخشب يتراوح طولها بين ١٨ و ٢٠ قدما ، ويبلغ عرضها ١٠ بوصات ، يتبع في تركيبها الطريقة المستعملة في بناء القاعات الخشبية في قصور الملوك ! وتتلخص في صف الألواح متجاورة في وضع رأسي بحيث تعلو أطرافها بعضها فوق بعضها الأخرى وتثبت بأوتاد من خشب توضع في ثقوب رأسية ! وهذه الطريقة تمنع الألواح عند انكماشها من ترك ثغرات في الجدران ، وبذلك لا يكون لبرودة الهواء ورطوبته في أثناء الليل ، أو لحرارة الشمس ووهجها في أثناء النهار تأثير محسوس في داخل تلك القاعات •

---

(١) كان المقعد يصنع من كتلة خشبية واحدة ، ويتم ذلك بتقويم ثلاثة أغصان متجاورة في الاتجاهات المناسبة لتكون بمثابة أرجل المقعد • أما القاعدة فكانت تقطع من جزع الشجرة المتصل بالأفرع •

(٢) كانت حبائل الأسرة تتكون من عوارض من الخشب تستدق عند نهايتها ، تحفر فيها فجوات لتثبت فيها الثلة من الداخل ، حتى لا تندو الثلة وقد التفت حول العوارض •

ويتجلى الابداع الفنى فى طرز قطـــع الأثاث المصنوعه من الخشب ، فقد كانت الزوايا الخشبية المستخدمة فى ربط أجزائهـــا تؤخذ من فروع أشجار خاصة ، تثنى فى أثناء نموها . وكانت ظهور بعض المقاعد تستند على دعامات منحرفة من الخلف ، وتقوى رجل الموائد الطويلة الدقيقة بأذرع متقاطعة من الخشب ! وكانت الأرائك والكراسى عريضة ومتناسقة الأجزاء ، ولا يعوزها اتقان الصنعة ودقتها !.

أما الفخار فان الكتابة عنه وعن أنواعه الكثيرة ، وعن تاريخه لا يكفيها عدة مجلدات . ويحتمل أن يكون بعض اوانى فخارية قد جاء بها مصر فى عصر ما قبل الأسرات بعض المهاجرين اليها من الغرب ! ولقد كانت تصنع بعد ورودها باليد ، ثم تشكل دون أن تكور ، كما كان الشأن فى بعض الأقطار الأخرى ! وكانت الخطوة التالية تشكيل جزئها العلوى ، ومنذ عهد الأسرة الأولى استخدمت عجلة الفخار فى صنع الجرار الكبيرة ، ولكن استخدام اليد فى تشكيل الفخار ظلت قائمة عدة قرون بعد ذلك !.

وفى عهد الأسرة الثالثة كانت الأوانى الخشنة تصنع بواســطة لفها داخــل حفرة فى الأرض ، بينا تشكلها يد الصانع ! وفى عهد الأسرة الثانية عشرة ، كان الفخارى يدير عجلة الفخار بيده اليسرى، ويشكل الآنيــة بيده اليمنى ، ثم ينزعها ، ويصــقل قاعدتها وكانت الجرار الكبيرة تصنع انصافا منفصلة ، ثم تلصق بعد ذلك ! وفى

عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت الجرار الكبيرة تصنع بحيث تكون في وضع معكوس أو مقلوب على عجلة الفخار ، وتستخدم اليد في تشكيلها حتى تضيق فتحتها العليا ، فيخرج الفخارى يده منها ، ثم تسد القاعدة بقطعة من الصلصال ، ويصقل من الخارج ، ويترك من غير صقل من الداخل !•

ولقد بدأت صناعة الأوانى الفخارية المصقوله في مصر ، في أوائل عصر الحضارة الأولى ! ولكن دهان الأوانى الخزفية باللون الأزرق أو باللون الأخضر كان يتطلب مهارة في التسخين ! اذ يحتاج هذا الطلاء الى حرارة عالية معينة ، لا تنقص ، ولا تزيد ، لمدة ساعات معينة ! ولم يك ذلك ممكنا من غير تجارب طويلة سابقة •

ولقد استخدم المصريون في عصر الحضارة الثانية الزجاج الأزرق واللازوردى ، على الرغم من أن استخدامه في ذلك العصر المبكر كان نادراً اذ لم يكثر انتاج الزجاج واستخدامه في شتى الاغراض الا في عهد الأسرة الثامنة عشرة •

ولقد عثرنا على نموذج واحد من الزجاج عليه أشكال من الموزايكو الملون يرجع تاريخه الى الأسرة الثانية عشرة •

وقد نهضت صناعة الموزايكو نهوضا عظيما في العهدين اليونانى والرومانى ، واتسمت بطابع الدقة المتناهية ! وكانت مدينة الاسكندرية ذات شهرة عظيمة في تلك الصناعة ! •

ولقد عرف المصريون عشرة أنواع من المعادن وثمانين نوعا مختلفاً من الأحجار والصخور ، ولكنهم لم يستغلوا منها الا تسعة أنواع فقط ! .

ولقد استخدم المصريون الذهب في عصر ما قبل التاريخ غير أنهم كانوا يخلطونه دائما بالفضة في عهود الأسرات الأولى ، الأمر الذي يوحي بأنهم كانوا يستوردونه من أقطار أخرى ، ومن أسيا الصغرى بخاصة !.

ومن المعادن التي عرفها المصريون في عصور ما قبل التاريخ معدن الفضة ، ولكنها كانت نادرة كالذهب ، وظلت كذلك حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ولكنها كانت على الرغم من ندرتها قليلة القيمة ! وأصبحت أقل قيمة عندما توثقت صلة الحيثيين بمصر (١) . ولم يكن استعمال معدني الذهب والفضة قاصرا على صنع الحلي ، بل كانا يستعملان في تجميل الأواني المصنوعة من الحجر ، اذ كانت حوافها ، وقواعدها ومقابضها تكسى بالذهب ، كما كانت أغطيتها تصنع من الفضة ! وكان الذهب يستخدم في كسوة أطراف القسي ومقابض المدى ، وغيرهما ، وكانت حبات العقود المصنوعة من حجر الجير تكسى بالذهب . وكان كل ذلك يصنع في عصور ما قبل التاريخ ! .

---

(١) بعد ابرام معاهدة السلام بين رمسيس الثاني والحيثيين ، وزواجه من ابنة ملكهم تحسنت العلاقات بين مصر وبلاد الحيثيين ، فتبادلا السلع التجارية ، وكان معدن الفضة كثيرا في القطر الاخير ، فاستوردته مصر منها ، فكثر فيها فقل ثمنه .

وفي عهد الأسرة الأولى كان الذهب يلحم بعضه ببعض بدقة عظيمة ، وقد عرف المصريون معدن النحاس بمقادير قليلة منذ عصور ما قبل التاريخ ، ولكنه لم يصبح ذائع الاستعمال في صنع الأواني والأدوات الأخرى الا في أوائل عصر الأسرات ! ولقد كان يخلط ببعض المعادن الأخرى الا في أوائل عصر الأسرات ! ولقد كان يخلط ببعض المعادن الأخرى يجعله أشد صلابة ، وأخف وزنا ! ومن تلك المعادن التي كان يخلط بها البزموت والمنجنيز والزرنيخ والقصدير !

ولم يعرف المصريون البلاتين الا في أواخر عصر الأسرات ، اذ لم يستخدم في التطعيم الا في عهد الأسرة الخامسة والعشرين .

ولقد صنع المصريون حبات العقود من الحديد في عصر ما قبل التاريخ ، ولكنه لم يكثر استخدامه في الصناعة الا في عهد الأسرة الثامنة عشرة ! اذ كان يعلق بشباك صيد الأسماك ليزيد من ثقلها !

ولقد حصل المصريون على القصدير النقي في عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وعلى الانتيمون (١) في عهد الأسرة الثانية والعشرين !

ولقد صنع المصريون حبات العقود من الحديد في عصر ماقبل التاريخ وكان لندرته كالذهب قيمة ! ولقد عثر على بقايا حديدية ، يرجع تاريخها الى عهود الأسرات الرابعة والسادسة والثانية عشرة ، وما بعدها ! ولكن قلتها جعلت بعض المؤرخين يظنون أنها من بقايا

---

(١) حجر شبه كريم ازرق !

شهب سماوية ، وليست خام حديد مستخرج من مناجم ! والذى لا ريب فيه أن الحديد كان معروفا ابتداء من الأسرة التاسعة عشرة ، ولكن ارتباط ذلك المعدن بالاله ست صرف المصريين عن استعماله والانتفاع به حتى عصر البطالمة .

ولم يكن الزئبق معروفا فى مصر ، حتى جاء به الرومان ! وكان المصريون ينقبون فى الصحراء الشرقية عن المعادن والأحجار القيمة، وقد عثروا على عدد من الأحجار المتينة الجميلة المنظر ، وقد برز صناعهم فى نحتها والنقش عليها ! ومن أجمل تلك الأحجار التى عثروا عليها حجر اليورفير الامبراطورى الأحمر(1) فى أوائل عهد الأسرة الأولى ، لظهوره فى آثارها ، ثم اختفى ولم يعد للظهور الا فى آثار العهد الرومانى .

وفى عهد الأسرة الثانية عشرة استخرج حجر الجمشت(2)، ولم يظهر بعد ذلك الا فى أواخر عهد الرومان فى مصر .

وقد استعمل المصريون الامازونيت فى عهد الأسر من السادسة الى الثامنة عشرة على أن مصدره لا يزال مجهولا لنا حتى الآن ! .

---

(1) حجر أرجوانى اللون ذو حبات دقيقة ، يوجد فى الصحراء الشرقية عند جبل الدخان ، وهناك نوع منه استعمل فى عصر الأسرات الأولى فى صنع الأوانى ، ويتكون من بلورات بيضاء فى رقعة سوداء .

(2) الجمشت أو الاماتيست حجر بنفسجى اللون يتركب من الكوارتس الشفاف الملون بأكسيد المنجنيز .

وكان المصريون يصهرون المعادن في قوالب مفتوحة ، أو يحيلونها بالطرق الى صفائح رقيقة ! ولقد كانت الطريقة الأخيرة دقيقة جدا اذ كان سمك بعض المعادن المطروقة يصل أحيانا الى أقل من ١/٥٠ من البوصة ... وقد استخدمت هذه الطريقة أي طريقة الطرق في صناعة الأواني النحاسية الرفيعة ! وكانت رقائق النحاس تستخدم في كساء التماثيل المصنوعة من الخشب ، بتثبيتها بمسامير من النحاس أيضا !

ولقد كانت صناعة الأسلاك والسلاسل النحاسية من الصناعات المعروفة في مصر ، وكان لحام المعادن بنفس مادتها متبعا في صنع الحلي في عهد الأسرة الأولى ، وفي صنع الأواني والادوات النحاسية في عهد الاسرة التاسعة عشرة ! أما استخدام سبائك الرصاص والقصدير في لحام المعادن ، فلم يعرف الا في العهدين اليوناني والروماني ! .

ولقد ظهرت صناعة اللبن في أواخر عصر ما قبل التاريخ ، ثم عمت صناعته في العصور اللاحقة (١) وتوجد في ابيدوس قلعة

---

(١) كان المصريون يستخدمون الاسرى في ضرب اللبن ، ويعتقد المؤرخون ان الفراعنة سخروا بني اسرائيل في هذا العمل ! وكان حجم اللبنة الواحدة حوالى ٣٨×١٨×١٢ س م . ويلاحظ أن مصر الفرعونية لم تعرف الطوب الاحمر المحروق ، وأحسن وصف لصناعة اللبن في مصر ورد منقوشا على حائط من حيطان مقبرة الوزير رخماريع . وكانت الطريقة المتبعة في صناعته لاتختلف كثيرا عن الطريقة المستخدمة الآن ! ويتلخص في عمل حفرة في الارض على مقربة من

مشيدة بالطوب اللبن يبلغ ارتفاعها ٣٥ قدما ، ويرجع تاريخ بنائها الى عهد الأسرة الثانية ، وهى لا تزال قائمة لم تتأثر بالعوامل الجوية الا قليلا ! ولقد بلغ سمك أسوار بعض المعابد ثمانين قدما فى تانيس عاصمة مصر فى عهد الأسرة الواحدة والعشرين • وفى تل العمارنة كانت أسوار القصر مزدوجة بينها ممر كانت طوائف الحرس تجوس خلاله !•

وكان المصريون يعرفون الغزل والنسج منذ أوائل عصر ما قبل التاريخ ، وفى عهد الأسرة الأولى كان نسج الكتان قد بلغ درجة من الاتقان يضارع أجود الأنواع المصنوعة فى كامبرى فى فرانسا من حيث جمال المظهر ومتانة الصنع !•

ومما لا ريب فيه أن الغزل كان يؤدى باليد ! وكان نوع المغزل اليدوى يختلف من عصر الى عصر • وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت الرسوم الملونة على الاقمشة تتم فى أثناء نسيجها فى أشكال دقيقة بديعة يزينها حروف هيروغلوفية •

** بركة ماء أو جدول • يوضع فيها الطين ويضاف عليه بعض الرمل لوقايته من التشقق عندما يجف ، وقد يخلط بالتبن ليجعله متماسكا ، ثم تؤخذ كتلة كبيرة من المزيج وتوضع على حصير مفروشة فوق أرض مستوية ، وبعد ذلك يبدأ العمال فى تعبئته فى قوالب من خشب ذات مقابض ، وتسوية سطحه باليد ! ثم يخرج منها ويوضع فى الشمس لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، ثم يقلب أعلى لاسفل !

أما الملاط الذى كان يستعمل فى البناء باللبن ، فكان يتكون من طمى النيل المخلوط بقطع صغيرة من الفخار (أ) ارجع لكتاب مصر والحياة المصرية للمؤلف، وكتاب مصر واسرائيل للمؤلف نفسه ص ص ٣٢ — ٣٣ •

وقد عرفت الصباغة في عهد الأسرة الثانية عشرة ، وربما قبل ذلك ! وقد وجدت مصبغة كاملة في عهد الرومان بها أحواض تحتوى على أصباغ مختلفة في بلدة اتريب بالقرب من مدينة سوهاج (١) وقد استعملت آنذاك مواد لتثبيت الألوان وفقا لما ذكره بليني ! وقد استطاع المصريون تثبيت ألوان الزخارف على المنسوجات بغمسها في محلول الشب .

وكانت المواد المستعملة في تثبيت الألوان هي كما يأتي :

١ ـ اللون الأحمر : وكان يركب من مخلوط الهماتيت (٢) والمغرة الصفراء المحروقة .

٢ ـ اللون الأصفر : وكان يصنع من عدة أنواع من المغرة ، وللحصول على نوع جيد منه كان الرهج الأصفر أو أصفر الملك يستخدم لذلك .

٣ ـ اللون الأخضر : وكان يصنع من الملاخيت (٣) حتى عصر

---

(١) المعروف ان اتريب هي بنها الحالية عاصمة القليوبية !

(٢) الهماتيت او حجر الدم نوع من اكاسيد الحديد ، يوجد طبيعيا بألوان مختلفة ـ اسود ، أحمر اسمر .

(٣) الملاخيت أو حجر الومج او التوتية هو النحاس القلق ، لونه أخضر ، وكان المصريون يستعملونه كحلا للعيون ، ويستخدمون في طحنه آلواحا من الاردواز بيضاوية الشكل ، واشهر مثال لهذه الالواح لوح الملك مينا أو نارمر الموجود بالمتحف المصرى بالقاهرة !

الأسرة السادسة ، ثم استعملت سلسلات الجير الخضراء والنحاس في ذلك :

٤ ـ اللون الأزرق : كان يصنع في عهد الأسرة الرابعة من كربونات النحاس الزرقاء •

٥ ـ اللون البني : كان يصنع من أنواع عدة مختلفه من المغرة، بعضها يحرق خصيصا لذلك !

٦ ـ اللون الاسود : كان يصنع من أنواع السناج •

٧ ـ اللون الرمادى : كان يصنع بخلط اللونين الأبيض والأسود •

٨ ـ اللون الأبيض : كان يصنع من سلفات الجير •

وفي العصر الروماني استخدم أكسيد الرصاص الأحمر لانتاج اللون الأحمر القاتم • ولقد كانت الرسوم الملونة تدهن بزلال البيض لوقايته من تأثير الماء حين يصيبها ! وكانت هذه الطريقه مستخدمة في ذلك منذ أقدم عصور التاريخ المصرى حتى عهد الفاتح العظيم تحوتمس الثالث !•

صناعة نحت الاحجار

بدأ استخدام الأحجار في البناء في منتصف عهد الأسرة الأولى ، عندما استخدم حجر الجرانيت في تبليط أرضية مقبرة مبنية باللبن خاصة بملك من ملوك هذه الأسرة ! •

وقد استبدل الحجر باللبن فى بناء المعابد الملحقة بالاهرامات فى أواخر عهد الأسرة الثالثة ! ومع ذلك فقد استمر استخدام اللبن فى بناء معابد الآلهة فى أبيدوس الى أن ظهرت الأبواب المصنوعة من الحجر فى عهد الأسرة السادسة ! ولم تلبث أن ظهرت مباني شيدت كلها بالحجر فى عهد الاسرة الحادية عشرة !.

وان طريقة نحت الحجر التى كان المصريون القدماء يتبعونها تشبه الى حد كبير الطريقة التى يتبعها النحاتون فى العصر الحديث! فقد كانت تستخدم المناشير المرصـــعة بالأحجار الكريمة وتسويته، والمثاقب المصنوعة من أنابيب النحاس (١) فى قطع الجرانيت وتسويته. وكانت طريقة صنع التماثيل هى أن تحدد على قطع الصخر ، ثم تستعمل المناشير فى تشكيلها ، يلى ذلك استعمال المثاقب فى عمل التجاويف العميقة ، وازالة النتوءات بالمطارق(٢) !.

وكانت المثاقب تستخدم أيضا فى صنع الأوانى الحجرية بعمل فجوة فى حجم فوهة الآنية ، ثم يوسع التجويف بمثاقب من الحجر الصلد ، ويرش بمسحوق الصنفرة بين وقت وآخر ، وتتحرك فى التجويف فى اتجاه مائل ! وبهذه الطريقة كانت سمك جدار الاناء

---

(١) كانت المثاقب تدار اما باليدين ، أو بمقبض متحرك !

(٢) تتركب المطارق من كرات من حجر الدلوريت (Dolerite) الشديد الصلابة بها تجاويف تركب فيها عصى أو قضبان ! وكان المصريون يحصلون عليها بحالة طبيعية من الصحراء الشرقية .

ارجع الى Engelbach : Problems of the Obelisks, p. 42.

المنحوت من البورفير الامبراطوري ، والذي يبلغ قطره قدمين و١/٤ بوصة ! وكان سطحه الخارجي يصقل بالصنفرة (١) .

ولم يستعمل المخارط في صنع الأواني حتى العهد الروماني ! ولقد كانت الحلقات المحفورة على أرجل المقاعد تنحت باليد ..

ولقد كان الترقيع يسود صناعة الأواني في عهود التدهور الفني الذي منيت به الصناعة في مصر بوجه عام ! فقد كانت الأواني المصنوعة من الحجر آنذاك لا تنحت من قطعة واحدة من الحجر ، ولكن كانت تنحت قطعا ، ثم تلصق كل قطعتين منها بعضها ببعض ، كما كانت تجوف الأواني من ناحيتين ، ثم يركب لها قواعد ! أو تخلط شظايا الحجر الجيري بالطين لتبدو وكأنها من حجر البورفير الامبراطوري !.

ولقد كانت مظاهر الترف واضحة في العصور التي اتسمت بالثراء والغنى مثل عصور الأسرات الأولى والخامسة والثانية عشرة والسادسة والعشرين . وكذلك في عصر البطالمة ، ولقد صحب ذلك انتشار التهتك والفساد ! .

---

(١) لقد استخدم المصريون الرمل والماء لصنفرة الأواني في عهد الدولة القديمة . يدلنا على ذلك نقش على أحد جدران مقبرة « وبيه أم نفرت » في الجيزة (ارجع الى مصر القديمة جزء ٢ ص ١٦٧ للاستاذ الكبير سليم حسن) . ويبدو أنهم عرفوا حجر الصنفرة بعد ذلك (ارجع الى كتاب Problems of the Obelisks, p. 81). (Engelbach للاستاذ

ولقد ادهش الاغريق وفرة الأزهار في مصر في جميع فصول السنة ، وكثرة منتجات البساتين ، والاكثار من استعمال العطور ، ومظاهر البذخ الأخرى ! •

وأكبر دليل على كثرة استعمال الزهور للزينة في الاعياد والحفلات تلك الوثيقة المدونة على ورق البردي الجنائزي ، والتي تشيد بأعمال رمسيس الثالث الخيرية وتعدد هباته للمستحقين (١) •

المقايضة :

لقد كانت المنتجات على اختلاف أنواعها تتداول بادىء ذي بدء عن طريق المقايضة ! ولقد عثرنا على مناظر عدة لأحد الأسواق على جدران مقبرة من المقابر التي يرجع عهدها الى الأسرة الخامسة ، ومنها يتبين أن المقايضة كانت القاعدة المتبعة آنذاك • وليس هناك ما يشير الى وجود معايير ثابتة لتقييم السلع !•

ولقد كان مبدأ مقايضة الخبز بالجعة ، يستند على تساوي مقدار الحنطة الذي في كل منهما !•

ولقد عاد الرومان في أواخر عهدهم الى طريقة المقايضة بسبب

---

(١) بردية تعرف باسم ورق هاريس ، يبلغ طولها اربعين مترا ، وبها مائة وسبعة عشر سطراً من الكتابة ، وهي لذلك تعد أطول بردية وصلت الينا حتى الآن ! وقد قام بتدوينها الملك رمسيس الرابع ، وسرد فيها أعمال ابيه رمسيس الثالث الخيرية ، وهباته للمعابد ، ومنهما عرفنا مقدار ما كانت تملكه هذه المعابد من الاراضي ذات المساحات الكبيرة !

انتشار العملة الزائفة حينئذ ! ولقد كانت حكومتهم آنذاك تتقاضى عينا لا نقدا ! .

الموازين والمقاييس :

ويبدأ وجود معيار مشترك في عصر الدوله الوسطى ، حين كانت السلع التموينية والماشية تقدر بقدر معين من النحاس ! ولقد عثر على خلاخيل من النحاس ترجع الى عهد الأسرة الثامنه ، تكاد تكون متساوية في الوزن ، الأمر الذى يوحى بأنها كانت أثقالا توزن بها بعض الأشـــياء ! وكان المصريون آنذاك يتداولون الذهب في هيئه حلقات ، وربما كانوا يتداولون الفضة في هيئة حلقات أيضا !.

ويظهر من قوائم الضرائب التى ترجع الى عهد الأسرة الثامنه أن كل واحـدة من تلك الحلقات الذهبيـة كانت تساوى في وزنها دبنا واحدا (١) (١٤٠٠ حبة) وفى عهد الأسرة العشرين كانت المسروقات من المقابر لا تذكر أنواعها ، ولكنها كانت تذكر مقادير قيمتها بالنحاس ! .

وأول عملة استعملت في مصر كانت العملة الفضية الاغريقيه الواردة من منطقه بحر ايجة ، ولم يكن هنـاك أية محاولة لاصدار عملة مصرية مستقلة قبل العهد الفارسى ! ففى أثنـائه سكت عملة فضية تحمل على أحد وجهيها صورة البومة المصرية ، وعلى وجهها الآخر مدقة الحنطة .

وفي عهد البطالمة أصبحت العملة المصنوعة من الذهب والفضة والنحاس أساساً ثابتاً للنقد في مصر ! غير أنها لم تسلم من التزييف ، وفي أواخر العهد البطلمي بخاصة ! .

ولم تلبث أن هبطت قيمتها في العهد الروماني بسبب سوء الحكم وتفشي الفساد آنذاك ، فارتفعت أسعار السلع والبضائع ارتفاعاً كبيراً ! .

ولعل أقدم وحدة للمقاييس كانت عرض الاصبع ، وكان طول عشرين أصبعاً يساوي ما كان يطلق عليه لفظ رمن (Remen) أي ما يساوي ١٤٫٦ بوصه ! وهو أساس المقاييس المقارنه ! وقد ذاع استعمال الزراع في المباني ، وكان يساوي ٢٠٫٦بوصه ! وكانت وحدة مقاييس المساحة هي الأستاد أو الأرورة الاغريقية ، وتساوي ١٠٫٠٠٠ ذراع مربع ، وهذه المساحة تساوي ضعف عشرة آلاف رمن مربع ! .

وكانت وحدة مقاييس الطرق هي الرحلة الملاحية النيلية ، وكان طولها ٢٠٫٠٠٠ ذراع ووحدة الطرق البريه هي السخيتوس، وطولها ١٢٫٠٠٠ ذراع . وكانت هذه الوحدات تقسم الى وحدات أقل ، طولها ١٠٠٠ ذراع !

أما وحدة الوزن فقد كانت في الحقبه الأولى لما قبل التاريخ هي النوب (Nub) أو الوحدة الذهبية ، وكانت زنتها ٢١٠ حبة أو قمحة ، وفي الحقبة الثانية لما قبل التاريخ كانت الشيكل

(Shekel) وزنهـا ١٢٨ حبه ، أما فى عصور الأسرات فقد كانت القدت (Quedet) وزنها ١٤٥ حبة ، وكانت الدبن يساوى عشر قدات •

وكان المصريون القدماء يقسمون السنة الى أشهر عدتها اثنا عشر شهرا ، والأشهر الى أيام ، وعدد أيام الشهر ثلاثون ، وكانوا يضيفون خمسة أيام في آخر كل عام ! كما قسموا السنة الى ثلاثة فصول عدة كل منها أربعة أشهر ، وكانوا يسمونها ، فصل النماء ، وفصل الركود ، وفصل الفيضان ! وكانوا يقسمون كلا من النهار والليل الى ساعات عدتها لكل منهما ١٢ ساعة • ولقد أدى نقص ٤/١ يوم كل عام الى تراجع الشهور ، بحيث تتم دورتها مرة كل ١٤٦٠ عاما ! فطابقت دورة نجم الشعرى اليمانية ! فقد كان هذا النجم يرصده المصريون عندما تشرق الشمس كل يوم لتحديد بدء السنة (١) •

---

(١) يظهر نجم الشعرى اليمانية فى الأفق الشرقى فى مستوى طلوع الشمس فوق الأفق على خط عرض مدينة منف فى صباح ١٩ يوليه حسب التقويم اليوليانى (الافرنجى) وقد ربط المصريون بين شروق الشعرى اليمانية وبداية فيضان النيل ، واعتبروا هذا التاريخ أول السنة ، وقسموا الفصول على أساسه !

ولكن اتفاق شروق الشعرى مع الشمس لا يحدث كل سنة فى يوم ١٩ يولية ، لأن السنة ٣٦٥¼ يوم لا ٣٦٥ يوما فقط •• وبذلك تتأخر السنة المصرية المدنية التى هى المدة ما بين شروقين شمسيين لنجم الشعرى عن السنة الحقيقية كل عام بمقدار ربع يوم أو بمقدار يوم كامل كل أربع سنوات ، وتكون النتيجة الحتمية لذلك تأخر الفصول •

ولقد كان في مصر القديمة وزانون عامون تخصصهم الحكومه للتحقق من أن الباعه لا يطففون في الميزان .

وكانت السلع والبضائع التى تصدر الى خارج مصر ترسل الى بلاد النوبة والشام والمغرب ! وعبر البحر الأحمر الى البلاد المطلة عليه ! والى بلاد بونت (الصومال) .

ولقد كثرت البعثات الى بلاد النوبة لكشف ما وراءها من أقطار تمهيدا لتبادل السلع والمنتجات ! ولقد كان من أهم عوامل تسهيل الوصول اليها القناة التي تم حفرها في عهد الملك سنوسرت الثالث عبر شلال أسوان ! وقد بلغ اتساعها ٣٤ قدما وعمقها ٢٤ قدما وكان اتساعها وعمقها يسمحان للسفن المحملة بالبضائع بالمرور فيها !.

= ولم يكن ذلك محسوسا للمصريين في مدة قصيرة ! ولكنه أصبح واضحا على مر القرون ! فوضح لهم أن فصول التقويم غير مطابقة للفصول الحقيقية ! ولدينا شاهد على ذلك الا وهو تمرين انشائي ورد في كراسه تلميذ مصرى عاش في عهد الأسرة التاسعة عشرة ، نصه فيما يلي :

تعالى الي يا آمون خلصني من السنه المضطربه ، لم تعد الشمس تسطع ، ويحل الشتاء محل الصيف والشهور تسير القهقرى .

وعلى الرغم من أن هذا التباين كان مربكا ومضايقا للناس لحلول الأعياد الدينية والمدنية في غير مواقيتها التي كانت تأتي في ابان طفولتهم وصباهم الا انه لم يؤثر على مواقيت الزرع والحصاد ! اذ كانت متبعة للظواهر الطبيعية .

ولقد تمكن علماء التاريخ والفلك من تحديد معرفة المصريين لهذا التقويم بدراستهم للدورة الشعرية ! وقد توصلوا الى أنه تم لهم معرفته في سنة ٤٢٤١ ق . م .

ولقد كان الاتصـــال ببلاد النوبة وثيقا فى عهد الأسرة الثانيـه عشرة بخاصة ، ولم تلبث مصر أن سـيطرت عليها سيطرة تامة فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وامتد سلطانها جنوبا حتى بلدة نباتا الواقعة على خط عرض ٣٠َ ١٨° .

وكانت الجزيه التى فرضـتها مصر على كل من بـلاد النوبة والسودان تشتمل على معدن الذهب والرقيق من الذكور والاناث والجوز والصمغ والحنطة والعاج والابنوس وجلود الفهد والماشية!

وكان الجانب الأكبر من تجارة منطقة البحر الأحمر يتبـــع طريق الصحراء الشرقية التى كانت تبتدىء من قفط ! ولقد اختيرت هذه الطريق تجنبا للشعاب المرجانية التى كانت تكثر فى شمالى البحر الأحمر ! وفى عصر الدولة الوسطى أصلح هذا الطريق ، وسمى وادى الحمامات ، وذلك بحفر الأبار ، واعداد صهاريج المـــاء وانشاء مراكز حراسة لها على جانبيه ! وفى عهد سيتى الأول زادت مرافق المياه فى هذا الطريق وقويت وسائل الأمن فيه !.

ولقد كان البحر الأحمر الطريق الطبيعى من مصر إلى بنت(١) ، ففى عهد الملك أسيسى أحد فراعنة الأسرة الخامسه ، أرسلت بعثة تجارية الى تلك البلاد ! كما أرسلت بعثة تجـــارية أخرى فى عهد سفنخ كارع (منتوحتب الخامس) أحد ملوك

---

(١) هى بلاد الصومال ، كما يرى ذلك معظم المؤرخين

الأسرة الحاديه عشرة ، وأرسلت بعثة ثالثة في عهد أمنمحات الثاني احد فراعنة الأسرة الثانية عشرة ، ولكن أهم هذه البعثات جميعا هي البعثة العظيمه التي أرسلتها الملكة حتشبسوت (١) .

ولم تقتصر تجارة مصر عبر البحر الأحمر فيما تلا ذلك من العهود على بلاد بنت ، بل شملت سواحل شبه الجزيرة العربيـة والهند ا .

ويقول استرابون ـ المؤرخ المشهور ـ لقد كانت الأساطيل المصرية العظيمة تبحث الى الهند ، والى ما وراء أثيوبيا قاصدا بعض الأقطار الافريقية المطلة على المحيط الهندي جنوبي بنت وزنزبار بخاصة .

---

(١) كان الغرض الأساسي من ارسـال هذه البعثات هو احضار البخور اللازم للشعائر الدينية والجنائزية وقد بلغ حرص المصريين على الحصول عليه أن الملكة حتشبسوت أوصت باحضار أشجاره الى مصر ، وزرعتهـا في حديقة معبدها بالدير البحري .. وطبعا لم تكن مشتروات بعثة قاصرة على البخور ، ولكنها كانت تشمل التبر والعاج والابنوس وجلود الحيوانات . ولقد أطلق المصريون على بنت « أرض الاله » ، وكانوا يعدون أنفسهم منحدرين من احدى سلالات سكانها ! فلقد رسموا سكانها على الآثار المصرية بلحى كلحى آلهة المصريين ، كما لو نوا أجسامهم باللون الاحمر الذي كانوا يلونون به أجسامهم والذي كانوا يميزون به أنفسهم من بين أفراد الشعوب الأخرى الذين كانوا يرسمونهم على آثارهم ! كما كانوا يرسمون شعورهم مرجلة على الطريقة التي كانوا يرسمون بها أنفسهم ! كما كانوا يضعون على أجسامهم القميص المصري ! والى جانب هذه السلالة مثل المصريون في رسوماتهم سلالتين أخريين ينتميان الى الجنس الزنجي الأسود .

ويذهب بعض المؤرخين الى أن هناك أدلة علمية على حدوث هجرات من بلاد بنت الى مصر في عصر ما قبل التاريخ !

ولقد كان التبادل التجارى بين مصر والشام مستمرا منذ عصور التاريخ الأولى ! وكانت أهم سلعة تحرص مصر على استيرادها من الشام حجر اللازورد !.

ولقد هبط مصر فى الحقبة الثانيه لما قبل التاريخ اقوام ، ويرجح المؤرخون أنهم جاءوا من الشام ، وقد أحضروا معهم أقدم قطعة من الزجاج عرفها المصريون ، ومنذ ذلك العصر استمر استيراد مصر للزجاج من الشام ! ولقد استقدمت مصر نفرا من الماهرين فى صنعه من الشام فى عهد الأسرة الثامنة عشرة لتعليم المصريين صناعته ! وبذلك نشأت صناعة الزجاج فى مصر ! .

ويبدو أن احتلال الهكسوس لمصر قد ساعد على اتساع مجال التجارة المصرية فى الأقطار المجاورة ! ولا أدل على ذلك من العثور على بعض المنتجات المصرية فى عهد الملك خيان (١) فى كل من كريت والعراق ! ولقد كان ملوك الأسرة الهكسوسية الثانيه يلقبون أنفسهم « سادة الشمال وملوك البحر » كما هو منقوش على الجعارين الخاصة بهم ! وعلى الرغم من أن الهكسوس قد طردوا من مصر ، فان تجارة مصر مع الشام لم تتأثر ولم يعتورها نقص بل زادت ! ولعل سبب تلك الزيادة كان استيلاء مصر على بلاد الشام حتى نهر الفرات ! وكانت لذلك البضائع والسلع الشامية

---

(١) أشهر ملوك الهكسوس الذين حكموا مصر .

ترد الى مصر عن طريق البحر وعن طريق البر ! ولقد كان الجانب الأكبر من الأخشاب المستعملة فى كافة أنواع الأثاث الجيد الذى كان يصنع فى مصر كان يؤخذمن أشجار الأرز والصنوبر المستوردة من بلاد الشام • ومن البضائع المصرية التى كانت تصدر الى بابل والشام المنسوجات الكتانيـة والأشرعة المزركشة بخاصـة ، والتى اشتهرت وتميزت بها السفن والزوارق المصرية (سفر الملوك الأول، اصحاح ١٠ آيات ٢٨ ، ٢٩ ، وسفر حزقيال اصحاح ٢٧ آية ٧)•

وفى عهد الأسرة السادسة والعشرين كان الفينيقيون يضطلعون بدور الوساطه فى تصريف المنتجات المصرية ، واستيراد السلع التى تحتاجها مصر من الأقطار المجاورة ! وكانت الحكومة تتقاضى منهم ضرائب كانت من أهم موارد الايرادات العامة للدولة ! •

ولقد أدى تأسيس الاسكندرية واضطلاع بعض سكانها بتصريف المنتجات المصرية ، واستيراد ما تحتاجه مصر من سلع أجنبية ، واضمحلال صور أهم موانى الفينيقيين الى القضاء على دور الفينيقيين فى التجارة المصرية !•

ولقد كانت مصر فى أوج عظمتها واتساع رقعة سيطرتها فى ابان عهد تحوتمس الثالث قائدها العظيم تستورد الحنطة من الخارج على الرغم من زراعتها فى مساحات كبيرة فى مصر ، وهذا يدل على كثرة عدد سكان مصر ! وكانت مصر لذلك تعتمد على الجزية التى كانت تفرضها على الأقطار التى انضوت تحت لوائها ، وعلى تجارتها

الخارجية لسد ضرورات حياة سكانها الذين كانوا يتزايدون باستمرار !•

وان هذه الزيادة في عدد سكان مصر لا ترجع الى جلب الرقيق لأن تجارة الرقيق فيها لم تبلغ قط ما بلغته في بلاد الاغريق ! ولهذا لا يعزى الى وجود الرقيق في مصر الاختلال بميزان الاحوال الاقتصادية فيها كما هو الحال في بلاد الاغريق في بعض عصور تاريخها ! ولهذا فان المؤرخين يعزون استيراد مصر للمواد الغذائيه الى الزيادة الطبيعية السريعة في عدد سكانها ! •

ولقد كانت منطقة البحر المتوسط آخر المناطق التى كانت تبادل منتجاتها مع مصر ! ولقد كانت مصر في الحقبة الأولى لما قبل التاريخ ذات علاقة تجارية مع بلاد الاغريق ، وكانت تستورد منها الصنفرة لاستخدامها في صقل رؤوس الصولجانات المصنوعة من الأحجار الرملية ! كما كانت تستورد في الحقبة الثانية من هذا العصر العتيق الاسديان(١) من ساموس (٢) ، ومخلوط الذهب والفضة من باكتولس (٣) ! كما يبدو وأنها كانت تستورد الذهب

---

(١) هو الحجر الزجاجي الاسود ، وهو زجاج طبيعي بركاني الاصل ، وعندما يكسر الى قطع يكون شفافا ، وكان يستخدم في مصر لصناعة الآلات ورؤوس الحراب ، وعيون التماثيل ، والجعارين وبعض الأواني الصغيرة الحجم •

(٢) ساموس احدى جزائر بحر ايجة •

(٣) منطقة تركية يمر بها نهر باكتولس (Pactulos) جنوب غربي مدينة انقرة •

في عهد الأسرة الثانية من ترانسلفانيا (١) •

وكانت هذه أهم السلع التي كانت تنقل الى مصر عبر البحر المتوسط •

ومن الأدله على وجود تبادل تجاري بين مصر وكريت في عهد الأسرة الأولى تلك الأقداح الفخارية السوداء ، التي كان يستخدمها المصريون في تعبئة الأصباغ الحمراء لتصديرها ، وكذلك أواني الأمفورا السوداء (٢) التي تشبه تمام الشبه مثيلاتها في كنوسوس (٣) •

ولقد استدل الاثريون والمؤرخون على أوصاف السفن التي كانت تحمل البضائع والسلع من أقطار البحر المتوسط الى مصر ، ومنها اليها من الرسوم المنقوشة على الأواني التي عثر عليها ، ويرجع

---

(١) اعتمد المؤلف في ذلك على أن الذهب الذي كان يجلب الى مصر في ذلك العصر كان يحتوي على مقدار من الاثمد ، ولما كانت ترانسلفانيا هي موطن الاثمد ، فرجح استيراده منها (انظر
Petrie : Descriptive Sociology of Egypt, p. 57.
ولكن الدكتور سليم حسن يخالف ذلك ، ويقول ان الوثائق المصرية تدل على أن الذهب كان يجلب الى مصر من الاقاليم الجنوبية ، ولا توجد لدينا وثائق تاريخية تشير الى انه كان يستورد من الشمال قبل عصر الاسرة التاسعة عشرة (انظر : سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٢ ص ص ١٩٠ — ١٩١) •

(٢) أواني اغريقية الطراز ذات عروتين ، كانت تستخدم في حفظ النبيذ والزيت وبعض الاطعمة والعسل - ولها فتحات تسمح بادخال مغرفة ، وكثيرا ماكانت تحلى برسوم ملونة !

(٣) العاصمة القديمة لجزيرة كريت •

تاريخها الى عهود ما قبل التاريخ ! فقد كانت مختلفة الأحجام يصل طول أكبرها حجماً الى نحو مائة قدم ، وتسير بمجازيف ! وكان على ظهر كل سفينة منها غرفتان صغيرتان تتصلان بممبسر (كوبرى) يمتد بين سطحيها ، كما كان يوجد على سطحها مظلات لتقى البحارة والمسافرين عليها حرارة الشمس ! وكانت تحمل شعار القطر التابعة له فوق ساريه مثبتة فى أعلى الغرفة الخلفية ! وكان يوجد فى مؤخرتها مجداف طويل يستخدم لتوجيهها بمثابة الدفة ! أما المرشد الذى كان يجلس فى مقدم السفينة فكان يحتمى من وهج أشعة الشمس بغصن مورق من أغصان بعض الأشجار .

ولقد استدل الاثريون والمؤرخون من تقاليد أهل كريت لطرز الأوانى المصرية ، فى عهد الدولة القديمة ، على قدم الصله بين البلدين فى ذلك العصر !.

أما فى عهد الدولة الوسطى فقد كانت مصر تستورد الأوانى الكريتية المصنوعة من الفخار ذات الرسوم الملونة ، والتى كان يطلق عليها سلع كاماريس (١) .

ولقد استنبط المؤرخون من انشاء الميناء الكبير شمال

---

(١) أوانى كبيرة على هيئة نصف كرة عليها زخارف هندسية حمراء وصفراء وبيضاء على أرضية سوداء .

الإسكندرية (١) ، والمغمور تحت مياه البحر الآن أن التجارة بين مصر وكريت كانت نشيطة .

ولقد اتسع نطاق التجارة الخارجية لمصر في عهد الملك أمنحتب الثالث ، ولا أدل على ذلك من وجود أواني فخارية مصقولة ، وجعارين خاصة به وبزوجته الملكة تي في ميكينا (٢) . ولقد أتقن الاغريق تقليد المصنوعات المعدنية المطعمة التي كانت تصنع في عهد أحمس الأول اتقانا يصعب معه التفريق بين المقلدة والأصيلة اولقد وجد ضمن مخلفات قصر أخناتون بقايا لما يقرب من ٨٠٠ آنية من صنع اقليم بحر ايجة ! غير أن تلك التجارة النشيطة بين مصر واليونان وجزائر البحر الأبيض لم تلبث أن اضمحلت نتيجة لغزو الدوريين لبلاد الاغريق ، وانتهاء دولة الرعامسة ، ولكنها عادت

---

(١) كان يقع هذا الميناء شمال غرب جزيرة فاروس القديمة (رأس التين الحالية) وكان مدخله في الفجوة المحصورة بين الرأس التي يقوم عليها الآن قنار رأس التين وبداية حاجز الأمواج ، ويتناثر الآن في هذه الفجوة صخور تعرف بالرملة البيضاء . ولقد ذكر هذا الميناء هوميروس في الياذته ، اذ يقول : «وهناك جزيرة في البحر الخضم يسمونها فاروس ، خارج حدود مصر لها ميناء ذو مراس جيدة» .

ويقول جونديه الذي كشف عنه : ان بحارة ترنت بنوه في العصر التوالي، ولكن يرجح بعض العلماء انه من عمل رمسيس الثاني على حين يقول آخرون ان هذه الاطلال ليست الا أبنية الفرس منها حماية جزيرة فاروس من طغيان البحر انظر : (Jondet : Mémoires de l'Institut Français, tome IX).

(٢) منطقة اثرية شرقي اليونان قامت بها حضارة مزدهرة بين القرنين السادس عشر والثاني عشر قبل الميلاد . وقد قضى الدوريون عليها عند غزوهم لبلاد اليونان عام ١١٠٤ ق.م .

فنشطت مرة أخرى ، اذ جاء التجار الاغريق فى القرن السابع قبل الميلاد الى مصر ، وأنشأوا صلات تجارية مع المصريين ومع سكان الدلتا بخاصة !

ولما اعتلى إبسماتيك عرش مصر بمساعدة جنود مرتزقة من الاغريق فى عام ٦٤٤ق٠م أسكنهم على جانبى الدلتا فى حصون نقراطيس فى غربيها ، ودفنى فى شرقيها !٠

وبعد غزو الاسكندر الاكبر لمصر وبنائه مدينة الاسكندرية أصبحت مصر من الناحية العلمية جزءاً من العالم التجارى الاغريقى آنذاك ! وما جاء عام ٢٥٠ق٠م حتى أصبحت الاسكندرية أغنى مدن العالم بفضل تجارتها الواسعة ٠

وكان النيل هو الطريق الرئيسى للنقل الداخلى ، ولم تكن هناك حاجة الى وسائل أخرى للمسافات الطويلة ! وقد أنشأ المصريون طرقا طويلة ممهدة كلما دعت الحاجة الى نقل الأحمال الثقيلة الى النيل والترع ، ومنهما الى جهات مصر المختلفة وكان ينتهى الى كل هرم من أهرامات مصر طريق تنقل عليها قطع الأحجار اللازمة لبنائه٠

ولقد بلغ طول الطريق الذى انشأه خوفو عندما بدأ فى بناء هرمه الأكبر(١) أعجوبة الدهر ومعجزة الأيام ألف ياردة ، وعرضه ستين قدما !٠

---

(١) ذكر هيرودوت ان هذا الطريق استلزم اتمامه عشر سنوات ، وانه بنى بحجارة مصقولة ، منقوش عليها صور بعض الحيوانات ٠

ولقد بالغ هيرودوت فزعم أنه يضـــارع الهـرم الأكبر فى عظمته .

ولقد كان نقل التماثيـل الضخمه بعد نحتها ، الى الأماكن المخصصه لاقامتها فيها ، يتطلب طرقا ممهدة تمهيدا جيدا ، وكانت الطريقة التى اتبعها المصريون فى نصب التماثيل الضخمه هى سحبها فوق منحـدر طويل ، وبعد وصـــولها الى قمة المنحدر يهبط بها فى الجانب الآخر فى اتجاه قواعدها التى تقام عليها ! .

وكانت المسلات تنقل فى النيل بعد نحتها فى سفن عدة مربوطه بعضها ببعضها الآخر بحبال ! ولقد أثارت السفينة المصرية التى استخدمت فى نقل المسلة المقامة حتى الآن فى روما دهشة الرومان واعتبروها أعجوبة من أعاجيب الزمان ! (١) .

---

(١) فى عهد الملك تحوتمس الاول كانت تستخدم سفينة واحدة لنقل المسلات ، طولها ١٢٠ ذراعا (حوالى ٦٠ مترا) وعرضها ٤٠ ذراعا (حوالى ٢٠ مترا) وكذلك الحال فى عهد الملكه حتشبسوت ، وكان يجرها ٢٧ قاربا من قوارب المجاديف مرتبه فى ثلاثة صفوف .

الفصل السادس

التشييد والدفاع

التشييد والدفاع

لقد كانت المساكن البدائية للقبائل المصرية في الصحراء (١) تتكون في بدء نشأتها من أكوام من الأحجار الخشنة غير المصقولة تقيهم حر الصيف وبرد الشتاء ، ومن الشر التي تذروه الرياح ! ولم يلبثوا أن استبدلوا بهذه الأكواخ البدائية خياما لها فتحات في الجهة المضادة لاتجاه هبوب الرياح السائدة آنذاك ! ثم زودت تلك الخيام بعد ذلك بسياج من الغاب في الجهة المواجهة لهبوب الرياح ليضعف من حدتها ويمنع بعضا من الرمال التي تحملها ، ثم لم يلبث السياج أن أحاط بالخيمة من جميع جهاتها لمنع أطفال الأسرة وما كانت تملك من معزى وأغنام من التسرب الى الخارج فتضل ،

---

(١) كان سكان مصر الاقدمون يبنون اكواخهم في الصحراوين الشرقية والغربية اثناء فيضان النيل الذى كان يغمر جميع اراضى الوادى مدة تقرب من ثلاثة شهور كل سنة .

الأطفال الطريق عندما تهم بالرجوع ، وتضيع المعزى والأغنـــام !

وعلى مر السنين وتقدم حضـارة المصريين استبدلوا بسياج الغاب حائطا من اللبن حول الخيمة التى كانت تشد حبالها الى أوتاد تدق في الحائط ! ولم يلبثوا أن استبدلوا بسقف الخيمة الذى كان من القماش سقفا من الغاب أو عيدان الذرة ، يرتكز على أعمـــده ويضعون فوقه قليلا من أوراق الأشجار وأغصانها !٠

ويستطيع الذى يجوب أنحاء مصر المختلفة أن يرى أكواخاً تمثل المراحل المختلفة التى مرت بها على كر الدهور ومر العصور ٠ ولا يزال الغاب وعيدان الذرة « البوص » يلعبان دورا هاما فى حياة ســـكان وادى النيل في مصر الى الآن ! ولا نزال نرى أنواعا من أكواخ الغاب أو من عيدان الذرة وسط المراعى والحقول يقيمها فلاحو مصر في زمن الربيع يقضى فيها رعاة الماشية وحراس الحقول الليل ! ٠

ويقول ديودورس : لقد كان الرعاة المصريون القدماء يصنعون أكواخهم التى كانوا يأوون اليها أثناء الليل من الغاب والبوص (١) كما يفعل أحفادهم في الوقت الحاضر (٢) ٠

ولقد كانوا عند اقامة أكواخهم من سيقان الغاب يسدون

---

(١) تطلق هذه الكلمة على عيدان الذرة ٠

(٢) يقصد بالوقت الحاضر الزمن الذى عاش فيه ديودورس ٠

فى كثير من الأحيان الثغرات بينها بعيدان الذرة ! ولقد ظل طراز مبانى الأضرحة والمعابد باعتبارها مخلفات دينية لها قداستها ، محتفظاً بطابعه البدائى حتى عصر الدولة القديمـة . ثم لم تلبث هندسـة المبانى على اختلاف أنواعها أن تطورت ، فأصبحت الأكواخ مربعة الشكل مثبتا أمام كل كوخ منها عمودان يرتكز عليهما سقفه المكون من سيقان الغاب ، والممتد أمام باب الكوخ للاستظلال به ، وهـذا الطراز لا تزال تراه اليوم فى حقول صعيد مصر ، يستخدمه بعض سكانه فى اتقاء حرارة الشمس .

وان الاكواخ المصنوعة من سيقان الغاب يطليها أصحابها بالطين لسد منافذها ، ومن سيقان الغاب يصنع الزراع أعمدة يطلونها بالطين، ويضعون على كل عمودين منها عارضة قوية من الخشب يعلقون بها شادوفاً تتراوح زنته بين قنطارين وثلاثة قناطير ، يستخدمونه فى رى أراضيهم !

ويرى بعض المؤرخين أن طلاء سيقان الغاب بالغرين بداية لبناء الحيطان ، وعلى أحد جدران أثر من الآثار المصرية القديمة نموذج لحائط يطلى منه عدد من الرجال ، ويرجع تاريخه الى العصر الأول من عصور ما قبل التاريخ ! كما يوجـد نموذج آخـر لمنزل مثبت بحائط واجهته ألواح من الخشب فوق بابه ، وأخرى مثبتة فى أعلى نافذته وأسفلها .

ولقد أوحت طبيعة أرض مصر لسكانها بفكرة صناعة اللبن ،

اذ أن تشقق تربة أرضها بعد انسلاخ ماء فيضان النيل عنها ، أتاحت لهم أخذ كتل منها بعد جفافها ونقلها الى حيث يريدون اقامة مساكنهم ، ويضعون بعضها فوق بعضها الآخر ليصنعوا منها حيطانا غير منتظمه الشكل لحظائر الماشية ، كما كانوا يستخدمون الطين للصق الكتل بعضها ببعض كما يستخدم البناءون المونة في ذلك !
وقد بدأوا صنع قوالب اللبن المنتظمة الشكل خلال الفترة الأخيرة من عصر ما قبل الأسرات ! وأستخدموها في رصف أرض المقابر ، وفي عهد الأسرة الأولى استخدموها في اقامة المنازل والمباني الكبيرة الأخرى !

ولقد كان سراة المصريين يسكنون في بيوت من الخشب ، وكانوا يصنعونها من ألواح يتراوح عرض كل لوح منها بين ١٢ و ١٤ بوصة ، وطوله يتراوح بين ٦ و ٧ أقدام وكانوا يقيمون تلك الألواح بعضها الى جوار بعضها الآخر بحيث تكون جوانبها متداخله في بعضها بعضا ، ثم تربط بطريقة تجعل أطرافها لايصدها صاد ، حتى اذا تمددت أو انكمشت بسبب رطوبة الهواء ليلاً أو جفافه نهاراً ، لاتترك ثغرات بينها مفتوحة ، وقد كانت لتلك البيوت الخشبية أبواب كثيرة لكي تسمح عند فتحها بمرور هواء كاف الى داخلها عندما تكون الريح ساكنة والطقس حارا !

وكان لكل بيت من تلك البيوت مدخل ينتهي بالباب الذي يؤدي الى بهوه ! وكان في ذلك المدخــل ينام أتباع صاحب البيت وخدمه لحراسته !

وكانت تلك البيوت تنقل من أماكنها اذا كانت في مستوى ماء الفيضان وتقام على حافة الصـــحراء المطلة على الوادي في وقت قصير قد لا يعدو يوماً واحداً ! كما كان ينقلها أصحابها الى جوار أكواخ الرعاة المصنوعة من القــاب أو عيدان الذرة والمقـامة في الحقول أو المروج الخضراء عندما يريدون !

هذا وقد حفظت لنا أشكال بيوت الفلاحين في مصر الفرعونية في حال تدعو الى الدهشة والاعجاب على بعض الأواني الفخاريه التى كانت توضع في القبور أو الى جوارها لتأوى اليها أرواح الأموات كما كانوا يعتقدون ! وهي عقيدة لاتزال راســـخة في اذهان بعض القبائل الافريقية الى اليوم •

وتدلنا هذه النماذج على أن أبسط أنواع تلك البيوت المصرية القديمه كان مجــرد مأوى مفتوح من أحــد جوانبــه ، وأن بعضـها الآخر ملحقاً به غرفة من الخلف ! ويبدو أنها كانت الأصل في نشأة البهو كما كان بها سلم يوصل الى أعلى المنزل ، وكانت تقام حواجز حول أسطح بعضها ! كما كان في بعضها أدوار علوية كاملة يعلوها صوامع للغلال يوصل اليها بسلم ! ولم تلبث أسقف الطوابق العليا

للمنازل أن تقوست فاصبحت قبيات ! ثم تفنن البناءون فأقاموا أعمدة على هيئة أشجار النخيل ، وشرفات مثلثة الشكل تبرز من الطوابق العليا تزينها وتجملها ! كما فتحوا في السقف فتحات ليدخل منها الهواء عليلاً ! وهذه وغيرها من التفاصيل الدقيقة التي ابتدعها البناءون المصريون لاتزال محفوظة بفضل تلك النماذج الفخارية !

ولقد عثرنا على نماذج لأثاث منازل المصريين القدماء ، منها كرسي عال وأريكة وحامل لقدور الماء وجراره ورحاً لطحن الغلال مرتكزة على قاعدة موضوعة تحت سلم البيت وبجوارها امرأة تديرها !

وكان المصريون القدماء اذا أرادوا انشاء مدينة جديدة ، وضع لها المهندسون رسومات تبين شوارعها ومنازلها المختلفة ! وكانت الشوارع مستقيمة لا عوج فيها ومتوازية ! كما نراها في مدينة اللاهون ، التي يرجع تاريخ انشائها الى عصر الأسرة الثانية عشرة ، وكانت منازل المدينة تختلف في عدد حجراتها وسعة كل حجرة ، اذ كانت تتراوح بين أربع حجرات وستين حجرة ! كما كانت المنازل التي تحيط بكل شارع تختلف باختلاف الشوارع ، اذ كانت منازل كل شارع ذات حجم واحد ، كما كانت الشوارع تختلف في طولها ، فكان في مدينة اللاهون شارع طوله ٩٢ قدماً يشرف عليه منزلان من كل جانب ، وآخر طوله ٢٣٠ قدماً يشرف عليه ثمانية منازل من جانب وتسعة من الجانب الآخر ، وكان طول الشارع الرئيسي الذي

تشرف عليه القصور الكبيرة ٩٠٠ قدما ، وكان يشرف على كل جانب من جوانبه ثمانية قصور فخمة ! وكان يتراوح عرض الشوارع بين ١١ و ١٢ قدماً ! وكان في وسط كل شارع قناة أشبه بالقناة التى كانت تشق في الشوارع الانجليزية ، وكان مبنيه بالاحجار ومخصصة لتصريف المياه . ولم يكن في الشوارع أفاريز مخصصة للمشاة ، اذ لم يكن آنذاك عربات تسير في الشوارع !

ولقد كان أبسط المنازل يتكون من فناء مكشوف مواجها لمدخله ، وحجرة عامة واحدة في جانب ، وفي الجانب الآخر المواجه حجرتان للتخزين ، وسلم موصل الى السطح .

ولقد كانت البيوت المخصصة للفنين من الصناع والمشهورين منهم بخاصة ، أكثر اتساعاً ، ويشتمل كل بيت منها على فناء مكشوف وأربع حجرات مفتحة أبوابها عليه ، وتتصل بخمس حجرات أخرى ! وكانت الحجرات جميعها مسقوفة بقوائم (عروق) من الخشب من فوقها عيدان الذرة وسيقان الغاب ، وكان لبعض تلك الحجرات سقوف مقبية من اللبن ! وكانت مداخل جميع الأبواب معقودة ! أما سلمها فكان يتكون من مجموعتين من الدرجات عدد كل مجموعة منها اثنتا عشرة درجة ، وبينهما بسطه ، وكان عرض كل درجة ٢٧ بوصة . وكانت احدى حجرات البيت تخصص لطهى الطعام . وكانت الأبواب وعتباتها تصنع من الخشب .

وكانت في البيوت الكبيرة صوامع مخروطية الشكل لحفظ الغلال يبلغ قطرها نحو ستة أقدام وسمك حائطها سمك قالب من اللبن ! وكانت تبنى تلك الصوامع بحيث تكون قريبة من بعضها بعضا قربا لا يسمح لأى انسان أن ينفذ من بين اثنين منها الا بشق النفس !

ولقد كانت الدور الكبيرة تختلف اختلافاً بيناً عن البيوت الصغيرة التى وصفناها ، وكان يتبع فى بنائها طراز خاص ، يشبه الى حد كبير طراز القصور التى أنشئت بعد ذلك بنحو ثلاثة آلاف سنة . ففى كل منها كانت حجرة للبواب تواجه الباب الخارج للدار ، فاذا ما اجتزت الباب وجدت ثلاثة ممرات ، أحدها الى يسارك يوصل الى المطبخ والى الجناح المخصص للرجال ، وتفتح عليه أفخم حجرات الدار ، ترى بعد ذلك أمامك ممرين متوازيين ، أحدهما يوصل الى الحجرات المفضله عند الأسرة (١) ، والآخر يوصل الى جناح الحريم . وكانت المطابخ والمخازن تتألف من نحو أربع عشرة غرفة ، وقاعة كبيرة للخدم ! أما عدد غرف الأسرة فكانت ست عشرة تتفتح على ثلاث أبهاء متسعة ذات أعمدة ، وكان جناح السيدات يحتوى على ثلاث عشرة حجرة وعلى بهو ذى أعمدة ! وكان خلف القصر أو الدار فناء متسع مكشوف أى غير ذى سقف تحيط به

---

(١) لعل المقصود بحجرات الاسرة هى تلك التى يجتمع فيها جميع افراد الاسرة من رجال ونساء واطفال فى المناسبات المختلفة !

بواكي مسقوفة ، وملحق به ستة مخازن أخرى ! وهذه الغرف والقاعات والأبها ، التي يزيد عددها على ستين كان يوصل اليها بمدخل واحد ضيق ! •

وكان بكل قاعه من قاعات الحريم والخدم حوض يملأ بالماء ! وكان يخصص بهو للشتاء ذو أربعة أعمدة ، وكان مسقوفاً ، كما كان يخصص بهو للصيف وكان غير مسقوف وبه اثنا عشرة عموداً تحيط بحوض للماء مصنوع من الحجر !

وعلى آثار تل العمارنه يوجد نموذج لمساكن الطبقة الوسطى من الموظفين الذين كثر عددهم في عصر الأسرة الثامنة عشرة ! وكانت المسافة التي تفصل بين كل مسكنين متجاورين تتراوح بين أربعين وخمسين قدما ، وكان يحيط بكل مسكن سور يشبه سور الحدائق ! وعندما كان يجيء الأسرة المصرية زائر ويرقى درجات منزلها الأماميه ، يجد حجرة مخصصة للبواب ، وممرا ينتهي الى حجرة مخصصة لاستقبال الزائرين والضيوف ، ومن الممر يتفرع ممر آخر ينتهي الى بهو بأحد جوانبه أريكة قليلة الارتفاع أمامها مدفأة ، وفي جانبه الغربي محراب للعبادة أحمر اللون ! كما كان يحيط به أربع مجموعات من الغرف ، تتألف المجموعة الأولى من حجرة مخصصه لرب البيت ، بها سرير له يوضع في جنوبيهـا حيث تضيق بعض الضيق ، ومن بضع غرف للسيدات ، ومن المطبخ •

وتحتوى المجموعة الثانية على عدة غرف مخصصه لرجال الأسرة (١)، وبهذه المجموعة بهو صغير ! ويغلب أن يكون بها باب خلفي ! وتحتوى المجموعة الثالثة على حجيرات صغيرة تستعمل مخازن ! وتحتوى المجموعة الرابعة على حجرات بها صواوين عدة ، ومن بينها سلم يرقى الى سطح المنزل ! »

ولقد كانت تلك القصور والدور الكبيرة أنواعا مختلفة ، وكان يضاف عليها على مر السنين مبانى يختلف طابعها ونظامها باختلاف الغرض الذى كانت تخصص له ! وضرب المؤلف لذلك مثلا بقصر تل العمارنة . ولم يكن لهذه القصور والدور الكبيرة نمط واحد يمكن أن يتخذ نموذجا لها ، ولكن يمكن القول بأنه كان كل منها ـ بوجه عام ـ يشتمل على حديقة مسورة وعلى عدة أجنحة ، بعضها لاستقبال الضيوف والوافدين ، وبعضها لأفراد الأسرة ، وبعضها للخدم والمطابخ والمخازن ! وكانت كها متصلة بعضها ببعض لا يفصلها فاصل . وكان بها طبقات عليا ، تعلوها حجر مكشوفة حيطانها غير سميكة ، أو ستائر جميلة من القماش !»

أما بيوت الطبقة الفقيرة فكانت تتكون من دور واحد صغير وقل أن يعلوه دور آخر !»

---

(١) لعل المقصود بالرجال ابناء رب البيت واخوته .

ولقد كانت تبنى الدور المصرية في العهد الروماني باللبن ؛ وقد أدى استخدام الآجر (١) والجص الى رفع مستوى البناء في مصر في ذلك العهد بحيث أصبحت الدور في مدنها المختلفة لا يقل عنه في مدن الامبراطورية الرومانية ، ويبدو أن المصريين في هذا العصر لم ينسوا نصيبهم من الدنيا ، ومتع الحياة وترفها ! على أن كثرة نشوء كثير من الضواحي في المدن ، ومن المساكن التي عمرت بها بعض المناطق الصحراوية ، وانتشار الفخار المتين الجميل ، والزجاج الملون ليدل على أن سكان مصر في هذا العصر كانوا أكثر عددا وأوسع ثراء من أي عهد مضى ! وهكذا كان شأن سكان أقطار شمالي أفريقية وحوران حيث بلغت مظاهر الحضارة أوجها في العصر الروماني !.

وان الحركة الجديدة للنساك التي نشأت في هذا العهد عن اضطهاد والحكام الرومانيين في بادىء الأمر ، ثم استمرائهم لها ورغبتهم في الرهبانية آخر الأمر ، والتي حدت بهم الى سكنى كهوف الجبال في حافة الصحراويين الشرقية والغربية ، لم تكن مظهرا من مظاهر الرغبة الخالصة في التقشف والزهد والرجوع الى الحياة البدائية الأولى التي كان يحياها أجدادهم الأولون ! ولا أدل على ذلك من أن نساك العمارنة والمرابة المدفونة قد شيدوا أديرة فاخرة ، رصفت بالبلاط رصفا جميلا منسقا ! وطليت جدرانها بطلاء أبيض ناصع جميل ، وزودت بأنواع الأثاث والرياش والفرش ، كما زينت جدرانها

(١) الآجر هو الطوب الأحمر .

بالعصور الجميلة ، وأوصلوها الى الطرق العامة بمسالك مرصوفة والحقت بها مرافق جيدة لطهي الطعام ولتخزين المؤن والماء .

وان في تفصيل فن العمارة في مصر القديمة أشياء كثيرة تثير أعجابك ! منها أن وصول ضوء الشمس الى داخل المنازل في مصر يختلف جد الاختلاف عنه في الأقطار التي يقل ضوء الشمس فيها ! اذ يكفي لوصول الضوء الى حجرات المنازل في مصر وجود كوة صغيرة في سقوفها أو نافذة أو أكثر في جدرانها الخارجية ، وكثيرا ما يكتفي بوصوله متسللا من الأبواب الخارجية ! أما في المعابد فكان يكتفي بوجود كوة في سقوفها لا تزيد مساحتها على تسع بوصات مربعة ليدخل منها الضوء الى داخلها ! ولهذا كانت جدران المنازل في القرى المصرية في العصور القديمة والحديثة لا يوجد بها الا نوافذ صغيرة يسميها الفلاحون المعاصرون طاقات في أجزائها العليا ! منها يدخل الضوء الى حجراته فوق الضوء الذي يأتيها من أفنيتها المكشوفة اه

ولقد كانت نوافذ الأدوار العليا تغلق بشبابيك ذات أشكال مختلفة ، وفي متحف اللوفر بفرانسا نموذج من العاج لشباك منها مكون من قضبان صغيرة أطرافها العليا على هيئة أزهار نبات اللوتس !

وفي المباني الحجرية كانت الشبابيك تصنع من الحجر أيضا ، وأحسن ما عرف منها حتى الآن يوجد في البهو الكبير في معبد الكرنك ، وفي معبد مدينة هابو ، وقد وجد منها فيه قطع أشكال مختلفة ، بعضها مكون من قضبان رأسية تعلوها كوة مستطيلة مقوسة ،

ومنها ما هو على هيئة شبكه مكونة من قضبان متقاطعه ، بعضها مصمت ، وبعضها مفراغ ، ومنها ما كان على هيئة وردة ذات ست ورقات ، وقد استخدمت أنواع متعددة من الأعمدة في بناء المنازل ، منها الأعمدة المتعددة الأضلاع ، وكانت تصنع اما من الحجر أو من الخشب ، ومنها الاعمدة المخططه ، ومنها أعمدة على هيئة ساريات الخيام ! وهذا النوع الأخير ، يرمز في الكتابة الهيروغلوفية الى المباني الصغيرة ! ولقد كانت تيجان الأعمدة التي تحاكي سعف النخل تصنع من الخشب بعد نقشه ! وكانت تيجان بعضها تنحت على هيئة براعم زهرات اللوتس ، أو على هيئة الجزء العلوي من نبات البردي • ولقد وجدت نقوش على مصراع أحد الأبواب تمثل أعمدة على هيئة قاعدة المصباح •

ولقد كان المصريون يعنون برصف أرض الحجرات ، فكانوا يبطنونها بأسطوانات من الفخار ، ذات أطراف مستوية السطح ، ثم يغطونها باللبن ! وكان الغرض من وضع اسطوانات الفخار تحت طبقة اللبن صرف المياه التي قد تنفذ الى باطن أرض الحجرات ! كما كانوا يغطونها باللبن ! وكان الغرض من وضع اسطوانات الفخار تحت طبقة يضعون أنابيب من الفخار ملتصقة بأحد الجدران ، ومتدلية من سطح فوقه •

وكان في حدائق القصور والدور الكبيرة أكشاك من الخشب سقوفها من الحصر ، ولقد استخدم المصريون الحصر منذ العصور

الاولى لعمل الستائر ، وكساء الجدران الداخلية ، وفرش أرض الغرف !.

وكانوا ينشئون مخازن للمحاصيل المختلفة بجوار المنازل والدور ، ذات سقوف مقبية كما كانوا ينشئون في حدائق الدور أحواضا لتربية الأسماك فيها لاعتقادهم أنها تقضى على البعوض (١) الذى يتسبب في مرض الملاريا .

وان أقدم ما عرف من الطرق في الصحراء الغربية طريقان أحدهما يصل الوادى بالفيوم ، والآخر يصله بالواحات (٢) . وكان عرض كل منهما خمسين ذراعا (٨٥ قدما) .

أما الطرق التى كانت تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر عبر شمالى الصحراء الشرقية فكانت كما وصفها بلينى ، تمتد من الفرما ، ومن منطقة شرقى جيرون(٣) وعلى مقربة منها : ومن جبل كاسيوس (٤) الى السويس (٥) ، وكانت تلتقى جميعاً في منتصف الطريق .

---

(١) من المعروف أن هناك أنواعا من السمك تتغذى على يرقات البعوض .

(٢) لانعلم علم اليقين أى واحة يقصدها المؤلف .

(٣) بلدة صغيرة مكانها الآن قرية المحمدية ، وتقع عند الطرف الغربى لبحيرة البردويل .

(٤) يقع جبل كاسيوس شرقى جيرون .

(٥) كانت تسمى برنيس آنذاك .

أما الطرق التي كانت تخترق الأراضي الزراعيـة ، فقد كانت دروبا بين الحقول تكفي لسـير السـابلة والحمير ، ثم فيما بعد لسير الجمال عند ما جيء بها من بلاد العرب ! وكانت تمتد على جـوانب الترع دروب أكثر اتساعا ، وكانت أهم الطرق التي تعبر الأراضي الزراعية هي التي كانت تمتد فوق الجسور التي كانت تقسم الأراضي الى أحواض تمتلىء في زمن الفيضان بماء النيل الذي كان يحمل الغرين المخصب ، والذي كان ينصرف الى النيـل عنـدما ينخفض ماؤه !.

ولقد قام الملك أمنمحات الثالث ببناء السد القائم عند بياهو ، وقد كان على وشك الانهيار (١) ! وبهذا السـد تكون خزان عظيم لخزن الفائض من ماء النيل عند ارتفاع منسوبه في زمن الفيضان ، وتصريفه عند انخفاضه .

---

(١) ويرى بعض المؤرخين أن أمنمحات الثالث لم يبن هذا السـد ، وانمـا قام بتجديده ، وان الذي قام ببنائه هو أمنمحات الاول ! على حين يرى سواه انه كان قائما منذ عهد الاسرة الثالثة ، وان أمنمحات لم يقم الا بتجـديده كما اشرنا . والذي لا ريب فيه أن الملك أمنمحات الثالث بنى سدين في اليوم احدهما عند فتحة اللاهون ، يحجز المياه المتجمعة في البحيرة ، ويمنعها من انصرافها الى النيل عندما تبدأ مياهه في الانخفاض ، وتصريفها عند الحاجه اليهـا في فصـل التحاريق ، أما السد الآخر فقد شـيده عند بلدة بياهو الواقعـة في منتصف المسافة بين سنورس ومدينة الفيوم .. ولقد كان هذا السد على هيئة نصـف دائرة ، وكان يقصد ببنائه تجفيف الأراضي الواقعة بينه وبين سد اللاهون وبذلك أمكن استرداد مساحة قدرها عشرون ألف فدان ، ومن بينها الارض القائمة عليها مدينة الفيوم التي يشير اسمها القديم وهو شدت ومعناه بالهيروغلوفية «المستردة» الى هذا المشروع والقصد من القيام به !

وقد بلغت مساحة هذا الخزان (البحيرة) آنذاك نحو ٧٠٠ ميل مربع ، ولقد ظل هذا الخزان يستخدم في الغرض الذي أنشيء له الى عهد بطليموس الأول الذي كان جل جيشه من الاغريق ، وقد رأى ان يهبهم أرضا زراعية يستقرون فيها ، فعمل على تصغير حجم الخزان أو البحيرة تدريجيا بالحد من مقدار مياه الفيضان التي كانت تنساب فيها ، فلما انحسر الماء عن حافاتها أقطعهم اياها ! .

ويرى معظم المؤرخين أن نظام الري توطد في مصر بحيث شمل القطر كله منذ عهد الأسرة الأولى مستدلين على ذلك بالنقوش التي وجدت على رأس صولجان للملك العقرب (١) يمثله حاملا فأسا ويهم بالحفر ، بينما كان العمال وهم خائضون في الماء يعملون لاقامة سد .

ولقد عرف المصريون منذ ذلك العهد البعيد فائدة المصارف في التخلص من المياه الزائدة عن حاجة الأرض الزراعية والمحملة برواسب الأملاح ، التي من شأنها أن تضر بالزرع اذا بقيت عليها ! أما نظام الري والصرف الذي اتبع في مصر الحديثة فانه يعتمد على وجود قنوات يختلف مستواها ، فما كان منها ذا مستو مرتفع يستعمل للري ، وما كان ذا مستو منخفض يستخدم للصرف .

---

(١) هو الملك السابق لمينا مباشرة ، ولايعرف نطق اسمه بالهيروغلوفية الذي كتب على هيئة عقرب .

ولقد كانت أولى الخطوات التي اتخذها ولاة الأمور المصريون الذين عنوا بتنظيم ماء الفيضـان تقسيم الأراضى الصالحة للزراعة الى أقسام واسعة (أطلق عليها لفظ أحواض) تفصل بينها جسور يبعد كل منها عن الآخر مسافة بضعة أميال ! ويفصل هذه الأحواض عن النيل جسر عظيم يسير محاذيا لمجراه وبذلك تمكنوا من التحكم في ماء الفيضان وفقا للحاجه اليه ! ولقد كانت مياه الفيضان تغمر أرض الحياض لفترة معينة يرسب في اثنائها معظم الطمى التي تحمله فيجدد خصوبتها ، ثم تصرف عندما ينخفض منسوب ماء النيل محملة ببعض أملاح تربة الأرض والتى اذا لم يتخلص منها أضرت بالزرع !.

ولقد استمرت طريقة رى الحياض حتى العصر الحديث(١) . ولم يبطل اتباعها الا بعد أن اسـتبدل بها نظام الرى الدائم أن الصيفى ! (٢) .

وعلى الرغم من فائدة طريقة الرى الدائم فانها حرمت الأرض

---

(١) لقد كان من مزايا رى الحياض تجديد خصوبة الأرض بما يرسب عليها من الطمى كل عام ، وترك الأرض بدون زراعة فترة تستريح فى اثنائها ، وتتشقق فتتعرض شقوقها لأشعة الشمس التى كانت تقتل ماقد يوجد بها من ديدان وحشرات تضر بالنبات ، وكان من مساوئها زراعة الارض مره واحدة فى السنة .

(٢) من مزاياه زراعة الأرض مرتين او ثلاث مرات فى السنة ، وقد تطلب استخدام هذه الطريقة انشاء عدد من القناطر على النيل ، وحفر كثير من الترع والمصارف ، واقامة السدود !

ومن عيوب الرى الدائم اضعاف الارض لزراعتها مرات فى السنة وحرمانها من الطمى ، وعدم تعرضها للشمس والهواء فترة طويلة كما كان الشأن فى نظام رى الحياض ، الأمر الذى تكثر معه الآفات الزراعية .

من الطمي المخصب لها الذي كانت تحمله مياه الفيضان اليها ! الأمر الذي اضطر المزارعون الى استبدال المخصبات الحيوانية والكيماوية به

ولقد كان منسوب ماء النيل يسجله المصريون على مدار السنة منذ عهد الأسرة الأولى ، وقد استخدموا لذلك مقاييس أقاموها فى أماكن عدة ، ولقد كانوا يحجزون مياه النيل بسدود من تراب تزال عند عدم الحاجة اليها !•

ويروى ديودورس أن فتح سد الفيوم واغلاقه كان يتكلف خمسين وزنة من الذهب فى المرة الواحدة •

ولقد كان المصريون حتى عهد قريب يحتفلون بفتح سد الخليج الذى كان يخترق مدينة القاهرة احتفالا كبيرا يبلغ مرتبة الأعياد •

ولقد كانت المحافظة على سلامة السدود وقت الفيضان من شئون الدولة الهامة ! فقد كان الخفراء يسهرون على حراستها ، وفكانوا يرون صفوفا متراصة ، وقد وقف كل منهم على مدى سمع الآخر ، كما كانوا يتناوبون الحراسة ليلا نهارا ، وكانوا يزودون بقدر كاف من العروق الخشبية والحبال لسد أية ثغرة تحدثها المياه فى السدود •

ولقد كان فى العصر الرومانى يعاقب الذى يتسبب فى احداث تلف فى سد من السدود بالاشغال الشاقة أو النفى الى الواحات !

ولقد حدثت في السدود ثغرات عدة في العصور السابقة ولما كان من الضرورى ترميمها من أمام السد لوقايته وتقويته ، أصبح من اليسير تمييز مواضع تلك الثغرات المرممة بوجود انحناء في جدار السد ! ولهذا السبب نجد عددا كبيرا من السدود تنحنى جدرانها حتى لتكاد تشبه الأفعى في تلويها ! وذلك لأن الذين قاموا بالترميم لم يراعوا المحافظة على استقامتها عند قيامهم بترميمها .

* * *

لا نعلم علم اليقين تاريخ حفر القناة التى كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر ، اذ لايزال المؤرخون غير واثقين من أن أسطول الملكة حتشبسوت الذى زاد بلاد بنت وعاد منها سلكها . ولكن الذى يعلمونه علم اليقين أنه كانت هناك قناة تخرج من النيل ، وتمتد مسافة كبيرة جهة الشرق ! ولقد عثروا على آثار تمثل الملك سيتى الأول ، وهو يعبر قناة تموج بالتماسيح وتعلوها قنطرة ذات أبراج حصينة في طريقه الى الشام ! فاذا فرضنا وجود قناة تمتد بين النيل وهيروبوليس (١) غربى بحيرة التمساح الحالية ، عند تل المسخوطة، لم يعد ما يدعو الى وجود قناة ملاحية تمتد الى أبعد من ذلك لأن خليج السويس كان – حتى العصر الرومانى – يمتد شمالا حتى

---

(١) هيروبوليس Heropolis ومعناها بلغة الاغريق مدينة الابطال ومكانها الآن تل المسخوطة والتى سميت كذلك لوجود تماثيل كثيرة بها .

تلك المدينة (١) ! •

ويقـول اسـترابو : ان سيزوستريس ، ويقصـد رمسيس الثانى (٢) هو أول من حفر تلك القناة ! ولقد حاول دارا اكمالهـا ولكن أثناه عن ذلك اعتقاده أن مستوى ماء البحر الأحمر أعلى من مستوى أرض مصر ، وهو نفس الخطأ الحسابى فى تقدير مستوى ماء البحرين الأبيض والأحمر الذى وقع فيـه مهنوسـو الحملة الفرنسية •

أما هيرودوت فيزعم أن نخاو هو الذى بدأ بحفرها (٣) ، أو على الأقل زاد فى امتدادها ، وأن دارا هو الذى أتمهـا ، وجعلهـا من السعة بحيث تسمح بمرور سفينتين فيها فى وقت واحد وذلك فى جزئها الواقع بين بوبسطة والبحر الأحمر •

ويقول ديودورس أن القناة كانت تصل الفـرع البلوزى

---

(١) كان خليج السويس يصل اليها آنذاك !

(٢) كان مؤرخو اليونان يطلقون اسم سيزوستريس على سنوسرت الثالث احد ملوك الاسرة الثانية عشره ، ولكن المؤلف يرى أن استرابون يقصد بسيزوستريس الملك رمسيس الثانى لاسنوسرت الثالث • والواقع أن أسماء فراعنة مصر اختلطت على هؤلاء المؤرخين • فنسبوا كثيرا من اعمال بعضهم الى بعضهم الآخر •

(٣) يكاد يجمع المؤرخون على أن أول من قام بحفر قناة وصلت البحر الأحمر بأحد فروع النيل وهو التاريخى هو الملك سنوسرت الثالث (١٨٨٧ ق•م - ١٨٤٩ ق•م) وكان البحر الاحمر ممتدا آنذاك الى البحيرات المرة : مصر الخالدة للمترجم ص ٦٨ •

باالخليج العربى والبحر الأحمر ، وان المحاولة الأخيرة بعد محاولة نخاو ودارا هى التى قام بها بطليموس الثانى الذى قام بحفر قناة عبر برزخ السويس واقامة هويس عليها فى أصلح موضع يفتحه كلما أراد عبورها ، ثم يغلقه مباشرة ! وكان يسمى فرع النهر الذى كان ينساب فى تلك القناة باسم بطليموس !.

وعند ملتقى القناة بالبحر أسست مدينة « ارسينو » ومكانها شمال مدينة السويس الحالية بقليل ! ولقد عثر على بعض آثار دارا على مقربة من تل المسخوطة ، وفى « أرسينو » .

ويرى بعض المؤرخين أنه كان هناك اتصال مائى بين النيل والبحر الأحمر فى عهد الأسرة التاسعة عشرة .

ومصدر الماء فى الصحراء الغربية منخفضات فى بعض جهاتها تغطى سطحها طبقتان ، احداهما وهى السفلى مسامية من الحجر الرملى مشبعة بالماء ، والثانية طفلية وغير مسامية ، وهى العليا ، ولا ينفذ اليها الماء خلالها الا اذا حفر بئر ارتوازى عبرها ! فاذا ما حفر انبثق الماء وملأ المنخفض وأصبح معين ماء يمكن استخدامه للشرب ورى الأراضى المجاورة !.

ولقد نجح الرومان فى الحصول على مقادير وفيرة من الماء الباطنى فى الواحات ، وذلك بحفر أنفاق يتراوح طولها بين ميلين وثلاثة أميال تتصل بالانكسارات والشقوق الطبيعية فى القشرة الأرضية !.

ولقد عفا الزمن على كثير من تلك الأبار الرومانية بسبب اهمالها ، على أن هناك عددا قليلا منها لا يزال يتفجر منه الماء بصورة مستمر وبمعدل يبلغ مئات من الجالونات فى الدقيقة ! •

* * *

وان اقامه ذلك العدد الكبير من المبانى والمنشآ الأخرى بالحجر فى عهد الأسرة الرابعة ، وفى العهود التى تلته قد تطلب استغلال المحاجر على نطاق واسع ، وبخاصة تلك التى كان يستخرج منها الاحجار المتينة •

ولقد كانت الطريقة التى كان المصريون القدماء يتبعونها للحصول على الأحجار اللازمة للبناء هى حفر فجوات حول كتل الصخر يسمح اتساعها بمرور ذراع الحجار وبيده معول (أزميل) الى عمق يتراوح بين قدمين وثلاثة أقدام فى داخل الصخر •• وكان قطع الكتل الكبيرة يتم عن طريق اعداد خنادق تتسع لنزول الحجارين فيها ! وكان الخندق يحدد برسمه على الصخر ، ثم ينحت الى أسفل •

ولقد عثر فى تلك المحاجر على نقوش وكتابات قام بنقشها وكتابتها العمال الذين كانوا يشتغلون فيها أو أولئك الذين لجأوا اليها فيما بعد هربا من الاضطهاد الدينى !

ولقد سار المصريون بعد ذلك على نهج هذه الطريقة فى قطع

الأحجار من المحاجر ، كما ساروا على هديها فى نحت الأبهاء المظيمة فى جوف الجبال المطلة على الوادى لعمل المقابر .

ويغلب على الظن أن الأحجار التى كانت تنزع لعمل المقابر كان يستخدمها النبلاء فى بناء منازلهم التى يقيمونها فى أرض الوادى المجاورة !

***

ولم يكن التعدين فى مصر يجرى على نطاق واسع ، لأن مناجم المعادن ، ومناجم الذهب بخاصة كانت فى جهات الصحراء الشرقية النائية .

ولقد كانت الصخور التى كانت تحتوى على الذهب تتكون من الكوارتز الأبيض ، الذى كان يكسر قطعا ثم يسحق حتى يصير وفى شبه جزيرة سيناء كان الفيروز وكذلك الملاخيت والنحاس والمواد اللازمة لصنع الزجاج تستخرج كلها من بين طبقات الحجر الرملى ! ولم تكن المناجم فى سيناء عميقة ، وكان الضوء لذلك يصل من الخارج ، وكان المنقبون يتتبعون الطبقات التى تحتوى على المعادن ! .

وفى الواحات الخارجة مناجم كبيرة لاستخراج الشب ! .

أما الملح فكان يستخرج من الواحات ومن برزخ السويس !.

ولقد كان المصريون القدماء يقيمون القلاع والاستحكامات اتقاء غارات الأعداء ! ففي عهد الأسرة الاولى كانت الاسوار متينة على الحدود ، وكان أول واجب يقوم به كل ملك جديد بعد اعتلائه عرش مصر الذهاب اليها والطواف بها للتأكد من سلامتها (١) ويشير سنوحي الى تلك الأسوار فيقول : وصلت الى أسوار الملك (٢) الكائنة على مقربة من بلبيس ، والتي شيدت لصد غارات قبائل « الساتي » (٣)

ويزعم المؤلف أنه لا يزال أحد الأسوار في منطقة الشلال في حال لا بأس بها ، ولكنا لا نعلم علم اليقين تاريخ بنائه ! ويغلب أنه بني لصد القبائل الضاربة في الصحراء الشرقية .

على أن أقدم الحصون الباقية الى الآن هو حصن ايدوس الذي يرجع تاريخه الى عهد الأسرة الثانية ، ويعرف الآن بالشونة ـ أو شونة الزبيب ـ ويبلغ سمك جداره الرئيسي سبعة عشر قدما ،وارتفاعه أربعة وثلاثون قدما ! ويبدو أنه شيد بادىء ذي بدء الى ارتفاع واحد وعشرين قدما ! ثم زيد ست مرات ! وكل زيادة كانت تتم في خلال عام ! ويبلغ طول الحصن اربعمائة قدم وسبعة أقدام وعرضه

---

(١) أن ماوصل اليه الاثريون من الكشوف الحديثة لايتفق مع هذا الراى .

(٢) سور أنشأه المصريون القدماء على الحدود الشرقية لمصر لصد البدو ، يرجع في الغالب الى زمن الملك سنفرو .

(٣) الاسم المصرى الذى كان يطلق على القبائل البدوية الذين كانوا يقيمون في الصحراء الشرقية .

مائتا قدم وعشرة اقدام ، ويحيط به ممر عرضه عشرة أقدام ونصف القدم ، يليه حائط مرتفع سمكه تسعة أقدام ونصف القدم !
ولذلك كان الجدار الرئيسي للحصن في مأمن من الاصابه بقذائف المغيرين بطريقة مباشرة ، وعلى أن العدو المهاجم كان اذا تمكن من الوصول الى الممر بعد اقتحامه للسور الخارجي ، يتعذر عليه التقهقر في سهوله ويسر ، لتعرضه لانهيار الأحجار الثقيلة عليه من أعلى السور الرئيسي . وفي الحصن أبواب أشبه بالحجرات ..
ومن الغريب حقا أننا لم نجد أثرا لسلم يوصل الى أعلى الحصن ، أو حتى لمكان لتثبيت سلم خشبي يؤدي اليه ، مع أن الوصول اليه أي الى أعلى الحصن ـ كان أمرا ضروريا للدفاع اذا ما هاجمه الأعداء المغيرون ! ويوجد بالقرب من هذا الحصن قلعتان من طرازه . احداهما لم يبق منها الا أساسها ، والأخرى مستخدمة كدير للأقباط !.

ولقد شيد المصريون في عهد الأسرة الخامسة بعض الحصون في جنوبي بلاد الشام.(1)وفي عهد الأسرة الثانيه عشرة كان المصريون يبنون الحصون متبعين طرازا جديدا ، وأبرز مثل له حصن سمنه (2) العظيم ، يتلخص في بناء مجموعة من الابراج المنيعة حول أسوار

---

(1) لقد عثر الاثريون على رسم لاحدى القلاع المصرية في جنوبي بلاد الشام يحاصرها الاعداء الذين يبلون ولقد تسلقوا سورها الخارجي بسلالم من خشب ! بينما يقوم بعضهم بهدم بعض أجزائه !

(2) بلدة صغيرة على شاطىء النيل الغربي جنوب وادي حلفا .

الحصن ، وبذلك يمكن للمدافعين صد هجوم المغيرين عليه قبـــل الوصول الى أسواره المنيعة !•

ولقد كانت أسوار الحصن ترتفع اثنتين وثمانين قدما ويحيط بها خندق يحميه جدار متين من الحجر منحدر الى الخارج ! وكان العدو المهاجم يتعرض لرماح المدافعين التى يرمونه بها وهو يحـاول اجتياز منحدرين عسيرين وهما منحدر الجدار الخارجى ومنحدر الخندق قبل وصوله الى أسوار الحصن نفسه ! •

وكانت عروق الخشب تستخدم فى تدعيم جدران الحصـــن المبنية باللبن ، لتزيدها متانة وقوة حتى اذا استطاع العدو المهـاجم احداث ثغرة واسعة فى الجزء الأسفل من الجدار لا تتعرض أجزاؤه العليا للانهيار ، ويرجع استعمال عروق الخشب لتقوية الجـدران المبنية باللبن الى عهد الملك سنفرو •

وقد استبدل بهذا الطراز طراز آخر فى العصر الرومانى ،فقد كانت الحصون فى هذا العصر تشيد من الآجر ، يتخلل جـدرانهـا أبراج قوية مجوفة على هيئة أنصاف دوائر كما هو الحال فى حصن بابليون فى القاهرة ، الذى يشـبه الحصـون الرمانيـة فى بعض أقطار أوروبة ! •

أما وقد عرفنـا وسـائل الدفاع الماديه ، فقد حق علينـا أن نستعرض طريقة تكوين القوات المدافعة عنها !

لقد تعرضت مصر لغزوات الشعوب المحيطه بها ، لا بل والبعيدة عنها ، فقد تعرضت لغزو الليبيين من الغرب ، ولغزو بعض الشعوب الآسيوية من الشرق (١) ! وكان المصريون يصدونهم لا بل ويهاجمون بعضهم فى بلادهم ! ومن ذلك أن مينا (نارمر) استولى بعد انتصاره على بعض أولئك الغزاة على ١٢٠٫٠٠٠ أسير وعلى ٤٠٠٫٠٠٠ ثور ، وعلى ١٫٤٢٢٫٠٠٠ من الماعز ! ولاريب فى أن ذلك كان يتطلب جيشاً كبيرا منظماً ! كما هزم أحد ملوك الاسرة الثانية بعض أولئك الغزاة وقتل ٤٧٫٢٠٩ من جنودهم !

ومن ذلك يتبين شغف المصريين بالاحصاءات الدقيقة •

وفى أواخر عهد الأسرة الثالثة قام سنفرو بمحاربة النوبيين ، وعاد بعد انتصاره عليهم ومعه ٧٠٠٠ من الأسرى و ٢٠٠٫٠٠٠ من الماشية !

ولقد انتهت الحرب ضد الليبيين فى عهد أحد ملوك الأسرة الخامسة باستيلاء جيشه على ٨٣٢٫٩٤١ رأسا من الماشية •

وكانت بعض تلك الحروب تستغرق وقتا طويلا ، يرسل المصريون فى اثنائه البعثات المختلفة للكشف والاستطلاع ! كما كان يتطلب تقديم الغذاء لعشرات الألوف من الجند فى أوقاته ! وكل ذلك يدل على تنظيم دقيق محكم •

ويبدو أن تلك الحروب قد استدعت فرض الخدمة العسكرية على ثلث عدد البالغين من الرجال ، ممن هم في سن التجنيد !

وفي عصر الدولة الوسطى كانت أسماء الذكور ممن هم في سن الخدمة العسكرية تسجل ، لامكان دعوتهم للانضواء تحت لواء الجيش متى احتاج الأمر الى ذلك ! كما كانت هناك كتيبة تابعة للملك ، منظمة تنظيما دقيقا ، تقوم بمثل ما يقوم به الحرس الملكي أو الجمهوري الآن ! ولقد كان الجانب الأكبر من القوات المصرية يدرب محليا في الأقاليم المختلفة ! فكان في عهد الأسرة التاسعة عشرة فيلق آمون من مصر العليا ، وفيلق بتاح من مصر الوسطى ، وفيلق رع من هليوبوليس وجنوبي الدلتا ، وفيلق سوتخ (١) من تانيس ... وكان حكام الأقاليم والمقاطعات هم المسئولون عن تجنيد تلك الفيالق وتدريبها !

ولقد سبق أن ذكرنا أن المجتمع المصري كان يتألف من ثلاث طبقات وهم المزارعون والكهنة والجند . على أن تاريخ هذا التقسيم غير معروف .

---

(١) هو الاله ست وكانت عبادته سائدة في شمالي شرق الدلتا منذ عصر ماقبل الاسرات ، وعندما غزا الهكسوس مصر واستقروا في هذه المنطقة عبدوه وكانوا يطلقون عليه ذلك الاسم (سوتخ) وظلت عبادته قائمة بعد طردهم من مصر وفي عهد الاسرة التاسعة عشرة بخاصة التي كان ملوكها يشتقون أسماءهم من اسمه مثل سيتي !

ولقد كان الجيش النظامي في عهد الملك سيتي مزودا أحسن تزويد بكل ما يحتاج اليه من زاد وعتاد ، وكان يصرف لكل جندي ما يكفيه من لحم وسمك وخضر وخبز (١) ، كما كان يصرف له رداءان من الكتان كل شهر ! أما تابع الملك أي احد أفراد حرسه الخاص فقد كان يصرف له عدا ذلك مقادير من النبيذ والزيت وعسل النحل والتين •

وكان الجيش اذا ما سار يسير في صفوف منتظمة ، وكان لكل فرقة من فرقه علم خاص بها !

ولقد كانت الجيوش المصرية منذ العصور الاولى تضم بعض الفرق الأجنبيه ! وآية ذلك أن حملة الاعلام في جيش مينا أونارمر كانوا ينتمون الى جنسين مختلفين ! فقد كان أحدهما حليق الذقن ، وكان آخر طويلها ! كما نجد في عهد الأسرة الخامسه أقواما من البدو يحاربون في صفوف الجيش المصري ! وكان في عهد الأسرة الثانية عشرة في صفوف الجيش المصري جنود ليبيون يحملون أقواساً وسهاماً ! ولقد كان لرمسيس الثاني حرس من سكان جزيرة سردينيا ! أما في عهد الأسرة السادسة والعشرين فقد حدث تغير عظيم ! اذ لم يقتصر الأمر على ضم فرق من الاغريق الى الجيش المصري ، بل كان في سلكه عدد قليل من الكاريين (٢)

---

(١) كان يصرف لكل جندي اربعة ارطال من الخبز •

(٢) الكاريون نسبة الى كاريا ، وتقع في الجنوب الغربي من شبه جزيرة الاناضول ، ولقد ازدهرت حضارتها في العصر الاغريقي •

وغيرهم من الشعوب الآسيوية ! •

ولقد كانت القوات الحربيه المصرية آنذاك تتألف من قسمين كبيرين أحدهما خاص بمصر العليا وشرقى الدلتا ، ويسمى أفراده الكالاسيرى ، والقسم الآخر خاص بغربى الدلتا ، ويعرف أفراده بالهرموتيبيز (١) (Hermotybies) ، وكان عدد جنود القسم الأول ٢٥٠٫٠٠٠ ، وعدد جنود الثانى ١٦٠٫٠٠٠ ، وكان أولئك الجنود مقصورين على الخدمة العسكريه لا يسمح لهم بمزوالة عمل سواها ! ، وكان يصرف لكل منهم بالاضافة الى محاصيل ما يملك من أرض مقرر يومى مقداره خمسة أرطال من الخبز ورطلان من اللحم ، وأربعة أكواب من النبيذ •

وفى عهد البطالمة كان ينخرط فى الجيش عدد كبير من الاغريق ومن أهل مقدونيا بخاصة ؟ وفى عهد بطليموس الثانى كان الجيش يضم بين فرقة فرقة من الكلت يبلغ عددها أربعة آلاف• وفى سنه ٢١٣ ق•م كان يضم فرقة من تراقيا وغلاطية (٢) عددها أربعة آلاف جندى ! ذلك غير ألفى جندى جيء بهم من خارج مصر• وفى العصر الرومانى أبعد أحد البراطرة (٣) بعض الجنود المصريين

---

(١) القسم الاول كان يطلق على المجندين الجدد ، والقسم الثانى كان يطلق على الفرسان .

(٢) منطقة حول مدينة أنقرة •

(٣) اسمه هالنس وهو أحد براطرة روما ، وقد حكم من ٣٦٤ م الى ٣٧٨ م •

لأمر لا نعلم عنه علم اليقين شيئا ، واستبدل بهم جنودا من القوطيين، جاء بهم من بلادهم التي كانت جزء من امبراطوريته .

وفي القرن الثالث جند العرب في الفرق الاحتياطية ، كما يجند بعض رماة السهام التدمريين (١) .

ولقد كان من أهم أسلحة الجند في فجر التاريخ هو المضرب الذي كان على هيئة القرص ، ثم لم يلبث أن تغير شكله فأصبح في هيئة الكمثرى ! .. ثم استعمل الخنجر والحربة المصنوعان من الصوان كسلاحين بعد ذلك ! وكان في أثناء ذلك العصر البعيد يستخدم أهل صعيد مصر الحربة ذات الحدين كسلاح من الأسلحة التي كانوا يعتمدون عليها في الحروب ! .

وكان أقدم سلاح مصنوع من المعدن عرف في مصر ذلك النصل العريض المثلث الشكل ، ثم ظهر بعد ذلك نصل رفيع في وسطه خط غائر ! وقد استعمل هذا النوعان قبيل انتهاء العصر الثاني لما قبل التاريخ ! ثم ظهرت الحربة المصنوعة من النحاس ، ثم الدبوس المدبب الطرفين والقوس والسهم وعصا الرماية (٢) في مستهل عهد الأسرة الأولى ! وفي عهد الأسرة الرابعة ظهرت الفأس ، واستخدمها الجنود كسلاح في حروبهم

---

(١) اي سكان مدينة تدمر .

(٢) عصا مسطحة ومقوسة من احد طرفيها كانت تستخدم لصيد الطيور ، وتسمى البومرانج ولايزال سكان استراليا الاصليون يستعملونها الى اليوم !

ولكنها كانت أخف وزنا من الفأس التى كان يستعملها الفلاحون فى شئون الزراعة !•

وكانت العصا الغليظة التى تسمى الآن النبوت سلاح الأهالى العادى ! ما لبث أن أضيف اليه نصل مدبب حاد من معدن •

ولقد كان المقلاع من الأسلحة التى استوردها المصريون من الأقطار المجاورة (١) •

وكان الجنود المصريون يتقون أسلحة الأعداء بدروع مصنوعه من الجلود السميكه !

ولم تكن الخيول تستخدم فى الركوب الا نادرا ، وانما كانت تستخدم فى جر العربات الحربيه ! التى كانت تعد بالآلاف ، فقد روى أنه كان فى مدينة طيبة وحدها عشرون ألف عربة حربية• ولقد كانت العربات الحربية التى كان يستخدمها الجيش المصرى فى المعارك الحربية فى بلاد الشام يجر كل منها فرسان ، ولعل السبب فى ذلك وعورة الارض التى كانت مسرحا لتلك المعارك !

ولقد كان الطبل يستخدم ايذاناً للجيش بالتقدم ، كما كان يستخدم قادة الجيش النفير (البوق) لاصدار الأوامر ، وتوجيه سير القتال !

ولقد ابتدع المصريون أنواطا وشارات من الذهب لتمنح

---

(١) لقد كان لبيى الأصل •

للضباط أو الجنود الذين يقومـون بأعمـال بطولية • كمـا كانت توهب للأبطال بلط صغيرة من الذهب ، وهى تقابل سيف الشرف فى العصر الحديث !

والآن وقد استعرضنا فى ايجاز خصائص الحضارة المصريه ومقوماتها العامة ، ومنها يتضح أنها وليدة الظروف الطبيعيه الخاصه بتلك البلاد الفريدة • فيض عظيم من الخصب والنماء والوفرةوسط صحراء قاحله جرداء ، وحرارة لافحه تلطفها رياح عليله منعشة فى الصيف ، وحرارة معتدلة تميل الى البرودة أحيانا فى الشتاء ، وشعب نشيط زكى مجد قوى ، يعتوره الضعف كل بضع مئات من السنين سنة الله فى خلقه ، فتعرض بلاده الى غزاة من الجنوب ومن الغرب ومن الشرق ، فيتعرض لمؤثرات مختلفة ، ولكنه على الرغم منها ظل محتفظا بطابعه وصفاته القوميه ، وشخصيته الواضحة المعالم !

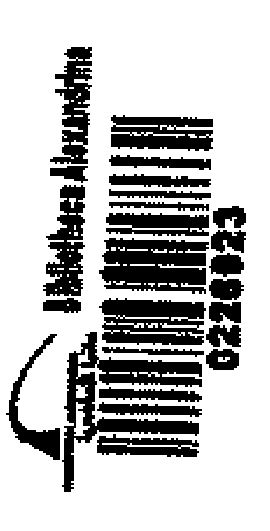
وخلاصة القول أن المناقب العالية والصفات الحميدة التى وهبها الله لهذا الشعب المجيد ، وكذلك ثبات دعائم حياته ، واسـتمرارها ، ووفرة الكنوز التى تدل على أمجاده التاريخية كل ذلك حليق بان يجعل منه أهم وأعظم مجتمع انسانى جدير بالبحث والدراسة سواء أكان ذلك من الناحية الاجتمـاعية أو السـياسية أو من ناحيـة الاختراعات والابتداعات التى قام بها ، فاقتبسها العالم المعاصر ، وعبرت اشراقاتها البحار والمحيطات الى العالم الجديد !

فهرس

الموضوع	صفحة
تقديم	٣
تمهيد	٧
مقدمة المؤلف	١٩
مراجع الكتاب	٢١
الفصل الاول (نشأة المجتمع المصرى) ..	٢٣
الفصل الثانى (ادارة البلاد) . ..	٨١
الفصل الثالث (الحسنات والسيئات)	١٤١
الفصل الرابع (الحياة الخاصة)	١٨٧
الفصل الخامس (وارد البلاد المختلفة وتجارتها الخارجية)	٢٢٧
الفصل السادس (التسبيد والدفاع)	٢٨٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٧٢/١٩٧٥



مطابع الهيئة المصرية العامة

الثمن ٩٠ قرشا